# القول الفصل

بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون

بقلم

أفقر عباد الله الى ربه الكريم

مصطفى صبري

شيخ الاسلام للدولة العثمانية سابقاً

---

القاهرة ١٣٦١



# كلمة المؤلف

ما زلت منذ بضع سنين مشتغلا بتأليف كتاب درست فيه جلّ مايحتاج المسلم المتعلم الى معرفتـه لوقاية عقيدته الدينية من الزيغ العصرى الذى أزداد مع ازدياد أيام حياتى بمصر وقوفا عليه ، وعلى أنه مرض من الامراض السرية المزمنة فى كثير من المتعلمين، لاالمثقفين الثقافة الغربيةفقط، بل ان لهذا المرض عدوى الى بعض الموظفين بوظائف علماء الدين أيضا ، حتى انى وجدت فى نفس بعض المعنونين بالمصلح فساداً، والقائمين للدفاع عن الدين إلحاداً ، ربما لم يطّلع غـيرى عليهما ، أو لم يتشجع لمناقشة أصحابهما الحساب ، وحتى ان موجة الشك تطاولت فى قلوبهم الى مسألة وجود الله، فلو اقترحتَ عليهـم اثباتها بعد تنصـل العلم الحديث عنها وا كتفائه بالتشكيك فيها لوجدتَهـم مذبذبين بين العجز عن اثباتها بالعلم القديم وبين عدم الاعتداد بأدلة ذلك العلم . وقد ذكرت فى مقدمة الـكتاب الطويلة جـداً وثائق من نشرات الصحف والمجلات لتلك الحالة السيئة ، لئلا يكون عيبها منى عليهم رجما بالغيب

فـكتبت كتابى غـير آل جهداً فى مداواة ذلك المرض الذى كاد يكون عاما ، وفى القضاء على أسس ذلك الزيغ التى زعم المتمسكون بها منذ أزمنـة من المـاضى القريب انها أسس علمية بحقيقة معنى الـكلمة، وربما غروا جيلا من الناس بدعواهم هذه وقد سميت الـكتاب : « موقف العقل والعـلم والعالَم من رب العالمين ورسـله »

ولـكون الـكتاب يكوّن ثلاثة مجلدات قررت ارجاء نشره الى انفراج أزمة الورق ثم حـدث فى الأيام الأخـيرة ان الشيخ شلتوت الذى عرفتـه من قبل بما أنـكر وجود الشـيطان كما يصوره كتاب الله ، ورددته عليه فى كتابى المار الذكر ، نشر

مقالة فى مجلة « الرسالة » عدد ٤٦٢ ينكر فيها رفع عيسى عليه السلام الى السماء حيا، ونزوله الى الارض فى آخر الزمان، فكتبت رداً عليه أيضا وأرسلت هذا الرد الى مجلة الثقافة. ولما مكث الرد فى ادارة المجلة زهاء شهر واطلعت على أن أصحابها لا يريدون نشره، واطلعت مع ذلك على رغبة كثير من المسلمين فى أن أقول قولى بهذا الصدد كما قال بعض علماء الدين الغيورين جزاهم الله عن المسلمين خيراً ، ونشرت مقالاتهم فى بعض المجلات ، أخذت من كتابى الباب الثالث الخاص بدرس مسائل النبوة والمعجزة والنشأة الآخرة، وبادرت الى نشره على شكل كتاب صغير قبل نشر الكتاب كله ، ليكون نموذجاً له ، وجواباً عاجلا فى المسألة الموضوعة موضع البحث، وليكون الذين ضنوا بالجو أن يتسع لمقالتى ، مجابهين بكتاب بدل مقالة ، وجعلت اسم هذا الكتاب :

« القول الفصل »

« بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون »

والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، انه سميع قريب مجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الم ذلك الكتابُ لاريْبَ فيهِ، هدًى للمتقين، الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون ، والذينَ يُؤمنونَ بما أُنزل اليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من اصطفاهم برسالته الى الناس ، وجعل لهم من الآيات البينات الخارقة لسنته فى الكون علامات يمتازون بها على الذين أرسلوا اليهم ، أخص بالذكر منهم رسولنا وسيدنا محمداً ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

وبعد . فما لايخفى على ذوى الأعين الساهرة، بعد أن سادت المادة فى الغرب، وأخذ الشرق يهتدى بهدى الغرب ، ما طرأ على القلوب الضعيفة من انكار المعقولات والمغيبات التى فى رأسها رب المشرقين ورب المغربين ، حتى ان الاستاذ فريد وجدى سبق له فى مقالة من مقالاته المنشورة فى « مجلة الازهر » ( الجزء الخامس من المجلد الثامن ) أن جعل الايمان بالغيب الذى هو أول صفة وصف الله بها عباده المفلحين ، مقابلا للايمان بالواقع فنزل الايمان بالغيب بهذه المقابلة منزلة الايمان بغير الواقع

وحتى ان هذا الاستاذ قال فى أثناء مناقشة جرت بينى وبينه ، ونشرت فى ضمن مقالات من الطرفين على صفحات جريدة « الاهرام » قولا ذكرته فى مقدمة كتابى المار الذكر بين أسباب تأليفه، وكان ذلك قبيل تولى الاستاذ رئاسة تحرير مجلة الازهر أعنى أيام كان حراً عن الوظيفة الرسمية الأزهرية

وهذا نص قول الاستاذ أعيده هنا بنصه :

« ... فى تلك الأثناء ولد العلم الحديث، وما زال يجادل القوى التى كانت تساوره حتى تغلب عليها، فدالت الدولة اليه فى الأرض ، فنظر نظرة فى الأديان، وسرى عليه أسلوبه، فقذف بها جملة الى عالَم الميتولوجيا ( الاساطير ) ثم أخذ يبحث عن اشتقاق بعضها عن بعض، واتصال أساطيرها بعضها ببعض

فجعل من ذلك مجموعةً تقرأ لا للتقدّس تقديساً ، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التى كان يستعبد لها الانسان نفسه ، ويقف على صيانتها جهوده، غير مدّخر فى سبيلها روحه وماله

« وقد اتصل الشرق الاسلامى بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية ، ويقتبس من مدنيته المادية ، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا، ووجد دينه ماثلا فيها فلم ينبس بكلمة لانه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله، ولكنه استبطن الالحاد وتمسك به، متيقناً انه مصير اخوانه كافة متى وصلوا الى درجته العلمية

« وقد نبغ فى البلاد الاسلامية كتّاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم، فأخذوا يهيئون الأذهان لقبولها دساً فى مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم، تفاديا من أن يقطّعوا أو ينفوا من الأرض »

ثم أدخل الاستاذ نفسه فى الذين أسلاهم الاتصال بعلوم الغرب عن دينهم ثم أخرجه من بينهم. ولا حاجة لتنبيه القارئ النبيه الى أن الدس الذى ذكره الاستاذ لنوابغ الشرق الاسلامى المستبطنين للالحاد بعد ارتشافهم من مناهل العلوم الغربية، له أنواع وأساليب لا تحد ولا تحصى، حتى ان منها الادخال والاخراج اللذين خصهما لنفسه كما يظهر من الاطلاع على صورتهما المذكورة فى مقدمة الكتاب. ومن ذلك الوقت الطويل الذى لفتنى افشاء الاستاذ فيه عن كتّاب المسلمين المستبطنين للالحاد ،

واستبطنتُ أنا أمرهـم ، لقيت من دسائسهم ما يجعل أسباب التأليف التى ذكرتها وأطلت الكلام فى ذكرها فى مقدمة الكتاب ، محصولَ الاستقراء الناقص ، حتى استدركت مافاتنى فى المقدمة من تلك الاسباب، وذكرته فى أمكنة مختلفة من صلب الكتاب

وأبرز مميزات هؤلاء الكتّاب والعلماء المتفقين معهـم انهم ينكرون المعجزات الكونية، ويعتبرونها من المستحيلات، وقد سبق فى مقدمة الكتاب كيف أنكرها الاستاذ فريد وجدى، وأنكر معها البعث بعد الموت، وردّ جميع آيات القرآن الواردة فى كل من الموضوعين الى المتشابهات التى لاتفهم معانيها

وبعضهم يخص انكاره بمعجزات نبينا من ذلك القبيل، ويعتبر تجرده منها ميزة له على سائر الانبياء، حتى ان فضيلة الاستاذ المراغى قال فيما كتبه تقريظاً على كتاب « حياة محمد » الذى أخلاه مؤلفه عن المعجزات ، والتقريظ منشور فى صدر الكتاب: « وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بما تعيى العقولُ به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ومن مميزاتهم البارزة فى الأيام الأخيرة أنك تراهم يسمون أن يقيموا مقام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبقرية يجعلونها موضع عناياتهم، ويكتبون عنها بدلا من نبوته ، تفضيلا لمناقبه التى يتفق على تعظيمها من يدين برسالته الدينية ومن لايدين له برسالة ، على التى ينفرد بتعظيمها المسلمون

وقد أفصح أحد دعاة العبقرية ـ أعنى به الدكتور زكى مبارك ـ عما أضمره غيره، فقال فى مقالة منشورة فى العدد الخاص من مجلة « الرسالة » بأول العام الهجرى ١٣٥٨ :

« سيأتى يوم ـ قريب أو بعيد ـ يثور فيه الناس على الامور الغيبية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد » ومعناه أن نبوته غير مأمون أن يثار عليها حتى من الذين يدينون بها لكونها من الامور الغيبية . فينجلى من هذا ان تخصيصهم

العبقرية بالبحث والدرس ناشئ من عدم كون نبوته صلى الله عليه وسلم متيقنة عندهم تيقن عبقريته ، والا فما ذا هو دافعهم الى هذا التخصيص الرامى الى إنساء نبوته فى ترويج عبقريته ان لم تكن العبقرية أفضل وأسمى من النبوة وأسلم من الشبهة ؟. أليس غريباً أن يقوم كاتب من المسلمين فيكتب حياة سيدنا محمد كما يكتبها كاتب أجنبى عن الاسلام منصف مقدر لعظمة محمد نافذ النظر فى اعماق عظمته ، ولكنه على كل حال غير تام التقدير حيث لايجعل نبوته التى هى معدن تلك العظمة الجامعة للعظمات ، فى رأس مايعنى به من حياته ، أو غير تام الحظ حيث لاتدركه الهداية الالهية للايمان به على انه نبى من أنبياء الله

فان قيل ـ اعتراضاً علىّ ـ انّ كاتبنا الساعى لاثبات عبقرية نبينا لا ينفى نبوته، أقول: وهذا عبقرية الكاتب (١) . لكن واجب القارئ اليقظ أن يبحث عن سبب هذا الانحراف فى اختيار الموضوع، ويقول فى نفسه ما ذا هو منشأ التهالك من كتّابنا العبقريين على هذا النوع من مواضيع الكتابة عنه صلى الله عليه وسلم فى زمان ضعف فيه الايمان بالامور الغيبية ، حتى لم يُستبعد وقوع الثورة عليها من الناس ؟ أليس فيه تأييد لذلك الضعف ، واشتغال بملافاة ما كاد ينسى وينكر من نواحى عظمته بما لايقبل النسيان والانكار منها ؟ مع أن فى هذه الملافاة أيضا تأكيداً لإنساء ماأصبح على وشك النسيان

---

(١) فهو يمثل دور المعنى بعبقريته فقط من دون تصريح بنفى نبوته ، وقد كان آخر من زملائه نفى معجزاته غير القرآن، فكأنه أبقى القرآن دليلا لنبوته ، على أنه سيأتى كلام منا على هذا الإبقاء، وهناك زميل ثالث يتوقع الثورة على الأمور الغيبية التى تندرج فيها النبوة والمعجزة مطلقاً . أى يثور عليها حالا فى هذا الأسلوب. فبالنظر الى مجموع هذه الأقوال والأدوار التى يكمل بعضها بعضاً تنهار النبوة وتبقى العبقرية، ويتحقق قول المستشرق مؤلف « الأبطال » : « محمد البطل فى صورة النبى ! » ذلك القول الذى لا يستبعد كونه ملهماً لكتاب العبقرية من تلاميذ المستشرقين فى الشرق ، ما يكتبون .

وهذه النقاط الدقيقة اللائحة ببالى إن كان أناس من القراء ينكرون خطورها بأذهان كتّاب العبقرية كان ذلك انكاراً منهم لعبقرية الكاتبين أنفسهم، واساءةَ الظن بهم أكثر مما يرون منها فى ظنى ؛ فان كان مسلمو زماننا لا خوف على دينهم من تشكيك المشككين بالنسبة الى كل زمان مضى فى الاسلام ، وكان الكاتبون العصريون النوابغ أجدر الناس بالاعتماد على صحة عقائدهم وسلامة نواياهم حتى بعد افشاء الاستاذ فريد وجدى عن سرائرهم ومراميهم فى كتاباتهم ، فأرضى أن أكون أنا الملوم بسوء الظن، وأختار لنفسى هذا الموقف على مايختار هؤلاء الكتاب للمسلمين من موقف الحق !

ثم ان الكتابة والتأليف لا بد أن يتضمن دعوة القراء الى الاقتناع بشىء ، فان كان فى دعوة الناس الى الايمان بعبقرية سيدنا محمد كسب القراء من غير المسلمين فهذا الكسب الحاصل من الاعتناء بعبقريته المؤدى الى صرف الأذهان عن نبوته لايعوّض خسر المسلمين لاسيما من غير العرب ، فما هى الفائدة التى تعود اليهم من عبقرية محمد الذى لم يبق رواج نبوته ؟ بل وما فائدة غير المسلمين من عبقريته غير أن يروا كتّاب المسلمين حولوا أقلامهم الى وجهتها مستشعرين بعدم رغبة الناس اليوم فى حديث نبوته، بل حديث نبوة أى نبى كان، لكونها من الامور الغيبية التى قلما يؤمن بها الجيل الحاضر من الناس ؟. فالمسألة اذن جعل محمد صلى الله عليه وسلم نبياً عصريا ان زالت زعامته للمسلمين كافة فلا يزال زعيما للعرب . ولغير العرب أن يحتفظوا باتباع خطته مع هذا التحول فى موقفه ، باعتبار أنها خطة معقولة . وكذا الحال فى مواقف سائر الانبياء صلوات الله عليهم : فللمنتمين الى دينهم أن يعتبروهم عباقرة زمانهم فى صور الانبياء ، وليس أدل على عبقريتهم من اقناعهم الناس برهة من الزمان بنبواتهم . ولا يقال بصدد تبرئة الكتّاب الذين أتعقبهم وأتهمهم بانكار النبوة وتحويلها الى العبقرية لاسيما فى سيدنا محمد ﷺ ، انهم لا ينكرون النبوة

وانما يجمعون اليها العبقرية التى لاشك فى أنها صفة عالية لايجىء منها أى ضرر وأى نقص لنبوة النبى ، بل يكون اتصاف النبى بالعبقرية زيادة فى شرفه ومنقبته ـ لانى أقول أولا ، واستعيذ بالله أن أكون من المفترين عليهم بما هم بريئون منه : علامة انكار النبوة فيهم القاطعةُ فى دلالتها انكارهم المعجزات ، وهما ـ أى المعجزة والنبوة سيان فى كونهما من الامور الغيبية الخارقة لسنن الكون التى ينتهى اليها انكار ماينكرونه فى هذه المسائل . نعم ربما تعترف تلك الطائفة بالنبوة لا بمعنى النبوة التى تعد من الامور الغيبية ،والتى يعتقدها المسلمون والمليون جميعا ، ولا عبرة بهذا الاعتراف طبعا ؛ وربما يعترفون بالمعجزات أيضا لكن لابمعنى المعجزات الخارقة لسنن الكون حقيقة ، وانما هى أمور لايصح عدها من المعجزات اعتبروها معجزات ، كما فعل الأستاذ فريد وجدى عند ما كتب الامور الخارقة للنواميس فى وقعة بدر ، وذلك فى سلسلة مقالات منشورة فى مجلة الأزهر بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة »

فهو لم يلتفت الى ما بين الخوارق الحقيقية الواقعة فى بدر وبين العنوان القائل « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » من التناقض حيث لايتفق الاعتراف بالامور الخارقة للنواميس الطبيعية مع العلم والفلسفة المعروفتين بين الكتاب المصريين. لكن الأستاذ يروغ بين انكار الخوارق وبين الاعتراف بها فى رئاسة مجلة الأزهر، وهو ثابت القدم فى انكار الخوارق الحقيقية التى لابد أن تكون المعجزة الحقيقية منها، كما لابد من كون علامة النبوة الحقيقية هى المعجزة الحقيقية الخارقة المعدودة من الامور الغيبية

وليس أدل على كون انكار المعجزات الخارقة التى تلازم النبوة ، ملازما لانكار النبوة ، من أن الدكتور شبلى شميل ناشر فكرة الالحاد فى البلاد العربية بحماسة

وصراحة ، يسمى الايمان بالأديان ايماناً بالمعجزة [1] . وثانيا انهم لايكتبون عن عبقرية سيدنا محمد كضميمة الى منصب نبوته ، بل مستقلة عنه ومغنية ، لاسيما عن المعجزة التى تلازم النبوة، وربما يقارنون بين النبوة والعبقرية مدعين للعبقرية الاعجاز اللازم للنبوة . وهذا أوضح دليل على كونهم مجتهدين فى اهمال النبوة وترويج العبقرية بدلا منها ، انظر الى قول الأستاذ فريد وجدى فيما كتبه فى الجزء السابع من المجلد الحادى عشر من « مجلة الأزهر » بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » :

« تمتاز العصور النبوية ( يعنى عصور الأنبياء ) بالخوارق للنواميس الطبيعية فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الاذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها وكانت أعظم شأنا وأجل أثراً من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ماتناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما اليها مما لايمكن اثباته بدليل محسوس، ومما يتأتى توجيهه الى غير مافهم منه. ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد ﷺ فى أقل من ربع قرن ، وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة والآماد الطويلة

« وقد لاحظ قراؤنا اننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة على أن لا نسرف فى كل ناحية الى ناحية الاعجاز مادام يمكن تعليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشىء من التكلف ، مسايرة لمذهب المبالغين فى التثبت والمحافظة على الدستور العلمى ثقة منا بان بحثا لاتحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل

---

(١) راجع المقدمة التى كتبها الرجل لتعريب كتاب بوخنر فى شرح مذهب داروين. والتعريب طبع مع المقدمة فى مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية سنة ١٨٨٤

وتحليلها لا يمكن أن يؤدى الى ما قصد منه من الخدمة العامة »

ولنا تعليقات على هذا الكلام فى مقدمة الكتاب ( الكبير ) خشينا الاطالة فى نقلها هنا مهما كانت هامة، وحسبنا فهم القارئ من قول الأستاذ أنه يستخرج من غير المعجزات معجزات ويرد المعجزات الحقيقية المبنية على أسباب غيبية غير طبيعية والتى هى معجزات النبوة الحقيقية التى هى أيضا من الأمور الغيبية غير الطبيعية، الى أساطير الأديان، كاحمل الآيات الواردة فى القرآن عن معجزات الأنبياء الى المتشابهات غير المفهومة، لما جرى بينى وبينه النقاش قبل بضع سنوات، كل ذلك لانكار المعجزات الخارقة للنواميس الذى يلزمه انكار النبوة أيضا لسببين : أولهما كون المعجزة علامة النبوة فمن ينكرها فلا بد أن ينكر النبوة ،وثانيهما أن منشأ انكار المعجزة كونها من الامور الغيبية مع أن النبوة نفسها التى هى اتصال خاص بالله من الامور الغيبية أيضا

بقى ان واجب الانصاف الذى لا يؤدى إلا بايتاء كل ذى حق حقه ، يقضى بأن لا يكون درسى لمسألة العبقرية خلوا عن تقدير كتاب « عبقرية محمد » للاستاذ العقاد . فقد أصدرت حكمى ضده قبل مطالعته بمجرد سماع اسمه ورؤية بعض إعلان عنه فى الصحف والمجلات، ثم لما قرأته أعجبت به، لاسيما ببعض مباحثه، وان لم أرجع عن حكمى الصادر نظراً الى كون مؤلفه أيضا من دعاة العبقرية ومروجيها بدل النبوة ومعجزاتها . ومع هذا فهو لم يتوقع الثورة على النبوة كما توقعها الدكتور زكى مبارك ؛ ولم يصادم البداهة فى سبيل انكار معجزات الأنبياء ملغيا جميع الآيات الواردة بشأنها فى كتاب الله ورادا لها الى المتشابهات التى لا يحصل القارئ منها على معنى مفهوم ، كما صادم الاستاذ فريد وجدى ، ولم يعتدِ فى سبيل انكار معجزات نبينا الكونية على كتب الحديث ساعيا لتشكيك الأذهان فى صحة كل مارواه أئمة المسلمين عنه ﷺ من الأقوال والأفعال الى أن ألغى ركن السنة من بين حجج الاسلام كما فعل هيكل باشا كل ذلك فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد » ،

ولم يحرف الكلم عن مواضعه فى تأويل آيات القرآن الناطقة بالخوارق كرفع عيسى عليه السلام الى السماء، ولم يهن مقام القرآن بادعاء مجاراته لعقيدة العرب الجاهليين فى تصوير الشيطان ، كما حرف وأهان الشيخ شلتوت فراراً عن الايمان بالغيب !!

وفضلا عن عدم تورط الاستاذ العقاد فى أمثال هذه السخافات التى تورط فيها غيره من دعاة العبقرية ومنكرى المعجزات ، فانه أحسن فى الدفاع عن سيدنا محمد رداً على اتهام من يتهمه من الغربيين بالاستسلام للذات حسه، وأحسن فى الدفاع عن الاسلام فى مسألة تعدد الزوجات ، مع انه لم يسبق وعدمنه فى الدفاع عن الاسلام عند تعريف كتابه . وقد أصاب فضيلة الاستاذ المراغى فى أمره باشتراء جملة من كتاب العقاد لتوزيعها فى مدارس الأزهر ، أكثر من اصابته فى تقريظ كتاب هيكل باشا .

الحاصل انى وجدت الاستاذ العقاد أمثل دعاة العبقرية فى اتزان الكلم. أما كون قلمه أقوى فانى أعرفه قبل كتابه هذا . ثم إنى بعد كل هذا الاعتراف بحق الاستاذ أراه مخطئا كزملائه فى انكار المعجزات الذى يشهد به قوله فى ص ٢٨ وعلامات الضعف بادية فيه رغم حسنه وطلاوته :

«قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه ، والجزيرة مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه ، والدنيا مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه ، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة ؟ وما ذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير ؟ وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق ؟ علامات الرسالة الصادقة، وهى عقيدة تحتاج اليها الأمة، وهى أسباب تتمهد لظهورها ، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أدائها ؟

« فاذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها ؟، واذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ »

وقوله فى ص ٤٨ : « انما نجحت دعوة الاسلام لانها دعوة طلبتها الدنيا ،

ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ، فلا حاجة بنا الى خارقة ينكرها العقل » الخ

والاستاذ يعرف كما أعرف أنا أن انكار المعجزات الخارقة المبنية على أسباب غيبية يكون من منكريها لانكار النبوة الحقيقية التى هى من الامور الغيبية أيضا ، وان لم يعرف أن تلك المعجزات غير مستحيلة عند العقل ، وسيعرفه أيضا بعد مطالعة كتابى . وانى لاأطيل الكلام مع الاستاذ كما أطلته مع غيره ، وانما أقول له : ان القرآن الفاصل بين كل حق وباطل يفصل بيننا فى هذه المسألة أيضا . وطريق فصله هكذا :

نحن نرى الاستاذ العقاد القائل بكون نبوة سيدنا محمد وليدة تهيؤ الزمان والمكان الممتد من جزيرة العرب الى كل الدنيا ، وليدة التهيؤ العام المتولد من الحاجة العامة اليها ، وكانت حاجة طبيعية صادفت شخص محمد المستعد للاضطلاع بالامانة بصفاته العالية الظاهر من كونه عبقريا فى الدعوة ، عبقريا فى العسكرية ، عبقريا فى السياسة ، عبقريا فى الادارة ، عبقريا فى البلاغة ، عبقريا فى الصداقة ، عبقريا فى الرئاسة ، عبقريا فى الزوجية ، عبقريا فى الأبوة ، عبقريا فى السيادة ، عبقريا فى العبادة ، عبقريا فى الرجولة ، عبقريا فى كل مايلزم لنجاحه فى الدعوة ، من غير أن يخالط ذلك التهيؤ والحاجة العامة العالميتين شىء من الخوارق واتصال بعالم الغيب ــ نراه ينسى القرآن أو يتناساه عمداً بين أسباب نجاح الدعوة الاسلامية مع كونه أعظم الأسباب الذى لايعدله بل لايدانيه سبب آخر ، ومع كون الأستاذ يستدل بما يستدل به من الأسباب والعلامات على نبوة سيدنا محمد ، بعد تحقق نجاح الدعوة بانتشار الاسلام ومضى عهد الداعى مقرونا بالنصر والتوفيق . وهذه الحالة انما تكون علامة على نبوة سيدنا محمد بعد مضى عهد الدعوة متأخرة عن أوانها بكثير ، فاذا كان العامل الأول فى الدلالة على صدق صاحب الدعوة عند أول القابلين بها السابقين فى قبولها ، والذين هم رضى الله عنهم أسس صرح النجاح ؟ ، لا شك فى أنه القرآن !

ثم إنا نرى الاستاذ الذى نسى هذه العلامة الأولى والكبرى للنبوّة لم ينس أن يستمد فى كتابه على حسب مناسبات الأبحاث بآيات من القرآن ، وكان ذلك من أسباب نجاح كتابه فى التأثير على القلوب ، فهل يمكن أن لايكون للقرآن الذى أثَّر حتى فى نجاح كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد تأثير فى نجاح دعوة محمد ﷺ ؟ لايمكن الأستاذ أن ينكر ذلك، ولا أن ينكر تفوق القرآن على جميع أسباب النجاح التى عددها من التهيؤ العام والحاجة العامة فى العالَم ،ومن اجتماع أنواع العبقرية فى شخص الداعى

فما موقف القرآن اذن من محمد العبقرى الذى كانت دعوته ـ على رأى الأستاذ ـ فى غنى عن المخالطة بشىء من الخوارق الغيبية ليتسنى لها النجاح ؟، وكان متوقعا من الأستاذ أن يعين موقف القرآن من محمد العبقرى فى مبحث « البليغ » من كتابه ليكون مؤديا لحق البحث ، فلم يفعل . فان كان قراء كتابه المعجبون به كما أعجبت أنا لم يسألوه عن موقف القرآن من محمد البليغ العبقرى فى بلاغته، فانى سائله عن ذلك، وسائله : هل هو كلام الله أم كلام محمد نفسه ؟

فان كان كلام الله المنزل بنصه على محمد بواسطة الملك فهو يتناقض مع المفروض آنفا فى نبوة محمد من العبقرية المستغنية عن الخوارق الغيبية ، لكونه أكبر خارقة وأكبر اتصال منه بعالم الغيب

وان لم يكن القرآن كلام الله، بل كلام محمد نفسه عزاه الى الله كما أشار اليه الدكتور زكى مبارك من دعاة العبقرية فى قوله : « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان وبفضل الكتاب الذى بلغه عاش البيان » وسيجىء نقله مع أقواله الأخرى .. ان كان القرآن عند الأستاذ العقاد صاحب كتاب « عبقرية محمد » الساعى لتجريده عن الخوارق، كما هو عند الدكتور زكى مبارك، كان محمد كاذبا فى نسبة القرآن الى الله على الرغم من قول القرآن : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الىّ ولم

يوح اليه شيء » وكان هذا الكذب أكبر مناف للنبوة والعبقرية معا

فان تساهل العبقريون وذهبوا فيما بينهم الى عدم التنافى بين العبقرية والكذب غير مصارحين به غير أمثالهم فماذا يقولون فى تحدى القرآن الانس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثله ؟ مع أنه لا يتصور صدور التحدى عن عاقل من البشر على أن يأتوا بكلام مثل كلامه ، فهل يمكن عند دعاة العبقرية أن يكون محمد العبقرى مجنونا إن أمكن عندهم أن يكون كاذبا ؟ ، وهل يجوز عندهم ائتلاف العبقرية بالجنون أيضا كما جاز ائتلافها بالكذب ؟

ونحن نحاشى محمداً ﷺ من كل ذلك

أقول للكتاب المصريين بعد هذا السؤال الواضح : ان كنتم تؤمنون برسالة محمد من الله بمعناها المعروف عند المؤمنين بالأنبياء فاصدقوا فى إيمانكم ، ولا تكذّب قلوبكم أقوالكم بل ولا تكذّب أقوالكم بعضها بعضا ، فليس لكم أن تقيسوا عبقرية محمد على عبقريتكم التى تسهّل الكذب فى أعينكم ، فأين هذا الذى تحدثون به أنفسكم من أن يكذب محمد الأمين على ربه الذى يقول ( ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين )

وقد يُنطق الله كتّابنا المصريين بالحق فيقول مؤلف « حياة محمد » — ونعم مايقول — عند الكلام على الأقوال المختلفة فى سبب نزول قوله تعالى ( وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئاً قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا ) ص ١٨٠ :

« ومهما تكن الحقيقة الثابتة التى لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع التى نزلت الآيات فيها ، فانها تصور ناحية من نواحى العظمة النفسية لمحمد كما تصور

صدق اخلاصه تصوراً قويا . وهذه الناحية تصورها كذلك هذه الآيات التى نقلنا من سورة « عبس » ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك انه كان يصارح الناس بأنه بشر مثلهم يوحى ربه اليه لهدايتهم، وأنه -وهو بشر مثلهم- معرض للخطأ لولا عصمة الله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولى عنه ، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت عليه آية الاسراء فى شأنه ، وكاد يفتن عن الذى أوحى اليه ليفترى غيره . فاذا نزل عليه الوحى ينبهه إلى ماصنع فى أمر الأعمى ، وفى أمر هذه الفتنة التى كادت قريش تدفعه اليها ، صدق فى تبليغ الوحى الى الناس صدقه فى تبليغ رسالات ربه، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء، ولا وقف اعتبار انسانى، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق فى أمر نفسه . فالحق اذاً -والحق وحده- كان رسالته . واذا كان احتمال أذى الغير فى سبيل مانؤمن به بعض ماتطيق النفوس الكبيرة ، فان اقرار العظيم بأنه كاد يفتن ليس مما ألف الناس صدوره حتى من العظماء . انما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمور ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حسابا يسيرا . فهو شيء اذاً أكبر من العظمة، وأعظم من كل عظيم ذلك الذى يتيح للنفس هذا السمو على العظمة ، ويفوق كل عظيم هو النبوة التى تملى على الرسول صدق الاخلاص فى إبلاغ رسالة الحق جل شأنه »

والشاهد فيما نقلناه عن كتاب هيكل باشا وحبذناه هو الفقرة الأخيرة الناطقة بعظمة النبوة التى تسمو على العظمة . ونحن نضيف اليه قولنا : نعم ان النبوة هى الشيء الذى يسمو على العظمة وتقصر عن مداه العبقرية

وانظر عظمة النبوة المتجلية فى قوله تعالى : ( لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) وقوله : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أوسلّما فى السماء

فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين )

فهما أبلغ من الآيتين المذكورتين من قبل نقلا عن كتاب هيكل باشا فى الدلالة على عظمة محمد النبي ﷺ فى صدقه واخلاصه لكونهما يصارحان بتضوره فى عجزه عن الاتيان بآية تخضع الناس لتصديق مدعاه عن نبوته التى لامدعى لنفسه غيرها يمتاز به على الذين أرسل اليهم

وللكلام عن موقفه ﷺ من الآيتين الأخيرتين اللتين ذكرناهما وأشباههما بقية نوردها فى محلها ان شاء الله

* * *

نعود الى ما كنا فيه : ومن مميزات الطائفة العصرية انهم لا يعولون على كتب الحديث وما فيها من الروايات المتعلقة بمعجزات نبينا . ولذا جاء كتاب «حياة محمد» خلواً عن المعجزات الكونية وأقرّه عليه فضيلة الأستاذ المراغى والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة «المنار» . وللوصول الى هذه الغاية يطعن من يطعن منهم فى مكان كتب الحديث مطلقا من الثقة، ويُعنى من يعنى بعبقرية سيدنا محمد بدل نبوته، لكنهم متفقون فى هذه المرحلة من الدس على الاعتراف بأهمية القرآن وسمو مكانه، قائلين: انه المعجزة الوحيدة

وقولى لهؤلاء القائلين — وهم دعاة العبقرية —: ان القرآن ان كان معجزة، وكان أفضل وأعظم ماوصل الينا من محمد ﷺ فهو معجزة نبوته لامعجزة عبقريته، لان العبقرية لا معجزة لها ، وان الذين لجأوا اليها أرادوا أن يتخلصوا من المعجزات التى تدور مع النبوات

وأصل المسألة أن النبوة كالمعجزة فى كونها مخالفة للعلم الحديث الذى سبق قول الأستاذ فريد أن دالت اليه الدولة فى الأرض ، وفى كون الذين ينكرون المعجزات من الكتّاب ينكرون النبوات أيضا ، وان كانوا اليوم أجرأ على المصارحة بانكار

المعجزات بالنسبة الى انكار المعجزات . بل العلم الحديث الذى يؤمنون به والذى قذف بالأديان جملة الى عالَم الأساطير، يمنعهم من أن يؤمنوا بالله الذى لم يثبت وجوده الى الآن ثبوتا علميا مبنيا على التجربة الحسية ، ولذا قال الأستاذ فرح انطون منشئ مجلة « الجامعة » فيما مضى عند مناقشة الشيخ محمد عبده (١)

« ان الدين هو الايمان بخالق غير منظور، وآخرة غير منظورة ، ومعجزة ووحى ونبوءة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب وعذاب فى الجنة والنار ، وكلها غير محسوسة ولا معقولة . ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة ينادون بابعاد العقل من الدين ». وكان هذا القول أيضا من الأسباب التى دفعتنى الى تأليف الكتاب المسمى : « موقف العقل والعلم والعالَم من رب العالمين ورسله » والذى هذا الكتاب الصغير جزء منه منشور قبله

أما الشيخ محمد عبده فلم يصل الىّ رده على مناظره بما يقنع قراء ذلك الوقت ومن بعدهم ، ولو كان أتى بجواب مقنع يشهد له بالغلبة على خصمه لما اجترأ الأستاذ فريد وجدى على أن يقول فيما كتبه رداً علىّ عند مناقشة مسألة المعجزات ، وذلك بعد المناقشة الجارية بين الشيخ المفتى والأستاذ المنشى بأكثر من عشرين سنة : « ان الشرق الاسلامى لما رأى دينه ماثلا فى عالم الأساطير التى قذفت فيه الأديان جملة بيد العلم الحديث الغربى لم ينبس بكلمة لانه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله؛ ولكنه استبطن الالحاد وتمسك به متيقنا انه مصير اخوانه كافة متى وصلوا الى درجته العلمية » (٢)

(١) والمناقشة منشورة فى باب « الردود » من كتاب « فلسفة ابن رشد » للاستاذ منشئ المجلة المذكورة

(٢) فى قول الأستاذ فريد وجدى هذا أعظم دليل على ان الشيخ محمد عبده لم يكسب القضية لحساب الاسلام، حتى ان الأستاذ لايعد دفاعه عنه أمام طعن خصمه فى الأديان عامة بلسان العلم الحديث المبنى على التجربة الحسية ، كلمة منبوسة . ومن هذا كنت جعلت كتابى هذا ( الكبير ) المار الذكر

وأما محاولات الأستاذ فريد نفسه اليوم أن يتكلم الفينة بعد الفينة ضد العلم الذى قذف بالأديان جملة —وفيها دين الشرق الاسلامى— الى عالم الأساطير، والذى جعل له الأستاذ الدولة فى الأرض، وذلك بعد أن تولى الوظيفة الأزهرية، ومضى عليه زمان ظن أن الناس نسوا ما كتبه أولا من ان الأمر —أى أمر دفاع الشرق الاسلامى عن دينه— أكبر من أن يحاوله، وكان الأستاذ قد أقفل بهذا الكلام الطريق على نفسه وعلى غيره، فليس من الأمر فى كبير ولا صغير كما يظهر من مطالعة كتابنا (الكبير).
ونحن ان تغاضينا هنا عن صعود الخطر من دولة العلم —الذى ركع الأستاذ لسلطانه أولا ثم لم يستطع أن يرفع رأسه— الى مسألة وجود الله، اكتفاء بما كتبنا عنها فى الباب الأول (من الكتاب الكبير) ولم نعترف فيما كتبناه من أول الأمر بأى سلطان من أى دولة. فنحن ان تغاضينا عن صعود الخطر الى مسألة وجود الله كفتنا الفتنة الناجمة فى مسألتى انكار المعجزة وإقامة العبقرية مقام النبوة، شرا حيث تسبب هذه الفتنة انهيار عقيدة كون القرآن كلام الله وأحاديث سيدنا محمد أحاديث رسول الله، ويلائمه كل الملاءمة إن المصريين من علماء الدين مثل الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيأة كبار العلماء فضلا عن الدكاترة والأساتذة من الكتّاب مثل الدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب « حياة محمد »، نراهم يستسهلون على أنفسهم المخالفة لمرويات كتب الحديث فيما لا يوافق أهواءهم طعنا فى ثبوت تلك الرويات عن رسول الله بحجة أن أهل النقد من علماء الحديث وجدوا فيها أحاديث موضوعة، فيرتقى المصريون من غير علماء الحديث بهذه المرتبة من النقد الخاص لبعض الأحاديث، الى الطعن فى جملتها باحتمال الكذب فى الاسناد حتى أصبحت السنة من بين الأدلة الشرعية ملغاة

---

استئنافا لتلك المناقشة الجارية فيما مضى بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون، فان لم يكن الأستاذ فرح أنطون موجوداً اليوم، فالأستاذ فريد وجدى وغيره من ورثة عقليته أحياء يرزقون

عندهم ساقطة عن حيز الاعتداد والاعتماد. ولم يبالوا باحتمال الصدق القائم الغالب فى غير ماتكلم فيه علماء الحديث الاخصائيون بالتعليل، بل فيما صرحوا فيه بالتصحيح أيضا

وأصل منشأ الجرأة على التوسع فى تكذيب الرواة الى حد أن لا يبالى بما يتضمن هذا التوسع من تكذيب الأحاديث الصحيحة أيضا الثابتة عند علماء الحديث عن رسول الله ﷺ فيصعد الأمر من تكذيب الرواة الى تكذيب الرسول، كون النبوة عندهم عبقرية لارسالة حقيقية من الله، فيكون سهلا عندهم على الرواة القدماء أن يسندوا اليه مالم يقله، ويكون سهلا على العصريين أن لا يصدقوه فيما قاله أيضا

هذا حال الحديث وطريق رفضه، ثم يجيء دور القرآن، ويكون طريقهم الى رفضه استعمال الجرأة أيضا ان لم يكن فى تكذيب رواته ففى تأويل معناه، لاعبين بعقول القراء الغافلين، وغير مبالين بما يتعدون فى تأويلاتهم عن حدود مراد القرآن — فلو نظروا اليه نظرهم الى كلام الله لالتزموا بعض التحوط وخشوا بعض الخشية أن يكونوا مخطئين فى التأويل، لكن مبدأ التحول العصرى من النبوة الى العبقرية يحل جميع هذه المشكلات و يفتح امام المؤول أوسع باب. مثلا: ان الآيات الدالة على رفع عيسى عليه السلام كنا ولا نزال نفهم منها رفعه حياً كما فهمه جميع السلف من المفسرين، حتى جاء الشيخ شلتوت فادعى أن المراد رفع روحه، فهل هو الذى أصاب فى تفسيره حين كان الجميع متفقين على الخطأ ؟ كلا، بل انه هو المخطىء كما يأتى بيانه فى محله، لكن عقيدة انكار المعجزة ومبدأ التحول العصرى من النبوة الى العبقرية يصغران أمثال هذه الخطايا فى عيون مقترفيها

وأجرأ نماذج التأويل فى القرآن بعد ماسبق للاستاذ فريد وجدى من رد آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت التى تملأ كتاب الله الى المتشابهات غير المفهومة، ماادعاه الشيخ شلتوت منكرا لوجود الشيطان كما صوره القرآن شخصا يرى ويسمع، ويقول ويجادل، ويتكبر فيؤمر بالسجدة لآدم ويعصى الله، ويعد ويمنى، وينسل ويعيش

الى يوم الوقت المعلوم. ثم يعذب فى نار جهنم مع الذين اتبعوه ، من أن القرآن جارى عقيدة العرب الجاهليين فى تصوير الشيطان. وهذا قلب دلالة القرآن ومرتبته مع مرتبة العرب فى المتبوعية والتابعية رأسا على عقب . والواقع ان الشيخ نفسه حريص على مجاراة الكتّاب المصريين فى انكار الأمور الغيبية مثل المعجزات وغيرها بدلا من مجاراة القرآن عقيدة العرب

ويقرب منه فى البعد عن مراد القرآن تأويل انفلاق البحر لموسى ومن معه حتى اجتازوه وغرق فرعون وجنوده ، بالجزر والمد البحريين، وقد عزى هذا التأويل الى الشيخ محمد عبده الذى يفهم ان بدعة انكار المعجزات فى صورة تأويلها مأثورة للكتّاب المصريين من زمانه، بل رد النبوة الى العبقرية — وقدراجت (موضته) أخيرا بين الكتّاب — هو الذى عبّد طريقه بعصر حيث عرّف النبي والرسول فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية ، بغير ماهو معروف عند علماء الاسلام فى تعريفهما وسيأتى الكلام منا على كل من المسألتين ان شاء الله

ومثله تفسير الشيخ رشيد رضا صاحب « مجلة المنار » قوله تعالى «انشق القمر» بقوله : « ظهر الحق » وتفسير الشيخ شلتوت لآيات رفع المسيح عليه السلام برفع روحه، وقوله فى نزوله المعدود من أشراط الساعة والمشار اليه فى آيتين من القرآن : « انه لا محل له بعد سقوط رفعه حيا »

والشيخان لا يعتدان بعد الآيات بالأحاديث الواردة فيما أنكراه مهما كثرت ، حتى ان أحاديث نزول عيسى تبلغ سبعين حديثا على ما نقله صديقنا العلامة الشيخ زاهد فى رده على الشيخ شلتوت من كتاب « التصريح بما تواترت فى نزول المسيح» للمحدث الكشميرى لكن المنكر لا يلتفت اليها بحجة انها أخبار آحاد

سبعون حديثا مرويا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بألسنة رواة مختلفين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، لا بد أن تكون لها قيمتها التى لا يكفى لإسقاطها

التعلل بأنها أخبار آحاد، فلو أنى بمثلها سنداً لصحة خبر من الأخبار الواردة فى كتب التاريخ لكفى فى إفادة اليقين وزاد على الكفاية ، فان كفى هناك لكونها رواية تاريخية، ولم يكف هنا لكونه رواية المسلمين عن نبيهم، فما أسوأ هذه السمعة سمعة المؤلفين المسلمين عند المؤلفين المسلمين ؟! وبئست التهمة شبهة الكذب !

نعم إن المؤلفين المسلمين مهما عظم شأنهم فلا ثقة بأمانة السلف منهم عند الخلف العصريين ، حتى أن الأحاديث المروية عن رسول الله لم يصح منها على تقدير مؤلف « حياة محمد » إلا واحد فى كل مائة وخمسين حديثا كما سيجىء ذلك أيضا . فعلى هذا لا يوزن للأحاديث السبعين الواردة فى نزول عيسى إلا أقل من نصف قيمة حديث واحد صحيح .

ثم إن رواة تلك الأحاديث لا مصلحة لهم فى اختلاقها لأن رفع عيسى عليه السلام ونزوله مما لا يعنى الرواة المسلمين الذين اتهمهم مؤلف « حياة محمد » فى الأحاديث الدالة على معجزات نبيهم الكونية، بالمحاباة الدينية . فلو كانوا اختلقوا هذه الأحاديث السبعين لزم أن يكون ذلك منهم تأييداً لآيات القرآن التى فهموا منها رفع عيسى ونزوله مع عدم المصلحة فى هذا الفهم أيضا . أما احتمال كون علماء الاسلام الماضين غالطين جميعا فى فهم آيات القرآن بشأن عيسى، وكاذبين فى رواية الأحاديث تأييدا لهذا الغلط فهو غاية فى سوء الظن بهم من ناحيتى الدراية والرواية ناشئة من ضعف صاحب الظن فى هذه النواحى ، وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه . وسيجىء منا مزيد شرح لكون الغلط فى فهم الشيخ شلتوت لآيات الرفع والنزول .

الحاصل أن العصريين من علماء الدين والدنيا المتعمدين لانكار الأمور الغيبية مثل المعجزات وغيرها ذهبوا فى تفسير آيات القرآن وتقويم أحاديث نبينا مذهبا يكاد يكون ملعبا، فلا ينفعهم فى تصحيح باطلهم قول الله ولا قول رسول الله ، على أن الله ورسوله أيضا من الأمور الغيبية . فاذا لم تقم آيات البعث بعد الموت فى كتاب الله حجة

على وقوعه عند الأستاذ فريد وجدى، وآيات الشيطان على وجوده عندالشيخ شلتوت كشخص حى عاقل، ولا السبعون حديثا على نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان فأى قول الله والرسول ينفع فى إثبات أى مطلب أو قطع أى نزاع؟[1].

وأصل المسألة أن للمتعلمين العصريين من الكتّاب عقيدة راسخة أرسخها فى أذهانهم العلم الحديث المادى الذى يؤمنون به فوق إيمانهم بكتاب الله وسنة رسوله، وهى إنكار الأمور الغيبية مثل المعجزات والنبوة بمعناها المعروف عند المليّين[2] فلولم يكن فيهم هذه العقيدة ونظروا إلى قول الله ورسوله نظر المحايد غير المقيد بعقيدة مانعة عن قبول ما يخالفها لأمكننا وقفهم فى حدود قول الله ورسوله[3].

فواجب علماء الدين اليوم غير المتفقين مع الكتّاب المذكورين مكافحة عقيدتهم المانعة عن الايمان بالأمور الغيبية مكافحة علمية تبين ما فى العلم الذى بنوا عقيدتهم عليه من الجهل . وفى زماننا طائفة من علماء الدين لم ير الدين خيرا منهم تهيبوا مكافحة تلك العقيدة المانعة عن تصديق الأمور الغيبية مثل المعجزة والنبوة وغيرهما، ولم يتهيبوا مكافحة نصوص الكتاب والسنة بتكذيب الثانية وتأويل الأولى بما يحرف الكلم عن مواضعه . فأردت أن أقوم بهذا الواجب مستعينا بتوفيق الله تعالى ، فوضعت الباب الأول ( من الكتاب الكبير ) لاثبات وجود الله الذى هو فى رأس الأمور الغيبية ، ووضعت هذا الباب الثالث لاثبات النبوة والمعجزة والنشأة الآخرة .

---

(١) ومن طريف التلق أن المعتدين على الآيات والأحاديث رفضا أو تأويلا مرهقا ، لايتحملون حملات النقد من المدافعين عن حقوق كتاب الله وسنة رسوله ويعدونها اعتداء عليهم ، إذا وجدوا فيها شيئا من الشدة التى ليست إلا وطأة الحق . وظنى أن كف أصحاب «الثقافة» عن نشر مقالتى فى الرد على مقالة الشيخ شلتوت المنتشرة فى «الرسالة» كان سببه هذا التلق .

(٢) وهم متفقون فى هذه العقلية العليلة مع الأستاذ فرح انطون الذى ناظره الشيخ محمد عبده ولم يتغلب عليه .

(٣) لكنهم لما اقتنعوا بعدم وجود الأمور الغيبية واستحالة المعجزات فما رأوه منها فى كتب الحديث طعنوا فى صحته، وما رأوه فى القرآن أولوه .

## موقف العقل والعلم

## من الله ورسله والآيات التي أظهرها على أيديهم وموقفهما من البعث بعدالموت

إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا — ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد .

هذه الموضوعات أعنى النبوة والمعجزة وكذا النشأة الأخرى تذكر فى كتب أصول الدين بعنوان : « السمعيات » بناء على أنها مستندة إلى السماع من الأنبياء المبعوثين من الله المؤيدين بالمعجزات، ومعجزاتهم منقولة بأخبار متواترة أو مشهورة . فمسألة وجود الأنبياء ومعجزاتهم، ووقوع البعث بعدالموت تنبنى على الأدلة السمعية لا على الأدلة العقلية التي يدركها الانسان ولو لم يسمعها من الأنبياء كوجود الله. وليس وجود ماثبت بالسمع كوجود ماثبت بالعقل بمعنى أنه لا يترتب على عدم وجود السمعيات مثل الأنبياء محال عقلى كما يترتب على عدم وجود الله ، إلا أن يكون ذلك محالا بالواسطة أو بالأوفق لاصطلاح المتكلمين محالا بالغير، كلزوم الكذب فى اخبارات الله تعالى، وبهذه الطريقة فقط يكون ماثبت بالنقل ضروريا يعنى أن وجود الله يُثبَت أولا بدليل عقلى ضرورى، ثم يُثبَت إمكان السمعيات مثل النبوة والمعجزة والآخرة بدليل عقلى أيضا مبنى على وجود الله ، ثم يُثبَت وقوعها باخبارات الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، عن الله الذى لا يتصور منه الكذب كما قال خضر بك من علماء الدولة العثمانية فى زمن السلطان محمد الفاتح ، وهو أستاذ الخيالى صاحب التعليقات الدقيقة القيمة على شرح العلامة التفتازانى للعقائد النسفية — فى منظومته النونية المعدودة من المتون الكلامية :

وواقع كل ما نص الصدوق به    من ممكن كصراط أو كميزان

ولهذا الفرق بين الموضوعين سيرانى القارئ لاأقيم علىوجود الأنبياء ومعجزاتهم والنشأة الآخرة دليلا عقليا يساوى فى القوة دليل وجود الله ، ولا أطيل الكلام فى هذا الباب كما أطلت فى الباب الأول إلا النقاش مع منكرى المعجزات الكونية مطلقا أو لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وحسبك فارقا بين المسألتين أن النبى ليس بواجب الوجود . ولهذا أيضا ليس لمنكرى هذه المسائل أن يطالبونا باقامة الدليل العقلى عليها سوى إمكانها ، على أن لنا أن نقيم فيما سيأتى دليلا عقليا يكاد يفيد اليقين العقلى بلزوم وجود الأنبياء زيادة على دلالة معجزاتهم عليهم، وكذا النشأة الآخرة فى وجوبها نقلا وفى إمكانها عقلا

ومع أن النبوة لا يقوم عليها دليل يفيد الوجوب والضرورة المنطقية فهى واقعة تستند الى التجربة التى يعتبرها العصريون الدليل العلمى ، غير أن النبوة لا يجربها إلا النبى نفسه، وغير النبى يجربها بمعجزته، وتقوم تجربة معجزته مقام تجربة نبوته ، ومن هنا يعلم أن المعجزة لا تنفك عن النبوة، ويعلم أيضا تفوق الدليل العقلى على الدليل التجربى حيث يثبت بالأول وجودالله الواجب الوجود، وبالثانى وجودالنبى غير الواجب الوجود. وهكذا يكون إثبات كل مالايجب وجوده، بالأدلة التجربية التى تفيد مادون الوجوب أعنى الوجود العادى الوقوعى ، ويعلم أيضا أن تعبير العصريين عن الفلسفة المادية ( بالفلسفة الواقعية ) تفضيلا لها على الفلسفة الميتافيزيقية غير كافل للفضل المطلوب، لأن هناك مرتبة أعلى من مرتبة الوقوع وهوالوجوب أى ضرورةالوقوع

أماإثبات إمكان النبوة والمعجزة والنشأة الثانية فمن أسهل الأمور بعدثبوت وجود الله القادر على كل شئ . ومن هنا قال «شيلمر ماخر» و«ريتجهل» : « إن الايمان بالمعجزات لا ينفك عن الايمان بالله » ومعناه أن من يؤمن بالله فلا بد أن يؤمن بالمعجزات أيضا . وقال « استوارت ميل » عند انتقاده لانكار «هيوم» المعجزات: « ان من لا يؤمن بموجود فوق الطبيعة ولا بتدخله فى شؤون العالم لا يقبل فعل إنسان

خارق للعادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقا بما يخرجه عن كونه معجزة ، لكن إذا أومن بالله فلا يكون تأثيره فى العالم وسلطته عليه فرضية محضة بل احتمالا جديا . والحكم بعدم تدخل الله فى شؤون العالم إنما يمكن بمعرفة السنة الالهية فى الماضى، أو بمعرفة ما يلزم منطقيا أن تكون السنة الالهية كذلك » .

نعم معنى عموم قدرته تعالى على كل شيء انه قادر على كل شيء ممكن إمكانا عقليا . لكن نطاق هذا الامكان أوسع بكثير مما يظنه منكرو المعجزات، فيدخل فى الممكن كل ماليس بمحال عقلى ولا مستلزم للمحال كجمع النقيضين ورفعهما والدور والتسلسل. ومن العجب أن منكرى المعجزات فقط، أو منكرى المعجزات والنبوة مما ينكرونها على ظن أنها غير ممكنة، وهم من غفلتهم يقيسون الامكان والاستحالة بمقياس قدرة الانسان، وينسون قدرة الله التى ليس ببعيد عنها أن تهدم السماوات والأرض وتنشئها من جديد. ونحن لا نتكلم فى هذا الكتاب إلا مع المعترفين بوجود الله ، فارضين أننا قد فرغنا عن إثباته نهائيا فى الباب الأول من الكتاب الكبير الذى لم ينشر بعد والذى أوشك من طوله أن يكون كل الكتاب، وقطعنا دابر المنكرين .

ولا شك أن الله الذى فطر السماوات والأرض لا يصعب عليه أن يرسل الى بنى آدم الذين هو خالقهم أيضا رسولا منهم فيوحى اليه ما يشاء ، وأن يظهر على يديه خارقة من خوارق العادات كخلق ثعبان من العصا، وهو خالق العصا والثعبان وجميع العالم من عدم، من غير أن يعد خلقه أو خلقهما معجزة ولا يصادف منكرا. وما أبدع ما قال « ويليام استانلى چوون » من كبار المنطقيين الانكليز : « القدرة التى خلقت العالم لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء اليه ، ومن السهل أن يقال عنه إنه غير متصور عند العقل ، لكن الذى يقال عنه إنه غير متصور ليس غير متصور الى درجة وجود العالم » يعنى لو لم يكن هذا العالم موجودا وقيل لمن ينكر المعجزات ولا يتصور وجودها : سيوجد عالم كذا ، كان جوابه إن هذا غير متصور وكان نفى تصوره أشد من نفى تصور المعجزات .

بل إذا نظرنا فى خلق العقل الذى هو أكبر معجزة وأول رسول من الله الى عباده، ثم اذا نظرنا فى أن يبعث رسولا اليهم ويجعل على يديه علامة لرسالته ليعلموا بالرسول الأول العام خالقهم، ويتعلموا من الرسول الخاص تفاصيل ما يأمرهم به الخالق وما ينهاهم عنه، كما يبعث الملك عامله الى رعيته بمرسوم من عنده ، إذا نظرنا، فان إرسال الرسل الى الناس وجعلهم ممتازين ببعض المعجزات التى هى أوسمة رسالتهم، أسهل من خلق معجزة العقل فى الانسان وجعل نوعه ممتازا بها[1] لأن الأول من هذين الأمرين فى متناول القدرة البشرية أيضا ، فيستطيع الملك أن يرسل رسولا الى شعبه ويخصه بمرسوم منه لا يوجد فى يد غيره ، ولا يستطيع أن يمنح رسوله العقل ، وكوننا نرى الأمر بالعكس فنظن ما هو أكثر وقوعا أسهلَ لكثرته، وما هو أقل وقوعا أصعبَ لقلته ، لا يغير الحقيقة المعقولة عند قطع النظر عن القلة والكثرة .

(١) ولهذا قال « شاتوبريان » : « الانسان حيوان ميتافيزيقى » لامتيازه بالعقل ، فالانسان نفسه يكفينا مثالا للمعجزة

ولا يجوز أن يقال انتهاز الفرصة من قولنا بأن العقل أكبر معجزة : ان رسول العقل يغنى عن إرسال الرسل كما قال المعرى :

أيها الغر إن خصصت بعقل فاسأله فكل عقل نبى

لأنا أجبنا فى ضمن أقوالنا عن هـذا الاعتراض، فخصصنا العقل الذى هو أكبر معجزة لأكبر واجب وهو إثبات وجود الله، ولا نهمله بعد هذا أيضا فنحتكم إليه فى جميع الأمور المهمة ، وقد جعلناه فى هذا الكتاب (الكبير) صاحب الحكم الوحيد فى تمييز الممكن من المستحيل حتى بنينا عليه أيضا امكان بعث الأنبياء وامكان إظهار الخوارق على أيديهم من الله القادر على جميع الممكنات . ومع كل هذا فقد أشرنا قريبا الى أن الناس لا يستغنون بعقولهم عن عباد الله الذين اصطفاهم لدعوة الخلق الى صراطه المستقيم ، كما أن كون الرعية من ذوى العقول لا يغنيهم من أن يرسل إليهم الملك عاملا من عنده ينزلون إلى قوله ويعتبرونه قول الملك

ثم إن معجزة العقل على عظم قدره بل عظم إعجازه لاتعد معجزة لكونه نعمة عامة فى سنة الله لجميع بنى آدم، فهو عادة من هذه الناحية لاخارق العادة، مع كون المعجزة فى عرف العلماء من الخوارق، ونحن إنما ذكرنا العقل ولفتنا الى أنه أهم من المعجزات الخارقة وإن لم يكن معدودا منها ، تقريبا للخوارق الى الأذهان .

وقولنا هذا أسهل وهذا أصعب مبنى على تقدير عقولنا فى المقارنة بين الأمور من حيث السهولة والصعوبة ، والا فجميع الممكنات سهلة متساوية الاقدام فى السهولة بالنسبة الى قدرة الله، والممكنات لاتحد ولا تنتهى إلا فى المحال الذى يقدّره العقل المحض ويفصل بينه وبين الممكن بميزانه، وليس لغير هذا الميزان حق البت فى حدود الامكان والاستحالة. فلا يقال هذا ممكن وهذا محال بالنظر الى تجربة الوقوعات. وهذا على الرغم من أن الغافلين الذين ينكرون النبوات والمعجزات يعتمدون فى انكارهم على تجربة الوقوعات الحاضرة لكونهم لايقدرون الله وعظمة قدرته كما قال تعالى ( وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شيء ) وقال : ( قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ) ولكونهم فى عصر رواج التجربة وكساد العقل المحض فيرون السماوات والأرض مخلوقة فيعترفون بامكانها غير مستبعدين، ولا يرون فى عصرهم نبيا ولا معجزته التى ليست بأعظم من السماوات والأرض ، فيقولون انها غير ممكنة ، ويقولون انها غير مؤتلفة مع نظام العالم

وبعض الجهال يقولون اكباراً لمكتشفات العلماء الغربيين فى العصر الأخير

«معجزات العلم قد أوفت على معجزات الدين فى ماضى القرون»

فيستصغرون معجزات الأنبياء عليهم السلام التى أنكرها منكروها استعظاما لحصولها باذن الله مباشرة من غير توسّل اليها بالوسائل العلمية غير الخارجة عن الوسائل الطبيعية ، وفى هذا ميزة المعجزة التى يصغر بجانب أصغرها أعظم المكتشفات العلمية ، ومن هذا يقول المنكرون باستحالتها ويرون فيها خرق نظام العالم ، حتى ان بعض الجهال من هذه الطائفة المنكرة يحتاج الى تأويلها وتنزيلها الى مادون الخوارق ، مع ان المعجزة لا بد أن تكون خارقة لنظام العالم والا لاتكون معجزة بمعناها الحقيق

فنقول للمنكرين وهم يدّعون انهم يؤمنون بالله : أليس واضع ذلك النظام هو الله؟ فكيف تقيدون الله بالنظام الذى هو واضعه بقدرته وارادته واختياره ؟ فهل يكون

القادر المختار عاجزا عن تغيير ماوضع ؟ أما انه لم يغيره فيما رأيناه وهو سنته التى لن تجد عنها تحويلا فذلك بالنسبة الينا ، ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون ، فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل مامن شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم ومصلحتنا فى استمرار نظامه انا نعتمد عليه مطلقا فى أمورنا وحاجاتنا وتحصل لنا منه قواعد مضبوطة ، ولكن نظام النار هذا مثلا الذى نحن مقيدون به ـ لا خالق النار وواضع نظامها ـ ليس بمانع أن يجعلها الله بردا وسلاما على نبيه وخليله ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، تأييدا لرسالته من عنده

فنظام العالم العامّ الذى كان فى الباب الأول من هذا الكتاب ( الكبير ) دليلا على وجود الله تعالى الذى هو واضع النظام ، يكون تغييره الذى نعبر عنه بالمعجزة ـ والذى هو أيضا نظام من الله ، لكنه نظام خاص استثنائى ـ دليلا على وجود أنبيائه . ومن هذا يمكننا أن نعد تأييد الأنبياء بالمعجزات من سنن الله أيضا

والنظام الأول العام هو الذى يسمونه القوانين الطبيعية والذى يزعم منكرو المعجزات أنه لا يمكن تغييرها ، لكن الحق أنها قوانين موضوعة غير ناشئة من طبيعة الأشياء حتى لا يمكن تغييرها . ومعنى كونها قوانين أنها قضايا كلية مطردة الصدق اطراداً عاديا غير بالغ مبلغ الضرورة والوجوب، فلا يكون خلافه محالا عقليا ، لان تلك القضايا مبنية على التجربة، والتجربة مهما اطردت نتائجها وتبجح العلم الحديث وهواته بالاستناد اليها فلا تكفى فى استناد القضية الضرورية اليها، لانها انما تدل على العادة لا على الضرورة المنطقية . وقد وفّينا حق الكلام فى مبلغ التجربة من قوة الدلالة، وفى مقارنتها مع الدليل العقلى فى أمكنة عدة من الباب الأول ( من الكتاب الكبير ) . فان كانت الضرورة شرطا فى القانون ولم يكف اطراد الصدق عاديا فليس هناك شئ يصح أن يقال « قوانين طبيعية » ولذا أنكر الفيلسوف « هيوم » العلم واجتهدَ « كانت » فى أن يجعل قوانين العلم أى العلم الحديث المبنى على التجربة ،

ضرورية فلم ينجح. وقد سبق حل هذه المسائل أيضا (فى الكتاب الكبير). قال «أميل سسه»: «ان العلم مع كونه ترقى كثيرا فى مطالعة الطبيعة لم يثبت فى وقت من الأوقات أن القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية» يعنى انها ليست مستحيلة التغير

وقال «له يبنج»: «ليست القوانين الطبيعية عندية محضة كما ادعى «بايل» ولا ضرورية بالضرورة الهندسية» وكان يقول «مايدار بالماكينة حسن لكنه غير ضرورى» وقال الرياضى الشهير «هانرى بوانكاريه» فى كتابه «الفرضية والعلم»: «القانون التجربى عرضة دائما للتصحيح فهو لا يزال يتوقع تبديله بقانون أقوى منه» وقال أيضا «لو كانت الهندسة علما تجربيا كانت علما تخمينيا ووقتيا»

ومما يجدر بالذكر هنا أن مبنى علم الهندسة على أن كل ماليس بمتناقض فهو ممكن. وقال «هوكسلى» من مشاهير علماء الانكليز: «أنا لا أعلم محالا غير التناقض، ولهذا يوجد محال منطقى ولا يوجد محال طبيعى» وفى معنى هذا كنت قلت فيما سبق (من الكتاب الكبير): يوجد محال عقلى ولا يوجد محال تجربى

فلا شبهة فى امكان المعجزات، والذين ادعوا انها محالات عقلية، كالأستاذ فريد وجدى عند مناظرته معى فى مقالات كتبناها متقابلات ونشرتها جريدة الأهرام قبل بضع سنين، لم يميزوا ماهو غير واقع بالنظر الى تجربتنا [1] عما هو محال، فى حين ان بينهما فرقا عظيما، لأن المحال أخص مما ليس بواقع، فهو يزيد على غير الواقع بعدم امكان الوقوع، وفى حين ان التجربة الدالة على مجرد الوقوع أو اللاوقوع لا تصعد الى مرتبة الحكم بضرورة الواقع ولا باستحالة غير الواقع، اذ الحكم بالضرورة

---

(١) على ان التجارب الماضية من مختلف الأمم فى أزمنة الأنبياء تشهد بوقوع المعجزات. فوجود الانبياء المعروفين صلوات الله وسلامه عليهم وشهود الناس بمعجزاتهم ثابتان، على أن لا يكون ثبوتهما دون ثبوت أى رجل من رجال التاريخ ووقائعه المشاهير

أو الاستحالة أو الامكان من اختصاص العقل ، وليس من شأن التجربة . فالامكان أوسع نطاقا من الوقوع بكثير، والوقوع ضيّق، وضرورة الوقوع أضيق ، كما ان الاستحالة التى هى بمعنى عدم الامكان أضيق من عدم الوقوع، فههنا خمس مراتب : الامكان،والوقوع،وضرورة الوقوع،وعدم الوقوع،واستحالةالوقوع،فتحكم التجربة فى الوقوع واللا وقوع فقط، حتى ان حكمها فى اللا وقوع لايكون كليا بتمام معنى الكلمة [1] أما الثلاثة الباقية فالحاكم فيها العقل . وقد يكون الممكن أمرا عظيما تقصر التجربة عن الوصول اليه، فيظنه قصير العقل مستحيلا أو يكون الواقع كثير الأمثال جداً فيظنه ضروريا ، مثلا يرى النار تحرق دائما مامن شأنه الاحتراق ، فيحكم بان احراقها ضرورى لايمكن انفكاكه عنها ، مع ان الضرورة أو الاستحالة تندر جدا ولا تختلف مع عظمة الشيء أو تفاهته ، مثلا ان جعل العصا حية، أوإبراء الأكمه والأبرص، أو شق القمر من الممكنات بالنسبة الى قدرة الله، بل يمكنها ايجاد الكون العظيم فى آن واحد، واعدامه بعد وجوده فى الآن الثانى ، ولا يمكنها ايجاد بعوضة واعدامها معاً فى آن واحد، أو جعلها تحرك أجنحتها ولا تحركها فى آن واحد،لأن فيه جمعا بين النقيضين، وهو محال لاتتعلق به حتى قدرة الله

فاذن يكون منشأ إنكار المعجزات واستبعاد وقوعها ان لم تكن عقيدة المنكر المستبعد فى نظام العالم انه من طبيعة الأشياء لايقبل الانفكاك عنها وليس بجعل اختيارى من الله، حماقة محضة ، اذ لابد اذا كان الله جاعل نظام العالم وكان مختارا فى جعله، أن يقدر على تغييره متى شاء ذلك . فالله تعالى فى عقيدة المؤمنين اذا شاء يسلب

---

(١) ومن هنا لايرى « استوارت ميل » الوجوب والضرورة فى أى مسألة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة فى جميع أزمنة الماضى ، فليس بشئ ازاء عدد الحالات غير المتناهية التى يحتفظ بها المستقبل احتياطا . والقول بأنه لاسبب داعيا على أن لاتكون حالات المستقبل طبق الماضى مؤيدة للتجارب السابقة ، خروج عن مبدأ التجربة واقامة مبدأ آخر مكانها

الأشياء ماجرت سنته فيها، ويكون هذا السلب خرقا منه للعادة لاخرقا للعقل حتى يكون محالا ، فكما تكون إماتة الأحياء من القتلة باذن الله يكون إحياء الموتى من أنبياء الله أيضا باذنه، ولا فرق بين الحالين الا بكثرة وقوع الأول وقلة وقوع الثانى مع تساويهما فى الامكان . وكذا الكلام فى احراق النار ماتحرقه انه كما يكون باذن الله يكون كف النار عن الاحراق بأمر الله، ولا فرق بين الحالين بالنسبة الى قدرة الله(١)

بل التحقيق أنه اذا وقع الاحراق فليس ذلك من النار، اذ الفاعل الحقيقى فى كل شىء هو الله وليس فى الكون مؤثر غيره، فمن عزا فعل الاحراق الى النار والاطفاء الى الماء وقال ان كلا منهما فاعل له فعل خاص به ثم ادعى بملء فيه أنه ثابت بتجربة ومعاينة كل أحد فى كل زمان ومكان ، فقدوهم لأن الثابت بالتجارب والمشاهدات انما هو حصول الاحراق والاحتراق عند مماسة النار ومقارنتها ، لا أن فاعل فعل الاحراق ومؤثر هذا الأثر أعنى الاحراق هو النار . ولا يلزم من أطراد الأثر ودورانه مع النار أن تكون هى علته الفاعلية لأن العلة أمر لا يرى ولا تتعلق به المعاينة والمشاهدة حتى يصح تعيين العلة على أنها النار، وحتى يدعى أن ذلك مجرب مشهود ! ومن هنا يتبين أن كثيرا من الأمور التى يظنها الظانون أنها ثابتة بالتجربة والمعاينة ، ليس كما يظنون ، فيجب على صاحب النظر الدقيق فى المجربات أن يحدد مداول التجربة تحديدا دقيقا ولا يتعدى حدودها

وما أحسن ماقال الفيلسوف « مالبرانش » كما فى «المطالب والمذاهب» فى مبحث « الدين فى الأزمنة الأخيرة » : « انما نرى نحن توالى الحادثات ولا نرى الرابطة

---

(١) ولذا قال استوارت ميل : « ان الله الذى أوجد سلسلة الأسباب والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة ، فلا تكون المعجزة خارقة للعادة بهذا الاعتبار ولا يختل قانون السببية، فسبب المعجزة ارادة الله » ومراده من عدم كون المعجزة خارقة انها غير مخلة بقانون السببية وهو الناحية المهمة للمسألة لوجود سببها الذى هو ارادة الله، والا فالمعجزة تخرق العادة بتعطيل عمل سلسلة الأسباب

التى تربط أحد الطرفين بالآخر، فلماذا تبقى هذه الرابطة مستخفية عنا ؟ : لكونها شيئا إلٰهيا لا يوجد مثله فى المخلوقات »

وهذا عين ما قاله علماؤنا الأصوليون : « لا تثبت العلّية بالدوران » . ففى حادثة الاحراق والاحتراق نرى الاحتراق والجسم المحترق ونرى معهما النار ، ولا نرى كون المحرق هو النار أى لا نعيّن النار على أنها هى فاعل الاحراق وعلته كما نعين القابل أى المحترق على أنه الجسم الفلانى ، وان كنا نرى الاحراق والاحتراق فيما رأيناه دائما يقترنان بالنار ويدوران معها . وذلك لأن العلية لا ترى ولا تثبت بالدوران ؛ وليست رؤية المقارنة رؤية العلية . فهذه الدقيقة قد فهمها « مالبرانش »[1] وفهم قبله علماء الاسلام المجتهدون ونعم ما فهموا ، وزاد مالبرانش فى الفهم عند تطبيقها على المسائل المادية فقال: إن سبب كون العلية غير مرئية أنها شىء إلٰهى لا يوجد مثله فى المخلوقات، ونحن انما نرى المخلوقات فى الحادثات

ولا تقل أيها القارئ إن التردد فى كون علة الاحتراق الفاعلية هى النار بعد مشاهدة النار مع كل حادثات الاحتراق، مكابرة ظاهرة لأنى أقول : على أى دليل قطعى الدلالة تبنى حكمك هذا ؟ فان بنيته على التجربة المشاهدة فالتجربة لا تشاهد العلية لأن العلية أمر معنوى لا يرى ، وانما مدلول التجارب ومشهودها كون النار مجتمعة مع حادثة الاحتراق والجسم المحترق ودائرة حيثما دارا ، وان بنيته على الدليل المنطقى فالمنطق

(١) حتى أن الفيلسوف « هيوم » الذى هو أشهر مشاهير المنكرين للمعجزات فهمها أيضا بدليل قوله : « إذا أمعنا فى النظر فنحن لا نرى القوانين والأسباب، وإنما نرى الحادثات والنتائج فنقول بالعلية والضرورة من غير أن نراهما، فاذا ضربنا إحدى كرتى « بيلاردو » تأخذ الكرة الثانية تتحرك أيضا، فالذى نرى بحواسنا هو هذا القدر ليس فيه غير الحادثات، وليس فيه غير تقدم حادثة وتأخر أخرى، فالحادثات ترينا أنفسها دون عللها وأسبابها » انتهى مع قليل من التوضيح وقال « كوويبەر » ترائى نقل الحركة من جسم إلى آخر موضحا لنا ، منشأه اعتيادنا الحاصل من مصادفته فى كل مكان. وقال « كانت » « مسألة أنه كيف تكون المقابلة والمناسبة بين الجواهر مشكلة ولا شبهة فى أن حلها خارج عن نطاق علم البشر »

لايعترف بدلالة دوران شيء مع شيء ودوام اقترانه به، على كون صلة أحدهما بالآخر صلة العلة بمعلولها، لاحتمال أن تكون صلة الاقتران واطراد الاقتران المشهودة بينهما غير صلة العلية والمعلولية ، فمادام احتمال أن يكون الله الذى هو خالق كل شيء والذى نحن نتكلم فى مسألة نبوة الأنبياء ومعجزاتهم مع المعترفين بوجوده وكونه خالق كل شيء ، هو خالق فعل الاحراق، وأن تكون إرادته هى العلة للاحتراق وهو معلولها وأثرها الصادر منها دون أن يكون صادرا من النار وانما توجد النار مع الاحتراق كالشرط العادى غير محتاج اليه فاعله وقد اشترط ليكون نظاما ووسيلة يتوسل بها عباد الله فى قضاء حاجاتهم أى ليكون شرطا بالنسبة اليهم لابالنسبة الى الفاعل يحتاجون الى مراعاته ولا يحتاج هو اليها ، بمعنى أن خلقه الاحتراق مع النار وبدون النار سواء عنده وبالنسبة الى قدرته وإرادته، فلو شاء أن يخلق الاحتراق مع الماء والانطفاء مع النار لفعل .. ما دام هذا الاحتمال موجودا ومرجحا على احتمال كون فاعل الاحراق هو النار ، توحيداً لفاعل الكائنات [1] واختياراً لصيانة انتظامها من التشتت الحاصل من تعدد الفاعل تعدداً يكاد يكون على قدر عدد الكائنات ، وما نرى فيها من الأسباب المؤثرة فى المسببات أو بالأصح اشباه الأسباب فمجرد ظواهر ساترات للسبب الحقيقى الوحيد الذى هو إرادة الله . ولايجوز القول بالأسباب فى دين التوحيد إلا على تقدير أن تكون سببيتها مجعولة مستعارة لا أصلية غير قابلة للتبديل والتغيير ، ولا يقول لشيء من الأشياء فى الكائنات بخاصة ناشئة من ذاته غير قابلة للانفكاك عنه إلا الطبيعى المنكر للاله بالمرة أو المعترف بالاله غير المختار . ولذا قال « مالبرانش » الفيلسوف المار الذكر كما فى مبحث المعرفة من « المطالب والمذاهب » :

« ليست العلة الحقيقية إلا واحدة لأن الاله الحق واحد والقوة التى فى الطبيعة وفى كل شيء عبارة عن إرادة الله ، فالاعتراف مثلا بأن الشمس تعطى الحركة والحياة

(١) ألا نرى أن علماء أصول الدين من أهل السنة قائلون بأن الله تعالى هو خالق أفعال عباده لا العباد أنفسهم ، مع كون الانسان أولى بأفعاله من النار بفعل الاحراق

للأشياء يكون شركا . وباستطاعة الملائكة والمقربين لو اجتمعوا لتحريك ورقة من أوراق شجرة يكون تناقضا »

وقال المتكلمون الأشاعرة قبل « مالبرانش » ونعم ما قالوا : « إن الكائنات بأجمعها مستندة الى الله من غير واسطة »

ويحسن أن نتذكر هنا ما سبق ذكره (في الكتاب الكبير) عند مناسبة النفس مع البدن من القانون الذى وضعه «له يبنج» وسماه «الوفاق السابق التقدير» «آرمونى پره أتابلى» وهو قانون كبير شامل لجميع أجزاء العالم الفردة فى مناسبة بعضها ببعض، فلا تأثير ولا تأثر بينها أصلا عنده لكون كل منها بسيطا لا روازن لها حتى تدخل فيها أشياء وتخرج ، وإنما حصول أثر الواحد « موناد » فى الواحد الآخر بتدخل الله، بمعنى أنه تعالى أراد عند تنظيم الأشياء أن يراعى الواحد فى تنظيم غيره، وأن يراعى غيره فى تنظيمه فيتوازن الجميع

وقال « هيوم » : « اذا نظرنا الى أى شىء أول مرة فلا ندرى ما الذى يستعد ذلك لأن يفيده ؟ وليس فى الكون ذرة نستطيع تخمين ما تحوزه من قوة ، ولا أى شىء نستطيع القول بأنه معلول تلك القوة فتعقب واقعةٌ واقعةً أخرى، لكن حواسنا لا ترى القوة التى تمشى بهذه الماكينة ، لا نراها فى أى صفة محسوسة من صفات الأجسام المادية، فكل ما نعلمه ان النار حارة ، لكن التلازم بين النار والحرارة يظل دائما فوق علمنا »

يريد أن يقول: إن كل صفة أو خاصة من صفات الأشياء وخواصها ليس بينها وبين تلك الأشياء تلازم عقلى يجعلها ضرورية لها ، ويجعل انفكاكها عنها مستحيلا ، فلا نعلم لماذا كان السكر حلوا والملح مرا والسم قاتلا والنار محرقة . فكما لا نعرف أسباب ذلك لا يُعرف قبل التجربة اتصافها بصفاتها الخاصة ، فلا ترون فى مرائيها الخارجية ما يفيد معنى من تلك المعانى ، حتى إن من لم ير السم اذا رآه لا يخطر بباله

أنه يقتل الانسان وربما لا يأبى تناوله، فكل هذه الأحوال يرينا أنه ليس بين الأشياء وخواصها تلازم عقلي غير قابل للانحلال كالتلازم بين الأربعة وزوجيتها والثلاثة وفرديتها، ولذلك تعلمه أنت قبل تجربتهما، كما تعلم أن الثلاثة فى ثلاثة تكون تسعة، ولا تحتاج فى تعلمه الى التجربة ، فهذه مسائل رياضية تفيد القطعية والضرورة لكونها مبنية على الأساس العقلي، وتلك مسائل طبيعية مبنية على التجربة التى لا يبلغ مدلولها مبلغ الضرورة، ولا يستحيل خلافه عند العقل. ولهذا: أى ولكون مسائل العلم الطبيعى مبنية على التجربة التى لا تدل على القطعية الضرورية وإن دلت على القطعية الواقعية، أنكر « هيوم » وجود القوانين الطبيعية وقال: إنها عادات مشهودة على أنها نتائج الحادثات وليس بأمور أزلية ضرورية تتبعها الحادثات . وهذا الكلام من هذا الرجل الملحد لدرجة « بوخنر » الألمانى ولكنه أذكى منه بكثير وأدق فهما ، يؤيد ما نبهنا اليه على طول كتابنا ( الكبير ) من بطلان الدعوى التى تجعل الثقة العلمية مقصورة على التجربة وتفضلها على البراهين العقلية المنطقية والتى هى أساس الإلحاد العصرى.

هذا ، ولا يعاب عليّ أن استظهرت بكلام فيلسوف ملحد مثل «هيوم» لا يدين بالله ولا بالنبي ومعجزته ، فى الرد على الذين يعدون معجزات الأنبياء من المستحيلات، ولا يثقون بالأدلة العقلية ثقتهم بالتجارب الحسية التى تبنى عليها قواعد العلم الحديث، لأنى أنظر فى القول ولا أنظر فى القائل، فأتتبع من أقوال كل قائل ناحيتها الأقوى ، ولا يعنينى أن يكون القائل من أنصار عقيدتى أو من خصومها ، بل يعجبنى أن أجد شاهدا لها فى كلمات الخصوم . أليس أولى بموقفى تجاه منكرى المعجزات بحجة منافاتها لقوانين الطبيعة ، أن يكون أحد من الفلاسفة المعروفين تكلم فى قيمة تلك القوانين، ولم يكن ذلك منه لإثبات إمكان المعجزات كما أنى أتكلم فيها لإثباته . فاعتراض « هيوم » على القوانين الطبيعية حق فى نفسه غير مجاب عنه، والفيلسوف نفسه بعيد عن الاتهام بمحاباة المؤمنين بالأنبياء ومعجزاتهم .

وقال « هيوم » أيضا : « إن الناس عامة لا يرون أى اشكال فى الحادثات الطبيعية مثل سقوط الأجسام الثقيلة الى الأرض ونمو النباتات وتكثر الأنواع بالتوالد والتناسل، وتربى الأبدان بالأغذية ، وهم مقتنعون بفهم القوة التى تلد هذه النتائج فلا يبقى عندهم احتمال الخطأ فى النتائج ، وفى الحقيقة انهم لما يرون العلة بحسب التجربة والعادة يحكمون بظهور معلول يوافق تلك العلة ، فمن الصعب اقناعهم بكون أى علة يعقبها غير معلولها . ولكنهم اذا وقعت زلزلة أرضية أو مصيبة غير معتادة يؤمنون لذلك بقوة غير مرئية، ومع هذا ذات عقل وارادة، ويقولون بكون تلك الحادثات غير القابلة للايضاح أفعال هذه القوة

« بيد ان أصحاب الأفكار العميقة والفلاسفة يعلمون ان القوة التى توجد الحادثات المضادة الواقعة كل يوم غير قابلة للايضاح أيضا مثل القوة الموجدة للحادثات الهامة غير المعتادة ، ولذلك يحملون الحادثات كلها على فعل القوة التى يحملون الواقعات غير المعتادة على فعلها، فليست العلة الحقيقية عند هؤلاء الفلاسفة لكل معلول قوته الفطرية بل ارادة الوجود الأعلى »

وهذا القول أيضا الذى يتضمن تحبيذ أولئك القائلين بتوحيد القوى ورد كلها الى ارادة الموجود الأعلى ، مما يعجبنى صدوره من « هيوم » رغم كونه من ملاحدة الفلاسفة ومن غلاة منكرى المعجزات ، وهو والفيلسوف الفرنسى الملحد أيضا « جوستاف لوبون » ماسرتنى أقوال فلاسفة الذين نقلت عنهم واستشهدت بهم فى هذا الكتاب ( الكبير ) سرور قولها ، اذ وجدت فى قول « لوبون » أبلغ شهادة بوجود الله وأصرحها كما سبق فى آخر الفصل الرابع من الباب الأول ، ووجدت فى قول « هيوم » أقوى رد على منكرى المعجزات بادعاء استحالتها، وهذا على الرغم من كون « هيوم » نفسه منكرا للمعجزات مشتهرا بانكارها لعدم اعترافه بوجود الله الذى لامعنى لانكار المعجزات بعد الاعتراف بوجوده

الحاصل ان المعجزات لا ينكرها الا المنكرون لوجود الله، ومن الغرابة ان جمهورهم يتمسكون هنا بنظام العالم الذى أنكروه حين أنكروا وجود الله فيقولون : انه نظام للعالم ناشئ من طبيعة الأشياء لا يمكن خرقه بالمعجزات. وقد كنتَ علمتَ مما سبق فى الكتاب الكبير ان «بوخنر» امام الملاحدة أو بالأصح لسانهم الحامى عن مذهب الالحاد يجعل نظام العالم عبارة عن المصادفة والفوضى، فكيف يمكنه أن يدعى فى مسألة المعجزة انها تخالف نظام العالم مع انه منكر لنظام العالم قبل انكاره المعجزة بحجة أنها تغيير لنظام العالم ؟ فأى مانع فى المصادفة والفوضى يمنع تغيير شىء فى مجاريهما احتفاظا بنظامهما الذى هو عدم النظام ؟

أما اذا كان الله موجودا عند أناس ، ثم رأيتهم لا يعترفون بسعة قدرة الله التى وسعت خلق السماوات والأرض ، لخلق معجزة بتغيير أقل جزء من أجزائهما ، فذلك منهم حماقة تختلف عن حماقة الالحاد، ان لم تكن أكبر منها كانت أظهر ، وما أحسن قول أبى العلاء :

اذا آمن الانسانُ بالله فليكن لَبيبا ولا يَخلِط بايمانه كفرا

ثم ان انكار المعجزة يتضمن انكار النبوة، فتشتد الحماقة وتتضاعف فيمن يؤمن بالأنبياء وينكر معجزاتهم، لان نبوتهم تبدأ من الايحاء اليهم الذى ان لم تكن معجزة لعدم اقترانه بالتحدى فهو معجزة من حيث انه خارق للعادة، وان منكر المعجزة ينكرها لخرقها العادة

وبناء على شدة الاتصال بين انكار المعجزات وانكار النبوة نرى الذين يكتبون عن الأنبياء عليهم السلام من غير تعرض لمعجزاتهم ، يصورونهم ويترجمون عن حياتهم كأنهم لا يمتازون عن الناس الا بما يمتاز به العظماء والحكماء الأماثل من دون أن يكون لهم صلة خصوصية بالله تعالى غير فطرتهم التى فطرهم على أن يكونوا عظماء وفى مقدمتهم

وقد يكون تصوير الأنبياء كما صور أولئك الكتّاب موافقا لرأى الشيخ محمد عبده حيث قال فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية بعد ذكر الأقوال فى تعريف النبى ص ٣ :

« أقول قد يعرّف النبى بانسان فطر على الحق علما وعملا أى بحيث لا يعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة أى لا يحتاج فيه الى الفكر والنظر، ولكن التعليم الالٰهى، فان فطر أيضا على دعوة بنى نوعه الى ما جبل عليه فهو رسول أيضا والا فهو نبى فقط، وليس برسول فتفكر فيه فانه دقيق »

وأنا أقول ليس فى تعريف الشيخ شىء من خصائص النبوة والرسالة لا وحى ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة ، وعليه فمن أين يُعرف كونه « لا يعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا » من أين يعرفه هو نفسه؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه اذا دعاهم؟. نعم فى تعريف الشيخ : «ولكن التعليم الالٰهى» لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضا على الفطرة، ثم يرد عليه السؤال المذكور : من أين يعرف أنه تعليم إلٰهى [1] ؟. ويؤيد ما قلنا أن الشيخ بنى حتى دعوة بنى نوعه على الفطرة لا على أمر خاص من ربه كما يؤمر به الانبياء ، حيث قال معرفا للرسول بعد تعريف النبى : « فان فطر على دعوة بنى نوعه الى ما جبل عليه » فنص فى موضعين من هذه الجملة على الفطرة والجبلة ، ثم ختم كلامه بقوله : « فتفكر فيه فانه دقيق » وتفكر أنت أيها القارئ فى أن النبى والرسول على تعريف الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا ليس بالنبى والرسول

---

(١) ولهذا ترى علماءنا الذين دونوا العلوم الاسلامية يدخلون البعث والوحى ، ولا سيما الوحى فى تعريف النبى والرسول ، ويقولون هو إنسان بعثه الله الى الخلق لتبليغ ما أوحى اليه ، ثم يقسمون الوحى الى ثلاثة أقسام : الأول ما ثبت بلسان الملك فوقع فى سمعه بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة والقرآن من هذا القبيل . والثانى ما وضح باشارة الملك من غير بيان بالكلام . والثالث ما ألهمه الله تعالى بأن أراه بنور من عنده . والذين يرون الاجتهاد للأنبياء من علماء الأصول جعلوه قسما رابعا وسموه وحيا خفيا ، وما ينقسم الى الثلاثة الأولى التى بها يصير النبى نبيا ، وحيا ظاهرا .

اللذين يعرفهما الاسلام والمسلمون بل الملّيون كلهم ، وانما هو رجل من أمثال الذين يثقون بأنفسهم فى صحة آرائهم ومبادئهم، ويأمل الناس فيهم الصلاح والاصلاح . ولا يكون مراد الشيخ إلحاق هـذه الطائفة الممتازة من الناس بالأنبياء والرسل ، بل مراده تنزيل الأنبياء والمرسلين المعروفين صلوات الله عليهم ، الى منزلتهم تفاديا عن مؤونة الخوارق التى تلازمهم فى معجزاتهم وكيفية الإيحاء اليهم .

تفـكر فيه وفى كون صحافة مصر المنحرفة عن الثقافة الاسـلامية الى الثقافة الغربية لا تزال تشيد باسم الشيخ قائل هذا القول والآمر فى خاتمته بالتفـكر الدقيق، ثم تفـكر فى إنـكار الأستاذ فريد وجدى معجزات الأنبياء جهارا نهارا على صفحات «الأهرام» أثناء مناقشته إياى فى إمكانها بله وقوعها ، تلك المناقشة التى استمرت أياما وعُين الأستاذ قبل انتهائها مديرَ « مجلة الأزهر » المسماة يومئذ « نور الاسـلام » ورئيس تحريرها، ثم تفـكر فى كتاب « حياة محمد » لمعالى الدكتور حسين هيكل باشا وهو مثل فؤاد أم موسى فى معجزات نبينا الممثلة لحياته المعنوية، والتى خصص لهـا الأستاذ الهندى كاتب حياته ﷺ قبيل الـكاتب المصرى مجلدات، فى مجلدين

فان قيل: [1] ليس هناك من ينـكر معجزة القرآن ولا يشهد بها ،وانما يخلون حياة نبينا ﷺ عما يسمونه المعجزات الـكونية لعدم ثبوتها تواترا كما ثبت القرآن، ولامكان التأويل فى بعضها بالحادثات العادية كما أول معالى هيـكل باشا حادثة جواد « سراقة » فى طريقه الى المدينة الذى كبا مرة ورمى راكبه على الأرض وخسف حافره الأرض مرة ثانية ، وكان خرج لتعقيب الرسول أثناء الهجرة ؛ فأولها بالـكبوة العادية [2] وكما أوّل سورة الفيل اتباعا لتأويل الشيخ محمد عبده فى تفسيره ،

---

(١) هذا السؤال يطول ذيله إلى آخر ما سأنقله من مقدمة كتاب « حياة محمد » وجوابه أطول ذيلا وأعنى به تمام ما كتبته بعد انتهاء النقل من ذلك الـكتاب الى آخر كتابى هذا تقريبا، فضلا عما كتبته فى أثناء النقل من التعليقات .

(٢) مع أن سراقة صاحب الجواد لم يؤولها بها، بل تشاءم منهما واضطر الى الاصطلاح مع النـبى

ولصعوبة تمييزها من حادثات السحر والشعوذة وأفعال أهل الصناعات الغريبة، ولذا قال الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » فى عدده الذى صدر بعد كتاب « حياة محمد » راداً على الذين اعترضوا على الكتاب، وقد أثبته معالى مؤلفه فى مقدمة الطبعة الثانية وأنا أنقل منها :

« أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها فى كتاب « الوحى المحمدى » من جميع مناحيها ومطاويها فى الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس بما أثبتُّ به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على نبوة محمد ﷺ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه ( أى علماء عصرنا ) لا حجة، لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بهم الخرافيون من جميع الملل، وبنيت سبب هذا الافتتان والفروق بين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيرهما »

وقال فضيلة الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيما كتبه تعريفا بكتاب هيكل باشا ورداً على المعترضين : «لم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا فى القرآن [1]، وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحنّا بما تعيى العقول به     حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم »

وكأن فضيلته يريد أن يستشهد بقول البوصيرى رحمه الله هذا على عدم ظهور المعجزات الكونية على يد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وانحصار معجزته فى القرآن،

---

صلى الله عليه وسلم. والعجب من منكرى المعجزات أنهم إذا رأوا ما يقبل التأويل قالوا هذا ليس بمعجزة لأنه لايخرق العادة، واذا رأوا ما يخرقها قالوا هذا محال مخالف لسنن الكون.

(١) فقد ظهر اتفاق فضيلة الشيخ المراغى والشيخ رشيد رضا بل الشيخ محمد عبده أيضا مع الدكتور هيكل باشا والأستاذ فريد وجدى فى انكار المعجزات

وسيجىء جوابنا إن شاء الله مفصلا على تقريظ هذين الشيخين: شيخ المنار وشيخ الأزهر

وقال معالى هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه اعتذارا عن عدم ذكر شىء من معجزات نبينا الكونية فى الكتاب المسمى « حياة محمد » وجوابا على مؤاخذيه من الذين سماهم المشتغلين بالعلوم الدينية :

« إننى لم آخذ بما سجله كتب السيرة وكتب الحديث، ولم أنهج فى التعبير عن مختلف الحوادث نهجها . ولقد كان يكفينى رداً على هذا أننى أجرى فى هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة[1] وأكتبه بأسلوب العصر ، وانني أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون، وما كان لى ، وذلك شأنى ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها، وبين هذين وبين النهج والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيم ، إن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحا بالقدر الذى يباح به اليوم ، وإن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية على حين يتقيد كتّاب العصر الحاضر بالنهج العلمى والنقد العلمى[2] لكنى رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشىء فى بيان الأسباب التى دعت المفكرين من أئمة المسلمين، كما تدعو كل باحث مدقق ، الى عدم الأخذ جزافا بكل ماورد فى كتب السيرة

---

(١) الطريقة العلمية التى يتبجح بها معالى المؤلف ويباهى باتباعها فى تحرير كتابه، والتى يدعى أنه بنى عليها انكار المعجزات، هى الطريقة نفسها التى يدعى ملاحدة الغرب انهم بنوا عليها أنكارهم لوجود الله .

(٢) إذا كان قانون الدين لا سيما حديث ( من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ) يجزى الكاذبين بنار جهنم ، وقانون التحرر من القيود الدينية لا يعترف بالجزاء على أى جرم جرى فى الخفاء وبقى على ذلك ، فمن أظلم السخافة وأسخف الظلم أن يوضع أقوال الكتاب المؤمنين بالدين تحت شبهة الكذب لكونهم مؤمنين متقيدين فى أقوالهم ، ويؤتمن بأقوال الكتاب غير المقيدين بالدين لعدم كونهم متقيدين به ، ولله در المعرى حيث يقول :

وما الناس إلا خائفو الله وحده ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إذا وقع التمى فى كف ناقد

وفى كتب الحديث[1] والى التقيد بقواعد النقد العلمى » ص ٤٦ـ٤٧

« وأول هذه الأسباب مابين تلك الكتب من خلاف فى رواية الكثير من الأمور المنسوبة الى النبى العربى ، فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب ان ماروته من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون مسوغ الا اختلاف الأزمان التى وضعت هذه الكتب فيها ، فقديمها أقل رواية للخوارق من متأخرها، وما ورد من الخوارق فى الكتب القديمة أقل بعداً عن مقتضى العقل مما ورد فى كتب المتأخرين ، وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة اليوم تغفل كثيراً مما كتبه أبو الفداء فى تاريخه، ومما ذكره القاضى عياض فى الشفاء، ومما ذكر فى كتب المتأخرين جميعا، وكذلك الشأن فى كتب الحديث واختلافها[2]. فبعضها

---

(١) لم يبق فى كتب الحديث والسيرة محل للأخذ بما فيها أن يأخذ به جزافا بعد ان غربلها ونخلها علماء الاسلام أنفسهم بدقة لا مثيل لها فى الدنيا ، فنقد الرجال، أى نقد رجال الحديث، علم مدون فى الاسلام فعلا ليس كالنقد العلمى قولا مجردا يكرر لجاذبيته فى أفواه الكتاب العصريين ، وليس بعد غربلة الأحاديث النبوية ورواتها بأيدى علماء الاسلام الاخصائيين مجال لمدقق الا مدققا معاديا يركل الغربال والمنخل ويرفض الكل جزافا . ولنا كلام فى هذا الصدد لا تسعه هذه التعليقة الموجزة فنرجئه الى ختام النقل عن كتاب المؤلف

(٢) الزيادة فى كتب متأخرى المؤلفين فى السير على ما كتبه متقدموهم ، كان الأقرب الى العقل والانصاف ان تحمل على اطلاع الأواخر على مالم يطلع عليه الأوائل كما هو الباعث المعروف على تلاحق التأليفات بعضها مع بعض، فلو كتب الحديث عين ما كتبه القديم ولم يزد عليه شيئا لاستغنى عن كتابه . وهناك سبب آخر وهو ان موضوع كتب السيرة كان يختص بغزوات النبى ﷺ يؤيده أن تلك الكتب تسمى أيضا بالمغازى، حتى قال الحافظ ابن حجر: ان السير والمغازى مترادفتان، وفى الفقه كتاب السير والجهاد، كما ان فيه كتاب الصلاة وكتاب البيوع مثلا ، ثم توسع المتأخرون فى الموضوع فزادوا فيه من سيرته ﷺ مطلقا . فلما لم يعرف مؤلف «حياة محمد» هذا التطور فى موضوع

يروى قصة من القصص وبعضهم يغفلها وبعضهم يضعفها [١] ، فلا بد للباحث فى هذه الكتب جميعا بحثا علميا أن يضع مقياسا يعرض عليه مااختلفت فيه وما اتفقت عليه، فما صدقه هذا المقياس أقره الباحث، ومالم يصدقه وضعه موضع التمحيص، اذا كان مما يقبل التمحيص ص ٤٧ — ٤٨

« وسبب آخر يوجب تمحيص ماورد فى كتب السلف ونقده نقداً دقيقا على الطريقة العلمية ان أقدمها كتب بعد وفاة النبى بمائة سنة أو أكثر وبعد انفشت فى

كتب السيرة، أو بالأولى لما لم يعرف خصوصية ماقبل التطور، أساءظنه بزيادات المتأخرين

نعم ان كتب السيرة مطلقا لاتعدل كتب الحديث فى صحة الرواية، ومعالى المؤلف كما أخطأ هنا فى التسوية بينهما فى عدم الاعتماد أخطأ أيضا فى اختيار مافى كتب السيرة على مافى كتب الحديث اذا وقع الخلاف بينهما، مثل غزوة ذى قرد كتب أصحاب المغازى كونها قبل صلح الحديبية وتبعهم المؤلف، لكن مسلما يذكرها بعده وهو الأصح كما حققه ابن حجر فى « فتح البارى » ، ومثل غزوة ذات الرقاع يقدمها أصحاب المغازى على غزوة خيبر وتبعهم المؤلف لكن الأصح كونها بعدها كما فى صحيح البخارى . ومن هنا يظهر ان تأليف كتاب عن حياة محمد ﷺ على وجه الصحة يتوقف على درس كتب الحديث أكثر من كتب السيرة الذى هو أسهل بكثير من الدرس الأول والذى لاتجاوزه استطاعة أمثال معاليه

ثم ان المؤلفين فى المغازى كثيرون وليس ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ أقدمهم فالتأليف يبتدئ من ابان بن عثمان رضى الله عنه المولود سنة ٢٠ ثم عروة بن الزبير المولود بعد ابان بقليل ، ثم شرحبيل بن سعد، ثم الزهرى المولود سنة ٥٠ وهو أستاذ أستاذ البخارى وامام كبير فى الحديث لقى عبد الملك بن مروان وعمر بن عبدالعزيز ويحتمل ان يكون تأليفه فى المغازى باشارة الأخير

(١) والمؤلف يتبع الغفل والضعف إما محافظة على مبدأ سوء الظن بالمؤلفين المؤمنين ، أو فرارا من مؤنة التدقيق الذى يمكن أن يسفر عن بعد نظر مثبت القصة

الدولة الاسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الرويات والأحاديث بعض وسائلها الى الذيوع والغَلَب ، فما بالك بالمتأخر مما كتب فى أشد أزمان التقلقل والاضطراب . وقد كانت المنازعات السياسية سببا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودونوا مااعتقدوه صحيحا منه من جهد وعنت أدى اليهما حرص الجامعين على الدقة والتمحيص حرصا لا يتطرق اليه ريب . ويكفى ان يذكر الانسان ماكابده البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدولة الاسلامية لجمع الحديث وتمحيصه، وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الاحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف، وهذا معناه انه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثاً الا حديث واحد . أما أبو داود فلم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة وكذلك شأن سائر الذين جمعوا الحديث [١] وكثير من هذه الأحاديث التى

(١) مسألة تمحيص الأحاديث النبوية وتمييز مايوثق به منها عن غيره، واختيار أفضل طرق التمييز وأسماها مهما شق ذلك ، لايمكن أن يعالجها و يقوم بواجب تحقيق الحق فيها لوجه الحق الذى قد سبق فى مقدمة الكتاب (الكبير) ان الدكتور هيكل باشا يبحث عنه فى كتب الغربيين أحد أو طائفة أو أمة ، لاسيما فى الأعصار الأخيرة التى ليس فيها وجه ينظر اليه غير وجه المادة ، مثل ماعالجها علماء الاسلام المتقدمون وقاموا بواجب تحقيق الحق فيها « لوجه الحق » الذى لايكون له معنى أصدق من « وجه الله » ولنكتب هنا مرة ثانية قول المعرى :

وما الناس الا خائفو الله وحده　　اذا وقع التمى فى كف ناقد

فلو أخذت أشرح أهمية المسألة وما بذله أولئك العلماء الأعلام فى انتقادالأحاديث وانتقائها لزم ان أكتب كتابا فى ضخامة مجموع كتب الحديث مع شروحها والمعلقات عليها، تلك الكتب التى تغص بها دور الكتب الاسلامية والاستشراقية ، لأن كتب الحديث كلها انتقاد وكلها انتقاء . =

صحت عندهم كان موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم الى نفي الكثير

= حسبك شاهدا في هذا ماقاله هيكل باشا نفسه :إن البخاري وحده انتقى ما كتبه في صحيحه وهو أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث وأبا داود وحده انتقى ما كتبه في سننه وهو خمسة آلاف الا مائتين من خمسمائة ألف حديث . فأي همة جبارة هذه وأعني بها تدقيق ستمائة ألف حديث لكتابة أربعة آلاف حديث أو تدقيق خمسمائة ألف حديث لكتابة خمسة آلاف : فهذا العمل العظيم المحير للعقول في سبيل تمحيص الأحاديث النبوية والذي يحق أن يكون فخرا لعلم الحديث الاسلامي وعلمائه، يستخدمه هيكل باشا في زعزعة مكان الثقة بكتب الحديث في قلوب الناس ، وقد كان الامامان البخاري وأبو داود توخيا بعملهما هذا المثل الأعلى في التمحيص والتوثيق . فليخش الله وليتقه أو ليسدد فهمه من قلب الأمر فاتخذه تهمة وسلاحا ضد كتب الحديث مطلقا، على أن يكون فيها كتابا البخاري وأبي داود أيضا اللذان ليس كل منهما الا روح التمحيص بالنظر الى تعريف المتهم نفسه

ولقد أساء معاليه جدا في تفسير اختيار هذين الامامين مااختاراه في جامعيهما من الأحاديث فقال في اختيار البخاري مثلا : « وهذا معناه انه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثا إلا حديث واحد فقط » فهو يزعم ان البخاري مثلا ينفي صحة جميع مابقي بعد استثناء أربعة آلاف من الستمائة ألف حديث التي كانت لديه ، مع أن البخاري لم يقصد استيعاب مالديه من الأحاديث الصحيحة بله استيعاب الأحاديث الصحيحة مطلقا ، وانما أراد وضع مختصر يحتوي من الأحاديث النبوية طائفة في أعلى درجات الصحة نظرا الى الشروط الضيقة الملتزمة عنده حتى أخذه مسلم عليه في أول صحيحه وعده من الافراط في الاشتراط وذهب الحاكم وتبعه البيهقي والحافظ أبو بكر بن العربي وان لم يسلم لهم بذلك ، الى أن شرط البخاري ومسلم أن لايخرجا إلا حديثا سمعاه من شيخين عدلين، وكل واحد منهما رواه أيضا عن عدلين كذلك الى أن يتصل الحديث على هذا القانون برسول الله ﷺ . وقال الحافظ أبو بكر محمد بن موسى الحازمي في =

منها . فاذا كان ذلك شأن الحديث وقد جهد فيه جامعوه الأولون ماجهدوا ، فما بالك

= كتابه «شروط الائمة الخمسة» : « لم يلتزم البخارى ان يخرج كل ماصح من الحديث، كما انه لم يخرج عن كل من صح حديثه ولم ينسب اليه شيء من جهات الجرح وهم خلق كثير يبلغ عددهم نيفا وثلاثين ألفا، لأن تاريخه (أى البخارى) يشتمل على نحو أربعين ألفا وزيادة، وكتابه فى الضعفاء دون سبعمائة نفس، ومن أخرج عنهم فى جامعه دون ألفين وكذا لم يخرج كل ماصح من الحديث. ويشهد لصحة ذلك ماأخبرنا أبو الفضل ابن أحمد بن محمد أنبأنا ابن طلحة فى كتابه عن أبى سعيد الماليني أنبأنا عبدالله بن عدى حدثنى محمد بن أحمد قال سمعت محمد بن حمدويه يقول سمعت محمد بن اسماعيل (يعنى البخارى) يقول احفظ مائة ألف حديث صحيح واحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح» وأنبأنا أبو مسعود عبد الجليل بن محمد فى كتابه أنبأنا أبو على أحمد بن محمد بن شهريار أنبأنا أبو الفرج محمد بن عبد الله بن أحمد أنبأنا أبو بكر الاسماعيلى قال سمعت من يحكى عن البخارى أنه قال « لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر »

فانظر ماقاله البخارى نفسه من أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح وأن ما تركه من الصحيح أكثر مما كتبه فى كتابه، ثم انظر ماقاله هيكل باشا عن البخارى إنه لم يصح لديه من الأحاديث المتداولة وهى ستمائة ألف إلا أربعة آلاف، يقول هذا فى مقدمة كتابه التى ادعى أنه كتبه على الطريقة العلمية فيسند إلى البخارى ماصرح هو بخلافه، أفهذا طريقته العلمية ؟ وقد كنت لما كنت فى بلادى قرأت فى كتاب أحد من كتاب الترك العصريين أيضا حديث انتقاء أربعة آلاف حديث للبخارى من ستمائة ألف مع استغلال هذا الانتقاء لأثارة الشبهة ضد كتب الحديث ، فهذا الاتفاق بين كاتبين شرقيين يدل على اتحاد مأخذهما وكون ذلك المأخذ كتب أعداء الاسلام المستشرقين فيكون معنى الطريقة العلمية التى ادعى مؤلف «حياة محمد» اتباعها تبريرا لعدم اعتماده على كتب الحديث ، هى الطريقة العدائية لتلك الكتب ومكانتها فى الاسلام كأن أصحاب هذه الطريقة أعلم من الأحاديث بما صح لدى البخارى من البخارى نفسه =

بما ورد فى المتأخر من كتب السيرة، وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمى

= مقصود معاليه من إثارة الشكوك جهد مايستطيعه ومالايستطيعه فى صحة كتب الحديث والسيرة ، تأييد ما ادعاه من عدم وجود معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، باسقاط ما روى فى كتب السيرة ثم ما روى منها فى كتب الحديث ، عن حيز الاعتداد متوسلا إلى هذا الاسقاط باسقاط تلك الكتب نفسها أوعلى الأقل بتنزيل ما فيها من الأحاديث الصحيحة منزلة النادر الذى هو فى حكم المعدوم .

وعلى كل حال كان الواجب على معالى وزير المعارف بمصر لا سيما وهو مؤلف كتاب « حياة محمد » أن يعلم أن أحاديث نبينا الصحيحة الصادرة عنه مدة حياته بعد مبعثه لايمكن أن تنحصر عند البخارى فيما ذكره فى جامعه بله فى بعض ما ذكر فيه كما ادعاه ولا أن يكون مسلمو خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم مقصرين نحو نبيهم الى حد أنهم لم يضبطوا من أحاديثه إلا مقدار بعض ما فى جامع البخارى أو أبى داود .

ثم اذا فرضنا فرض المحال أن أحاديثه المضبوطة تنحصر فى ذاك المقدار كان الواجب على مؤلف « حياة محمد » أن يعلم أنه لايخلو حتى ذلك القدر المضبوط من أحاديثه عما يكفى لاثبات أن له معجزات غير القرآن ، مع أن الأحاديث الصحيحة كثيرة جدا . قال صديقنا العالم الكبير الشيخ زاهد فى تعليقاته القيمة على « شروط الأئمة الخمسة » المارة الذكر : «قال الشيخ أبو بكر بن عقال الصقلى فى فوائده على مارواه ابن بشكوال إنما لم يجمع الصحابة سنن رسول الله ﷺ فى مصحف كما جمعوا القرآن لأن السنن انتشرت وخفى محفوظها من مدخولها ، فوكل أهلها فى نقلها إلى حفظهم ولم يوكلوا من القرآن الى مثل ذلك ، وألفاظ السنن غير محروسة من الزيادة والنقصان كما حرس الله كتابه ببديع النظم الذى أعجز الخلق عن الاتيان بمثله، فكانوا فى الذى جمعوه من القرآن مجتمعين، وفى حروف السنن ونقل نظم الكلام نصا مختلفين،فلم يصح تدوين ما اختلفوا فيه، ولو طمعوا فى ضبط السنن كما اقتدروا على ضبط القرآن لما قصروا =

في تحيصه ٤٨ — ٤٩

= في جمعها، ولكنهم خافوا إن دونوا مالا يتنازعون فيه أن تجعل العمدة في القول على المدون فيكذبوا ما خرج عن الديوان فتبطل سنن كثيرة ، فوسعوا طريق الطلب للأمة فاعتنوا بجمعها على قدر عناية كل واحد في نفسه ، فصارت السنن عندهم مضبوطة فمنها ما أصيب في النقل حقيقة الألفاظ المحفوظة عن رسول الله ﷺ وهي السنن السالمة من العلل، ومنها ما حفظ معناها ونسي لفظها ، ومنها ما اختلفت الروايات في نقل ألفاظها واختلفت أيضا رواتها في الثقة والعدالة، وهي تلك السنن التي تدخلها العلل فاعتبر صحيحها من سقيمها أهل المعرفة بها على أصول صحيحة وأركان وثيقة لا يخاص إليها طعن طاعن ولا يوهنها كيد كائد . انتهى ما قاله أبو بكر بن عقال الصقلي .

ثم قال الشيخ زاهد : « ومما يلفت اليه النظر أن الشيخين (يعني البخاري ومسلما) لم يخرجا في الصحيحين شيئا من حديث الامام أبي حنيفة مع أنهما أدركا صغار أصحاب أصحابه وأخذا عنهم . ولم يخرجا أيضا من حديث الامام الشافعي مع أنهما لقيا بعض أصحابه ولا أخرج البخاري من حديث أحمد إلا حديثين : أحدهما تعليقا، والآخر نازلا بواسطة مع أنه أدركه ولازمه، ولا أخرج مسلم في صحيحه عن البخاري شيئا مع أنه أدركه ولازمه ونسج على منواله ولا عن أحمد إلا قدر ثلاثين حديثا . ولا أخرج أحمد في مسنده عن مالك عن نافع بطريق الشافعي وهو أصح الطرق أو من أصحها، إلا أربعة أحاديث، وما رواه عن الشافعي بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين حديثا مع انه جالس الشافعي وسمع موطأ مالك منه وعده من رواة القديم . والظاهر من دينهم وأمانتهم أن ذلك من جهة أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء في مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائمين بروايتها شرقا وغربا ، وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضيع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لا يستغني من بعدهم عن دواوينهم في أحاديث هؤلاء دون هؤلاء . ومن ظن أن ذلك لتحاميهم عن أحاديثهم أو لبعض ما في كتب الجرح والتعديل من الكلام في هؤلاء الأئمة كقول الثوري في أبي حنيفة وقول ابن معين في الشافعي وقول الكرابيسي في أحمد وقول الذهلي في البخاري ونحوها =

= فقد حملهم شططا ... وأما ماقاله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه من أن أبا حنيفة لتشدده فى شروط الصحة لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا ، فهفوة مكشوفة لايجوز أن يغتر بها، لأن رواياته على تشدده فى الصحة لم تكن سبعة عشر حديثا فحسب بل أحاديثه فى سبعة عشر سفرا يسمى كل منها بمسند أبى حنيفة خرجها جماعة من الحفاظ وأهل العلم بالحديث بأسانيدهم اليه ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغهم من أحاديثه ، وقلما يوجد بين تلك الأسفار سفر أصغر من سنن الشافعى رواية الطحاوى، ولا من مسند الشافعى رواية أبى العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الشافعى . وقد خدم أهل العلم تلك المسانيد جمعا وتلخيصا وتخريجا وقراءة وسماعا و رواية ، فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشافعى صاحب الكتب الممتعة فى السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن شيوخ له ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم الى مخرجيها ، فى كتابه « عقد الجمان » وكذا يرويها بطرق محدث البلاد الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون فى « الفهرست الأوسط » وهما كانا زينى القطرين فى القرن العاشر. وكتاب « عقود الجوهر المنيفة » للحافظ المرتضى الزبيدى شذرة من أحاديث الامام ، وللحافظ محمد عابد السندى كتاب : « المواهب اللطيفة على مسند أبى حنيفة » فى أربع مجلدات أكثر فيه جدا من ذكر المتابعات والشواهد ورفع المرسل، ووصل المنقطع، و بيان مخرجى الأحاديث والكلام فى مسائل الخلاف. ومن ظن أن ثقات الرواة هم رواة الستة فقط فقد ظن باطلا . وقد جرد الحافظ العلامة قاسم ابن قطلوبغا الثقات من غير رجال الستة فى مؤلف حافل يبلغ أربع مجلدات، وهو ممن أقر له الحافظ ابن حجر وغيره بالحفظ والاتقان »

فقد تبين مما تقدم لا سيما من النقلين القيمين الأخيرين أن الأحاديث الصحيحة ليست كما أوهمه معالى المؤلف أقل من القليل، بل على العكس أكثر من الكثير ، وكما أن لكتاب الله حفاظا فللسنة أيضا حفاظ حفظ الله بهم حكم قوله فى كتابه « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» ولو لم تكن السنة محفوظة بل ضائعة بعد وفاة =

= الرسول ﷺ لضاع معها حكم هذه الآية فى غير شطرها الأول ، مع أن هذا الشطر أيضا محتاج فى الأكثر الى بيان السنة ، وضاع أيضا حكم قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله » ولا يجوز أن يكون وجوب طاعة الرسول مقصورا على المؤمنين الموجودين فى عصره . ولا ضرورة فى حمل الآية عليه بعد أن كانت سنة خاتم النبيين محفوظة بهمم رجال أرادوا بدافع حبهم لدين الاسلام أن تكون محفوظة و بذلوا فى حفظها جهودا تبهر العيون إلا عين من أراد إعدامها وقلب الأمور حتى عد دافع الحب الدينى منقصة للحافظ !

وما أعجب عقلية الكتاب العصريين لايرون فى انفسهم وهم صفوة الشرق، ولافى كتاب الغرب وهم قادتهم ، معجزة فينكرون معجزات الأنبياء ولا يرون فى أنفسهم قدرة وحماسة فى حفظ أحاديث نبيهم،ولا لتدقيق ماحفظ الحفاظ حتى ولا دافعا دينيا اليه فينكرون صحة الأحاديث المحفوظة ، و يحطون من قيمة الدافع الدينى و يعللون أنفسهم بدعوى الطريقة العلمية فى تأليف الكتب من غير دليل لهم على هذه الدعوى غير تقليد الغربيين . فان كان الغربيون المؤلفون فى السيرة المحمدية يلتزمون الطريقة العلمية وينتهجونها فى تدقيق حياة محمد ﷺ حين لا ينتهجها أئمة الاسلام المحدثون وكانت الطريقة العلمية توصل منتهجها الى الحق وكان معالى مؤلف « حياة محمد » يعتقد بكون نبوة محمد حقا ، لزم أن يصدق الغربيون أصحاب التأليف فى السيرة المحمدية نبوة محمد ﷺ فيسلموا أو أن لا تكون الطريقة التى سلكوها فى تدقيق حياته طريقة علمية أوأن لا تكون الطريقة العلمية تذهب بسالكها الى الحق والحقيقة. فلا مندوحة من أن تكون النتيجة المنطقية للمقدمات الثلاثة المذكورة أحد هذه الأمور الثلاثة ، ولا يمكن نقض هذا الانتاج المنطقى ولو حدث مائة ألف (موضة) من الطريقة العلمية يتمسك بها العصريون مستخفين بالمنطق القديم. نعم لا مندوحة من أحد الأمور الثلاثة الأولى التى ألزمناها أحد الثلاثة الأخرى . وأجدر ما فى تلك الثلاثة بالرجوع عنه هو كون طريقة الغربيين المؤلفين فى حياة سيدنا محمد ﷺ طريقة علمية أقوم من طريقة علماء الاسلام =

= فقد علم القارئ سوء ظن معالى مؤلف « حياة محمد » بكتب الحديث ورواته ورميهم بالأغراض الدينية والسياسية، وفى مقابل ذلك حسن ظنه بالمؤلفين الغربيين لاتباعهم الطريقة العلمية؛ وليسمع الآن باختصار ماذا يقول العالم الهندى مولانا شبلى النعمانى مؤلف كتاب ضخم فى الحياة النبوية قبيل كتاب معالى هيكل باشا، بهذا الصدد وكيف يبتدئ كتابه : [*]

« إن أسمى الوظائف والواجبات وأعظم الأفعال فى هذه الدنيا السعى لاصلاح وإكمال الأخلاق الانسانية وآدابها . فواجب الانسان فى هذه المهمة أولا أن يقتنع بفكرة صحيحة فى القواعد الأساسية لفضائل الأخلاق والزهد والتقوى والشرف والكرامة والاريحية والمسامحة والعفو والصفح والعزم والصبر والتضحية والجد والهمة، ثم السعى لنشر هذه الفكرة فى وجه الأرض وارساخها فى الاذهان

« وطرق القيام بهذه الخدمة كثيرة كالوعظ للجماعات، وإلقاء الخطب وتأليف الكتب القيمة ونشرها أو تحميل تلك الفضائل للناس بالقوة ومنعهم عن خلافها .

« لكن أفضل الطرق الى هذه الغاية وأنفعها إراءة موجود تاريخى يثبت كون تلك الأسس الأخلاقية والتلقينات الأدبية فعلية حقيقية، ويكون مثالا مجسما للفضائل لأن هذا الموجود التاريخى دليل قطعى لمتانة تلك الأسس وسموها وماهيتها الفعلية، فكل قول من أقوال هذه الشخصية التاريخية يكون أوقع فى النفوس من ألف كتاب فى الأخلاق وكل إشارة منها يكون مطاعا كالأمر المبرم، وفى الأصل أن الأمثلة أحسن من الدساتير وأقرب الى الفهم .

« وكل الدنيا اليوم باعتبار ما فيها من الفضائل الأخلاقية مدين لأمثال هؤلاء القادة الروحانيين والشخصيات القدسيين أعنى أنبياء الله المبعوثين الى الناس فى أزمنة مختلفة وليس مساعى الدنيا غير تلك الفضائل الاطلاء لبنيان المدنية .

« بيد أنا نفهم مما علمنا من تاريخ العالم أن كل واحد من الشخصيات العالية التى هى مثل الاقتداء يمثل نوعا من الفضائل ويجسم صفحة من الكمال الخلقى، فالمسيح =

(*) ترجم هذا الكتاب الى اللغة التركية وأنا عربت هذه الكلمة من تلك الترجمة .

= عليه السلام يعلم الحلم والعفو والصبر والاحتمال والصلح والسلام والقناعة والتواضع لكن تعليمه هذا لا ينطوى على قواعد الأخلاق اللازمة للحكومة والادارة. وما علمه سيدنا موسى ونوح من نوع الفضائل والكمالات لا ينطوى على ما علمه سيدنا عيسى منها

« فيظهر أن كل دور من أدوار التاريخ الانسانى المختلفة كان محتاجا الى واحد من تلك الشخصيات المقدسة، وكانت حاجة ذاك الدور الخاصة به تقضى بذلك الواحد ، ومع هذا كانت الانسانية منتظرة للانسان الكامل الذى ليس بملك فقط أو قائد فقط بل زاهد متق أيضا فى الوقت نفسه، وزعيم عام وموجود متواضع مطيع لخالقه مشفق على الخلق كريم قنوع فقير . فهذا الانسان الكامل الجامع لكل موجودية إنسانية ذروة البشرية العليا وأكبر موفقياتها.

« وكما أن كل شىء فى الدنيا فان فهذا الانسان الكامل أيضا ليس بخالد من حيث المادية، فلهذا يجب أن يسجل ما قاله وان ينقل من سلف الى خلف وان يثبت كل ناحية من سجاياه ويضبط كل عمل من أعماله ويروى بكل صدق وإخلاص ، وأن تصور كل حالة من حالاته ومواقفه ، لأن كل واحد من ذلك منبع نور لارشاد البشر فى كل زمان وذخر هداية لادارة الناس فى كل واد من أودية الحياة

« ومن المصادفات الجديرة بالدقة والتأمل أن المعلومات التاريخية المتعلقة بمؤسسى الأديان السائرة صلوات الله وسلامه عليهم كلها ناقص، وفى هذا مشابهة لكون كل منهم ممثلا لبعض أقسام الفضائل الخلقية المختلفة فحسب ، فنحن لا نعلم مثلا من وقائع حياة المسيح الممتدة ٣٣ سنة الا ما يختص منها بثلاث سنين ، حتى ان هذا النقص الزائد فى حياته المضبوطة حدا كثيرا من النصارى الى إنكار وجود سيدنا المسيح بالمرة . ونحن لا نطلع على مجددى إيران الدينيين الا بشهنامة الشاعر الفردوسى . أما المرشدون الدينيون الذين ظهروا فى الهند فتاريخهم منتقب بنقاب الأساطير . ومنبع المعلومات عن حياة سيدنا موسى الكليم هو التوراة التى جمعت بعد وفاته بثلاثمائة عام

« وربما كان هذا النقص فى المعلومات التاريخية عنهم حكم الطبيعة لأن تلقينات هؤلاء الأنبياء وأولئك المجددين والمرشدين لم تكن مما لا بد منه بالنسبة الى كل زمان =

= فربما من أجل ذلك لم يخلد تاريخهم بجميع تفاصيله، وانما حفظت أقسامه التي كان لازما أن تعلم وتحفظ ، وأكبر حاكم في تعيين حاجات كل دور من أدوار الزمان هو الطبيعة فمتى أحست هي حاجة أي دور الى شيء فالله تعالى يعطيه من فضله

« ثم ان كل ملة وكل طائفة من معتنقي الأديان تقدس دينها وتفضله على دين غيرها فلو وجهنا سؤالا عاما الى جميع أهل الأرض عمن له الموجودية الفائقة من بين مؤسسي الأديان فلا شك ان الأجوبة على هذا السؤال ترد مختلفة بعدد اختلاف مرسليها في الدين ، ولكن اذا زدنا تفصيلا وايضاحا في لفظ السؤال فقلنا مثلا : من ذا الذي ضبط جميع نصوص كتابه المنزل عليه ضبطا وثبت حرفيا بموفقية وصداقة لم تكونا من حظ الكتب المقدسة ؟ ومن ناحية أخرى قيد ونقل جميع وقائع حياته وجميع أفعاله وأقواله وأسفاره وأخلاقه وعاداته حتى شكل لباسه وصورة تلبسه وخطوط وجهه وكيفية تكلمه ومشيه وطرز معاشرته، وحتى أكله وشربه ونومه وتبسمه ومساعيه بجميع فروعه وتفاصيله ؟ فالجواب لابد ان يكون : محمد ﷺ »

لقد أحسن هذا المؤلف الفاضل في التنبيه الى امتيازه ﷺ على سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بل امتيازه على جميع مشاهير الدنيا وعظمائها الدينيين والدنيويين بضبط حياته وسيرته وحفظ أقواله وأفعاله ، وأحسن خصيصا في التنبيه على حكمة هذا الامتياز بكونه مجمع كل نوع من أنواع الفضيلة وخصال العظمة لا مختصا ببعضها . وأنا أضيف اليه أن كونه خاتم النبيين يقتضي أن يكون جامع الفضائل ومتمم مكارم الأخلاق، وأن تكون تلك الفضائل الجامعة والمكارم الشاملة مأثورة عنه محفوظة ، اذ لا يأتي بعده نبي آخر يتمها ويصلح ما فسد منها . فيلزم أن يكون نبينا ﷺ ممتازا على أسلافها الكرام بجمع أسباب العظمة في نفسه وانتقال أنبائه وأحاديثه محفوظة بحفظ الله تعالى ، الى أمته التي بعث اليها وهي كافة الناس الموجودين فيما بين مبعثه وقيام الساعة. وليس في القرآن ذكر سيرته وسنته ولو بقدر ما في الكتب المقدسة القديمة من أنباء الأنبياء الذين نزلت عليهم تلك الكتب ، فلزم ان تكون سنته محفوظة بحفظ مستقل كما حفظ كتابه، وقد كانت كذلك بفضل الله وبحمده ، فالآن وفي كل زمان من حق =

= الاسلام ان يباهى جميع الأديان بحفظ كتابه وسنته. ولئن دخلت فى الأحاديث موضوعات فما لبث علماء الحديث ونقاده أن تعقبوها وتعرفوها وميزوها عن الصحيح الثابت. وليس فى الذين أثاروا الشك فى السنة من المستشرقين ومقلديهم من المسلمين العصريين بحجة وجود الأحاديث الموضوعة، أحد وجد حديثا موضوعا بتعقيب وتدقيق من عند نفسه غير ماوجده علماء الاسلام المتقدمون

ولا مغالاة أصلا فى نفى من يساوى محمدا ﷺ أو يدانيه فى كون حياته بعد مبعثه الى وفاته ولاسيما أحاديثه مع المناسبات الداعية الى ورودها، مضبوطة مدونة. ولامحل لأن يقول قائل: كون حياته ﷺ بكل تفاصيلها موضع اعتناء وتدوين لم يقع مثلهما لأى أحد فى الدنيا مسلم به، وانما الشبهة فى صحة المعلومات المدونة والأحاديث المروية، لامحل لهذا القول بناء على ان الاعتناء المنقطع النظير انما يؤيد صحة المدون المضبوط لاشبهة المشتبهين فى صحته، فكلما زاد الاعتناء بالضبط ازداد احتمال صحة المضبوط قوة والشبهة فى صحته ضعفا. ولا نغالى أيضا اذا قلنا ان ضبط سنة نبى الاسلام أصح وأثبت من ضبط كتب أهل الكتاب

فقد أدى كمال الاعتناء الاسلامى بحياة نبينا وتتبع أقواله وأفعاله الى الاعتناء بحياة المتتبعين أنفسهم أعنى الرواة عنه، وليس فى الدنيا أحد عنى فى سبيل العناية به بكل من لقيه وبكل من روى شيئا، وبمن روى عمن روى عمن روى الخ وألف فيهم الكتب فكتب فى طبقات ابن سعد وطبقات ابن ماكولا، وكتاب الصحابة لابن السكن، وكتاب ابن جارود، وكتاب العقيلى، وكتاب ابن أبى حاتم الرازى، وكتاب الأزرق، وكتاب الدولابى، وكتاب البغوى و«أسد الغابة» و «الاستيعاب» و«الاصابة» ثلاثة عشر ألف صحابى مع تراجمهم، ودرس فى كتب أسماء الرجال من التابعين وتبع التابعين حياة مائة ألف رجل على الأقل. وعلى تخمين العالم الالمانى « اشبره نكر » خمسمائة ألف. فلا أغالى اذا قلت أيضا ان كيفية الاعتناء بحياة محمد ﷺ معجزة من معجزات الاسلام لكن معالى هيكل باشا مؤلف « حياة محمد » يحاول الحط من قيمة هذا الاعتناء لكونه من منكرى المعجزات. قال العالم الالمانى المار الذكر فى مقدمة كتاب تولى تصحيحه =

= وطبع فى «كالكوتا» اسمه «صانه»: «ان الدنيالم تر ولن ترأمة مثل المسلمين، فقد درس بفضل علم الرجال الذى أوجدوه حياة نصف مليون رجل» كما فى سيرة المؤلف الهندى المار الذكر، وكتابه أصح وأثرى مراجع اسلامية أو غربية بما لايقاس عليه كتاب معالى هيكل باشا

كان كل هذا التوسع فى تدقيق أحوال الرجال للاطلاع على منزلة رواة الأحاديث فى الصدق والضبط والأمانة . قال المؤلف الفاضل الهندى : «وسائر الأمم كانوا اذا أرادوا تدوين تاريخ قوم قيدوا كل ماسمعوه عنهم حتى ماسمعوا فى الشوارع، وكل رواية لا أساس لها من الصحة ، وليس لرواة تلك المسموعات وجود حقيقى جدير بالاعتماد فينتخب من تلك الروايات ماهو أنسب للتخمين وأوفق للقرائن المتعلقة بذلك العهد وتعتبر هذه المفتعلات بعد مدة تاريخا . فقد أنشأ كتاب أوروبا تاريخ الأوروبيين بهذا الشكل» والمطلوب الأول عند علماء الحديث أن يكون الراوى ممن له صلة بالحادثة التى رواها أو استطاع إراءة سلسلة الاسناد مبتدئة ممن روى الحادثة متصاعدة الى الراوى الأصلى وينظر خلال ذلك فى سجية كل من ذكر اسمه فى سلسلة الاسناد وخلقه ومسلكه وعقله ودقته وقوة ذاكرته وأمانته وعلمه، ولم يكن من السهل الاحاطة بهذه الأحوال، لكن المئات بل الألوف من المحدثين كرسوا جهودهم وأنفقوا أعمارهم فى هذا السبيل فكانوا يسيحون فى البلاد ويلاقون الرواة ويفحصون أحوالهم ويتعلمون أحوال من مات منهم من معارفه الأحياء، فحصل من ذلك علم أسماء الرجال بجانب علم الحديث

اما تأثير سياسة الحكومات فى رواية الاحاديث أو وضعها فيتداركه التزام تزكية الرواة . على ان الاموية والعباسية كانتا من أكبر دول العالم فى عهدهما، وكان الامويون يسبون عليا وأولاد فاطمة رضى الله عنهم فى خطب الجمعة، ويختلقون أحاديث فى مدح معاوية رضى الله عنه وكذلك وضعت أحاديث فى زمن العباسيين تزلفا اليهم ، ومع هذا فلم يلبث ان أعلن أئمة الحديث كونها زيوفا ولم يبق شىء منها حتى بقدر ما بقى من الاحاديث التى وضعها الشيعة والتى لم تنج هى أيضا من تعقب المحدثين =

« والواقع انالمنازعات السياسية التى حدثت بعد الصدر الأول من الاسلام أدت الى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها . فلم يكن الحديث قد دون الى عهد متأخر منعصر الأمويين، وقد أمر عمر بن عبدالعزيز بجمعه، ثم لم يجمع إلا فى أيام المأمون بعد ان أصبح الحديث الصحيح فى الحديث الكذب كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود على قول الدار قطنى [١] ولعل الحديث لم يجمع فى الصدر الأول من الاسلام لما كان يروى عن النبى انه قال : «لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه » على ان أحاديث النبى كانت متداولة على الألسن من يومئذ وكانت الروايات تختلف فيها. ولقد أراد عمر بن الخطاب أثناء خلافته أن يتدارك الحال فى ذلك بأن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبى فى ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها فطفق عمر يستخير الله شيئا ثم أصبح يوما وقد عزم الله (أى خلق له أسباب العزم من القوة والصبر ) فقال : « انى كنت أريد أن أكتب السنن وانى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا » وعدل عن كتابتها ، وكتب فى الأمصار عنها : « من كان عنده شىء فليمحه » وظلت الأحاديث بعد ذلك تتوالد وتتداول حتى جمع ما صح لدى جامعيه منها فى عهد المأمون [٢] » ص ٤٩ — ٥٠

---

(١) قول الدارقطنى هذا الذى هو تمثيل الموجود بالمعدوم شطط منه حيث يعدم الاحاديث بقوله هذا، وهو أى هذا القول أحق بالاعدام لتناقضه مع فعله لكونه نفسه أيضا من جامعى الحديث والغريب ان الدارقطنى من المجسمة المستدلين على مذهبهم السخيف ببعض الاحاديث وهو القائل فى الله تعالى :

فلا تعجبوا انه قاعد    ولا تعجبوا انه مقعد

أى يقعد من شاء الى يمينه ومن شاء الى شماله . فيفهم ان الشعر الأبيض فى جلد الثور الأسود هو تلك الاحاديث الحقيقة لان تكون فى رأس الشعرات السوداء لتضمنها مالا يقبله العقل بشأن الله تعالى

(٢) لو كان مؤلف «حياة محمد» مشى على الطريقة العلمية كما يدعيه لما كتب =

= هذه الكلمات ولم ينقل هذه الروايات مستدلا بها على عدم جواز الاعتماد على صحة الاحاديث المروية فى كتب الحديث ، اذ لو كان النبى ﷺ نهى عن كتابة أحاديثه وأمر بمحو ما كتب أمرا ونهيا باتين لما حاول عمر من أول الامر أن يكتبها ولا استفتى الأصحاب فى ذلك ولا أفتوا هم بذلك . ثم لو كان عمر عاد أخيرا الى العمل بقول النبى ﷺ ( من كان عنده شئ فليمحه ) وكانوا هم محوا ما كتبوه لما كتب المحدثون بعدهم كتبهم التى نراها مثل موطأ مالك ومسانيد أبى حنيفة والشافعى ومسند أحمد بن حنبل وصحيحى البخارى ومسلم وسنن أبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه، فهل يقبل العقل ان الأئمة كلهم حتى عمر والأصحاب خالفوا رسول الله ﷺ ولم ينتهوا بنهيه، وزاد المحدثون فخالفوا اجماع الصحابة أيضا وأثبتوا ما محوا، بل لم يثبتوا الا زيوف ما محوا بعد ان ضاع الاصل بمحوهم. فهذا غاية فى سوء الظن بكتب الحديث وعلمائه من مؤلف «حياة محمد»

ثم ان الماشى على الطريقة العلمية فى الكتابة يلزمه أن يفكر فيما ذا قد يكون مراد النبى ﷺ بالنهى عن كتابة أحاديثه والأمر بمحو ما كتب منها ؟ فهل النبى رجع عن الأحاديث التى قالها ؟ أو كان لايريد أن تبقى أحاديثه بعده بل تنسى لكونه نفسه أيضا شاكا فى صحتها كمؤلف « حياة محمد » ؟ أم يريد شيئا آخر يأتلف مع العقل وان لم يأتلف مع مقصد المؤلف؟ وكان يلزمه أن يفكر أيضا كيف وصل اليه حديث الأمر بمحو الأحاديث المكتوبة ولم يمح مع الأحاديث ؟ أليس هو أيضا حديثا ؟ أم يصل اليه ما يحلو له ولا يصل الى الناس مالا يحلو له ؟

كل هذه الأسئلة ترد على ناقل تلك الروايات الناهية عن كتابة الحديث نقلا يقصد به التشكيك فى صحة الأحاديث الموجودة فى كتب الحديث بجملتها . نعم هذه الروايات معلومة أيضا لأئمة الحديث ومعترف بها على انها أساس مذهب بعض الاجلة ، فقد انقسمت آراء الأقدمين فى المسألة على طرفين من الكتابة وعدمها، ولكل من الطرفين أدلة نقلية تمسكوا بها. ولم يذكر مؤلف « حياة محمد » مذهب القائلين بكتابة الحديث وأدلتهم وكاتبيه منذ عصر النبى ﷺ ، صيانة لدعواه التى التزمها فى تأليفه من الانتقاض كما هو دأب المؤلفين الغربيين، فتكون لهم عقلية مخصوصة فى مسألة تاريخية قبل أن =

= يكتبوا كتابا يتعلق بها، فيلتزمون تفسير ماصادفوه عند البحث فى المسألة على وجه يلائم عقليتهم المقررة، ويكون هذا الالتزام وهذا التفسير منهم طريقة علمية، وقد يجرهم التزامهم الى خطايا أخرى عظيمة فلا يجتنبون ارتكابها فى سبيل الاصرار على عقليتهم، وقد يصطدمون بما ينبههم على خطاياهم فلا ينتبهون. ومؤلف « حياة محمد » كتبها مقتنعا بفكرة يحسبها فكرة علمية وهى عدم امكان المعجزات ومن أجل ذلك قال ان محمدا ﷺ لامعجزة له غير القرآن . فاذا ذكر مافى كتب الحديث من معجزاته أنكر صحة مافى تلك الكتب فارتقى الامر من انكار المعجزات وانكار الأحاديث الواردة فيها الى انكار الأحاديث مطلقا ، وارتقى من الانكار الثانى الى انكار كتابة الحديث عن النبى ﷺ . فالطريقة العلمية أو بالأصح الطريقة المزعومة عامية أضلته السبيل وجرّت عليه جرائر . وتراه يكتب فى كتابه عن النبى فى خطبته التى ألقاها فى حجة الوداع قوله (١): ( وقد تركت فيكم ماان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة رسوله ) وكيف يقول انه ترك فى أمته سنته ليعتصموا بها مع كتاب الله وقد كان نهى عن كتابة السنة وأمر بمحو ما كتب منها ، فأين السنة وأين خطبة حجة الوداع ؛ لانها أيضا مقضى عليها بالمحو بناء على حديث ( من كتب عنى غير القرآن فليمحه )

هذا دأب مؤلفى الغرب ينقلون من الروايات مايوافق عقليتهم ويتركون مايخالفها ، لكن مؤلفى الاسلام ولاسيما أئمة الحديث الناقلين عن رسول الله لايستنكفون عن رواية الآثار التى لاتؤيد مااختاروه من المذهب مراعاة لشرط الأمانة . وأشد مما فعله مؤلف « حياة محمد » من التنويه بذكر الحديث الناهى عن كتابة الحديث فقط تاركا ذكر مايقابله من أحاديث أخرى ، وأعظم منه جرما ، أنه حرف مذهب المانعين عن كتابة الحديث الذى تمسك به كل التمسك ، عما أرادوه بمذهبهم هذا ، فقد اختلف فى كتابة الحديث وعدم كتابته ولكن لم يستخرج أحد من مذهب منع الكتابة عدم الاعتماد على الاحاديث الموجودة فى كتب الحديث

وقد عقد الحافظ ابن عبد البر فى كتابه « مختصر جامع بيان العلم وفضله » بابين =

---

(١) ص ٤٧٤ « حياة محمد » الطبعة الثانية

= بصدد هذه المسألة عنوان أولهما «باب ذكر كراهية كتاب العلم وتخليده فى الكتب» والثانى « باب الرخصة فى كتاب العلم » فذكر فى الباب الأول حديثا رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ( لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن فمن كتب عنى شيئا غير القرآن فليمحه ) ثم قال : وعن أبى نضرة قلت لأبى سعيد الخدرى ألا نكتب ما نسمع منك قال تريدون أن تجعلوها مصاحف؟إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ . وعن ابن وهب قال سمعت مالكا يحدث ان عمر بن الخطاب أراد أن يكتب هذه الأحاديث أو كتبها ثم قال: « لا كتاب مع كتاب الله » وقال وعن الوليد بن مسلم قال سمعت الاوزاعى يقول « كان هذا العلم شيئا شريفا اذا كان من أفواه الرجال يتلاقونه و يتذاكرونه فلما صار فى الكتب ذهب نوره وصار الى غير أهله » ثم قال المؤلف أعنى الحافظ ابن عبد البر : « من كره كتاب العلم كره لوجهين: أحدهما أن لا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ كما قال الخليل :

ليس بعلم ماحوى القمطر ما العلم الا ماحواه الصدر »

أقول و يحسن هنا تذكير مانقلناه سابقا عن «فرائد» ابن عقال الصقلى : « انما لم يجمع الصحابة سنن رسول الله ﷺ فى مصحف كما جمعوا القرآن لان السنن انتشرت وخفى محفوظها من مدخولها فوكل أهلها فى نقلها الى حفظهم ولم يوكلوا من القرآن الى مثل ذلك، وألفاظ السنن غير محروسة كما حرس الله كتابه ببديع النظم الذى أعجز الخلق عن الاتيان بمثله ، فكانوا فى الذين جمعوا من القرآن مجتمعين وفى حروف السنن ونقل نظم الكلام نصا مختلفين، فلم يصح تدوين مااختلفوا فيه، ولو طمعوا فى ضبط السنن كما اقتدروا على ضبط القرآن لما قصروا فى جمعها ولكن خافوا ان دونوا مالا يتنازعون أن تجعل العمدة فى القول على المدون فيكذّبوا ما خرج عن الديوان فتبطل سنن كثيرة فوسعوا طريق الطلب للامة فاعتنوا بجمعها على قدر عناية كل أحد فى نفسه » وهو كلام حسن جدا

وقال الحافظ ابن عبد البر أيضا . « من ذكرنا قوله فى هذا الباب فانما ذهب =

= فى ذلك مذهب العرب لانهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك، والذين كرهوا الكتاب كابن عباس والشعبى وابن شهاب والنخعى وقتادة ومن ذهب مذهبهم وجبل جبلتهم كانوا قد طبعوا على الحفظ فكان يجتزئ بالسمعة، ألا ترى الى ما جاء عن ابن شهاب انه كان يقول انى لأمر بالبقيع فأسد آذانى مخافة أن يدخل فيها شئ من الخنا، فوالله مادخل أذنى شئ قط فنسيته. وجاء عن الشعبى نحوه. وهؤلاء كلهم عرب وقد جاء عن ابن عباس حفظ قصيدة عمر بن أبى ربيعة : « أمن آل نعم أنت غاد فمبكر » فى سمعة واحدة فيما ذكروا وليس أحد اليوم على هذا ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم. وقد أرخص رسول الله ﷺ فى كتاب العلم ورخص فيه جماعة من العلماء وحمدوا ذلك ونحن ذاكروه بعد هذا ان شاء الله . وقد دخل على ابراهيم النخعى شئ فى حفظه لتركه الكتاب . وعن منصور قال كان ابراهيم يحذف الحديث، فقلت له ان سالم بن الجعد يتم الحديث قال ان سالما كتب وأنا لم أكتب (قال ابن عبد البر ) فهذا النخعى مع كراهته لكتاب الحديث قد أقر بفضل الكتاب »

وقال فى الباب الثانى : « عن أبى هريرة : لما فتحت مكة قام رسول الله ﷺ وخطب قال فقام رجل من اليمن يقال له أبو شاة فقال يارسول الله اكتبوا لى، فقال ﷺ ( اكتبوا لأبى شاة ) يعنى الخطبة . وعن عبدالله بن عمرو قال كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا أتكتب كل شئ تسمعه و رسول الله ﷺ يتكلم فى الرضا والغضب فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه الى فيه وقال (اكتب فوالذى نفسى بيده مايخرج منه إلا حق) وعنه أيضا مايرغبنى فى الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوهط أما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها . وكتب رسول الله ﷺ كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره . وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قيدوا العلم بالكتاب)

«وفى باب العلم من صحيح البخارى قول أبى هريرة. ليس فى أصحاب رسول الله =

= ﷺ أحد أعلم مني بأحاديثه إلا عبدالله بن عمرو بن العاص المار ذكره أسلم قبيل أبيه وكان هو وعلي وأنس ممن يكتبون الحديث . ففي « تقييد العلم » للخطيب البغدادي ان الصحابة كانوا يجتمعون حول أنس ليستمعوا منه أحاديث رسول الله ﷺ وكان يخرج من جيبه صحيفة و يقول « هذه أحاديث سمعتها من رسول الله ﷺ فقيدتها »

« وعن اسحق بن منصور قال: قلت لأحمد بن حنبل من كره كتابة العلم؟ قال كره قوم ورخص فيه آخرون قلت له لو لم يكتب العلم لذهب، قال نعم لولا كتابة العلم أي شيء كنا نحن . قال اسحق وسألت اسحق بن راهو يه فقال كما قال أحمد ».

وفي سيرة الفاضل الهندي المارة الذكر نقلا عن سنن أبي داود وابن ماجه «انه لما مات رسول الله ﷺ كانت هذه الوثائق حاضرة: الأحاديث التي كتبها عبدالله بن عمرو بن العاص وعلي وأنس ، العهود المكتوبة مثل صلح الحديبية ، الأوامر المرسلة الى القبائل المختلفة والرؤساء ، أسماء ألف وخمسمائة صحابي. »

فقد انجلى من كل هذا انه كتب في عهد رسول الله ﷺ شيء كثير من أحاديثه ومالم يكتب منها بقيت محفوظة في الصدور الى ان جمعها أئمة الحديث في كتبهم. وعدم كتابتها أولا كان ناشئا من اهتمام العرب بالحفظ أكثر من الكتابة فكأنهم كانوا يعدون المكتوب عرضة للاهمال وعدم الاهتمام بالنسبة الى المحفوظ في صدورهم على عكس ما يتوهم. فمن استخرج من عدم كتابتهم الأحاديث اعتمادا على حفظهم عدم صحة الاعتماد على ما كتبه جامعو الصحاح بعد زمان مما وصل اليهم من محفوظات الرواة واعتباره مكتوبا من غير أساس صحيح كما فعله مؤلف « حياة محمد » ، كان كمن استخرج من اعتماد الحفاظ على حفظهم معنى عدم الاعتماد وقلب نفس الأمر الى عكسه

بل نقول: وقبل ان جمع الأحاديث جامعوها مثل البخاري ومسلم وغيرهما قام أئمتنا المجتهدون مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأصحابهم بتدوين علم الفقه الذي هو أيضا من معجزات الاسلام الخاصة به فدونت السنة أيضا في ضمن هذا العمل العظيم قبل تدوين المحدثين فازدوجت المعجزتان وكتب الخلود للسنن وكان هذا مساعدة كبيرة متقدمة لعلم الحديث ونقل رواته، ألا ترى أن عمل امام معروف من أئمة الفقه بحديث من الأحاديث يعتبر مؤيدا لدرجته من الصحة =

« ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لاريب فيه فقد جرح بعض العلماء كثيرا من الأحاديث أثبتها جامعوها على أنها صحيحة . قال النووى فى شرح مسلم : « قد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلا بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه [1] ذلك ان الجامعين قد جعلوا مقياس السند والثقة بالرواية أساسهم فى قبول الحديث ورفضه، وهو مقياس له قيمته لكنه وحده غير كاف، وعندنا ان خير مقياس يقاس به الحديث ويقاس به سائر الأنباء التى ذكرت عن النبى ماروى عنه عليه السلام انه قال : « انكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فليس عنى [2] » وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور

---

= بقى أنه لا يرد علينا وعلى الحافظ ابن عبد البر الذى نقلنا شيئا من كتابه عندما ادعينا اهتمام العرب بالمحفوظ أكثر من المكتوب ، الاعتراض بالقرآن، لأنه مكتوب ومحفوظ معا، لكن الحديث لما لم يكن فى مرتبة القرآن لزم إما أن يكون مكتوبا فقط أو محفوظا فقط ، فمن فضل الكتابة نظر الى أنها أبقى ومن فضل الحفظ نظر الى انه أدعى الى الاهتمام وان زيادة الاهتمام كفيلة بالبقاء أيضا . وهذا تمام تحقيق المقام

(١) قد عرفت مما سبق ان النزول عن درجة ما التزماه ليس نزولا عن درجة الصحة الى درجة عدم الصحة كما أوهمه أسلوب كلام معاليه وانما معناه النزول عن أعلى درجات الصحة ، بل النازل عن درجة الصحة مطلقا فى اصطلاح الحديث يكون حديثا حسنا والنازل عن درجة الحسن يكون حديثا ضعيفا، والحديث الموضوع أو الحديث المنكر غير ذلك

ثم ان ما انتقد على البخارى ومسلم اللذين جمعا فى صحيحيهما مايقرب من عشرة آلاف حديث مئتان وعشرة أحاديث فقد اشتركا فى اثنين وثلاثين منها واختص البخارى بثمان وسبعين ومسلم بمائة ، وليس مئتان وعشرة من عشرة آلاف بكثير مع ان الانتقاد على البخارى ومسلم فى تلك الأحاديث قد كان على انها غير مستجمعة لشروطهما لا لأنها أحاديث غير صحيحة

(٢) هذا الحديث موضوع قال عبد الرحمن المهدى: الزنادقة والخوارج وضعوا —

الأولى وما زال المفكرون منهم يأخذون به الى يومنا الحاضر[1] »

= حديث « ماأتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله الخ » وكذلك قال يحي بن معين: « ان هذا الحديث موضوع وضعته الزنادقة » والعجب من معالى الباشا يرمى الأحاديث الصحيحة بشبهة الوضع ثم ينتقى حديثا موضوعا لاثبات مدعاه فى رمى الاحاديث ، ومعناه ان ظنه بالزنادقة أحسن من ظنه بأئمة الحديث. ومما زاد فى الغرابة أنه لو عرض هذا الحديث الذى تمسك به على القرآن لخالف ماورد فيه من أمر الله باتباع رسوله فيما آتاه مطلقا غير مقيد بعرضه على القرآن : قال تعالى ( وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا )

(١) معالى هيكل باشا يظن أن أهل الحديث لم يراعوا ماذكره مقياسا لقبول الحديث أو رفضه من موافقة القرآن أو مخالفته، فقد راعوه فى حدود معقولة وغير محتاجة الى بنائه على حديث وضعته الزنادقة وأعجب معاليه لتوافقه مع غرضه ، وراعوا معه شروطا تتعلق بروايةالحديث وشروطا تتعلق بدرايته والمقياس الذى ذكره داخل فى شروط الدراية وليس مقياس القبول والرفض منحصرا فيه بل معه شروط أخرى درائية وشروط أخرى روائية . ومعاليه لايعير اهتماما بشروط الرواية التى هى أول مايجب على جامعى الأحاديث مراعاتها كما لايهتم بها مؤرخو الغرب عشر معشار اهتمام المحدثين، مع أن علم الحديث كالتاريخ من العلوم النقلية التى يلزم أن تكون صحة النقل هى أول مايطلب كونه مضمونا فيها . أما ناحية الدراية فلا يكون لها المنزل الأول مهما كانت أهميتها وإلا انقلبت العلوم النقلية علوما عقلية . ثم ان النظر فى الناحية العقلية من اختصاص المجتهد أكثر من المحدث الذى موقفه موقف الصيدلانى من الطبيب وان العقول متفاوتة ، فلعل الحديث الذى لايتفق مع عقل امرىء فيرفضه رغم أمانة الراوى يتفق مع عقول آخرين أبعد منه نظرا وأقوم فهما . والحديث المشهور : (نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع) يشير الى هذه الدقيقة المهمة . فهذا الحديث الجليل يدل المحدث على أهدى سبيل =

وقال أيضا : « وحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حدا دعا الدعاة الى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات ، ومنذ قتل لؤلؤة بن المغيرة عمر بن الخطاب، ومنذ تولى عثمان بن عفان الخلافة بدأت الخصومة التي كانت بين بنى هاشم وبين بنى أمية قبل رسالة النبي العربي فظهرت من جديد. فلما قتل عثمان وقامت الحرب الأهلية بين المسلمين وخاصمت عائشة عليا وأيد عليا من أيده بدأت الأحاديث الموضوعة تكثر الى حد أنكره على بن أبي طالب حتى روى عنه انه قال « ماعندنا كتاب نقرؤه

---

= وفى إمكانى أن أوضح هذه الدقيقة بمثال لاأحتاج الى استحضاره من بعيد : فلو فرضنا كون معالى هيكل باشا من المحدثين واعتبرنا مخالفة القرآن مقياسا لرفض الحديث كما اعتبره هو ، كان كل حديث ورد فى معجزات نبينا محمد ﷺ غير القرآن مرفوضا عنده بناء على أن القرآن يمنع فى زعمه وجود معجزة لنبينا غير معجزة القرآن حتى ان هذا الزعم هو الذى حداه الى تفضيل هذا المقياس على غيره مع أن كون القرآن يمنع وجود معجزة لنبينا غير معجزة القرآن فكرة خاطئة استولت على عقل الباشا تقليدا منه لدعوى المستشرقين التى سنبطلها إن شاء الله . فهذا المقياس الذى له قيمة الى حد ما، لم تصل بهذا المحدث الى نتيجة سالمة عن الخطأ لكونه مقياسا عقليا يختلف باختلاف عقل القائس قوة وضعفا .

ثم ان كون مخالفة القرآن مقياسا لرفض الحديث لايستقيم فى جميع الأوقات إذ يمكن أن يكون الحديث المخالف قطعى الثبوت ومتأخر الورود عن القرآن الذى يخالفه فيكون ناسخا للقرآن كحديث (إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث) هذا مثال للسنة القولية الناسخة للقرآن، ورجم الزانى المحصن والزانية المحصنة المعدود من الحدود الشرعية المعنىّ باقامتها فى الاسلام على طول تاريخه ، ثابت بالسنة المشهورة الفعلية فان النبى ﷺ رجم ماعزا وغيره، و بها نسخت آية الزنا فى القرآن القائلة (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) فى حق المحصن والمحصنة . وهذه المسائل =

عليكم إلا مافى القرآن » وما فى هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله ﷺ فيها فرائض الصدقة [١] «على ان ذلك لم يقف رواة الحديث عن روايته ، ولم يقف قوما عن وضع الحديث لهوى يدعون اليه أو لفضائل يزعمون ان الناس أحرص على اتباعها حين ينسب الى رسول الله حديثها ... » ٥٠ — ٥١

« وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرة راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما فى كتاب الله، ولم تنجح المحاولات التى بذلت لوقفها فى زمن الأمويين فلما كانت الدولة العباسية وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبى كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها، وكان بينها من التضارب وفيها من التفاوت مالا يخطر بالبال . اذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولى كتّاب السيرة كتابتها فقد عاش الواقدى وابن هشام والمدائنى وكتبوا كتبهم أيام المأمون وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة مايحل بهم [٢] لذلك لم يطبقوا بما يجب

= التى لايعرفها معالى هيكل باشا ، وربما يتعجب منها لكونه لايقيم للسنة وزنا تستحق به أن تصح فى نفسها بله أن تكون ناسخة للقرآن ، هذه المسائل أيضا مما ينبئ عن الأهمية الراجحة لناحية الرواية فى الحديث كما ذكرنا من قبل . ثم إن لمعالى الباشا مسلكا عجيبا فى فهم معنى موافقة الحديث ومخالفته للقرآن سيطلع عليه القراء

(١) لماذا لم يمح على رضى الله عنه الصحيفة التى كتب فيها ماأخذه عن رسول الله ﷺ من فرائض الصدقة بناء على الحديث الموضوع الذى تمسك به معاليه وعده من أسباب عدم اعتماده على الأحاديث المجموعة فى كتب الحديث وهو : (لاتكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه ) ؟

(٢) من المعروف عن المأمون وأخيه المعتصم انهما كانا يقولان بخلق القرآن ويرهقان العلماء على القول به حتى إنهما كانا يعاقبان من خالفهما منهم فى ذلك ومحنة الامام أحمد فى عهديهما من أجل هذه المسألة أشهر من أن تذكر . فيلزم بالنظر الى إدعاء معالى الباشا أن تكون كتب الحديث — لاسيما وقد كتبت فى أيام المأمون — مشحونة بأحاديث =

= موضوعة تعضد مذهبه ، مع أنه لايوجد حديث واحد ينطق بخلق القرآن وان وجد ماينطق بأنه غير مخلوق . فمعاليه يدعى أنه ما كان للعلماء ان ينازعوا الخليفة فى آرائه مخافة مايحل بهم ، والواقع يشهد بأنهم نازعوه وانهم لم يخافوا مايحل بهم . ومعاليه يدعى أن فى كتب الحديث آلافا مؤلفة بل عشرات الألوف ومئاتها من الأحاديث الموضوعة على وفق أهواء الخلفاء الأمويين والعباسيين الشديدى البطش ، وليس فيها أحاديث من ذاك القبيل وإن كان هناك أحاديث موضوعة فى مواضيع أخرى ماخفيت عن أنظار المحدثين النقاد ، وفى حادثة المتوكل مع ابن السكيت لما طلب المتوكل منه المفاضلة بين إبنيه و بين الحسن والحسين رضى الله عنهما فأجاب بأن قنبرا خادم على أفضل من إبنى المتوكل فقتله فى الحال ـ دليل على عكس ماادعاه معاليه

ومن أمثلة شجاعة العلماء الجبارة الجديرة بالذكر هنا ما كتبه صديقنا الأستاذ الكبير الشيخ محمد الخضر حسين فى مجلة « الهداية الاسلامية » الغراء من إن عبد الملك ابن مروان رأى ان يدعو الناس الى مبايعة ابنيه الوليد وسليمان بولاية العهد ، وكتب فيما كتب الى والى المدينة هشام بن اسماعيل أن يدعو أهل المدينة الى هذه المبايعة ففعل وأطبق أهل المدينة على البيعة الا سعيد بن المسيب فانه امتنع بعلة ان النبى ﷺ نهى عن بيعتين . فكتب هشام الى عبد الملك يخبره بأن أهل المدينة بايعوا قاطبة ولم يأب منهم إلا سعيد بن المسيب ، فكتب عبد الملك إلى هشام بأن يأمر سعيدا بالمبايعة فان أبى عرضه على السيف فان أصر على عدم المبايعة جلده خمسين سوطا وطيف به فى أسواق المدينة

وصل كتاب عبد الملك إلى هشام واتصل بهشام ثلاثة من أصدقاء سعيد وهم سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبدالله ، فأخبرهم هشام بما أمر به فى شأن سعيد . والظاهر أن هشاما لم يطلعهم إلا على ماأمر به عبد الملك من عرض سعيد على السيف ان امتنع من البيعة ، ولم يذكر لهم ماجاء فى الخطاب من ترك قتله اذا أصر على رأيه واستبدال الجلد بالقتل . ارتاع الفقهاء الثلاثة لهذا الخبر وخشوا أن يصمم السعيد على عدم المبايعة ، فيناله عقاب القتل ، فأخذوا يدبرون وجها لتخليص سعيد من هذه =

= الورطة متى صمم على عدم البيعة حتى وصلوا الى تدبير عرضوه على الوالى فقبله، وكانوا يظنون ان مادبروه من الوجوه لانقاذ سعيد سيجد من سعيد لينا وقبولا حسنا

لذلك ذهب الفقهاء الثلاثة الى سعيد وقالوا جئناك فى أمر عظيم: ان عبدالملك كتب الى الوالى يأمره بأن يعرض عليك المبايعة فان لم تفعل ضرب عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا فأعطنا إحداهن وهى :

أن يقرأ عليك الكتاب فتسكت ولا تقول لا ولا نعم ، فيكتفى الوالى منك بهذا السكوت فتمضى على ماصممت عليه من عدم المبايعة وتدرأ عن نفسك عقوبة القتل

سعيد : ماأنا بفاعل

الفقهاء الثلاثة : تجلس فى بيتك ولا تخرج الى الصلاة أياما فيعتمد الوالى فى عدم إنفاذ أمر عبدالملك على أنه قد طلبك من مجلسك فلم يجدك

سعيد : افعل هذا وأنا أسمع الأذان فوق أذنى : حى على الصلاة ؟! ماأنا بفاعل

الفقهاء الثلاثة : انتقل من مجلسك بالمسجد الى مكان غيره ، فان الوالى يطلبك فى مجلسك فان لم يجدك أمسك عنك

سعيد : أفرقا من مخلوق ؟ ماأنا بمتقدم شبرا ولا متأخر . ولما رأى الفقهاء صلابة سعيد ويأسوا من قبوله إحدى الخصال التى عرضوها عليه خرجوا والأسف على سفك دم سعيد يملأ صدورهم

وما كان من سعيد إلا أنه خرج الى صلاة الظهر وجلس فى مجلسه الذى اعتاد الجلوس فيه من قبل ولم يكن من الوالى إلا أنه بعث اليه فأتى به، فقال له: ان أمير المؤمنين كتب يأمر إن لم تبايع ضربنا عنقك

سعيد : نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين

هشام : اخرجوا سعيدا الى الشدة ومدوا عنقه وسلوا عليه السيوف ففعلوا وسعيد مصر على عدم البيعة

فلما رأى هشام إصراره أمر به فجرد من بعض الثياب ليذوق ألم الجلد وضربه خمسين سوطا ثم طافوا به فى أسواق المدينة ومنعوا الناس أن يجالسوه =

من الدقة ، هذا المقياس الذى روى عن النبي عليه السلام من وجوب عرض مايروى عنه على القرآن، فما وافق القرآن فعن الرسول، وما خالفه فليس عنه ..[١] وقد ورث المتأخرون عن السلف هذه الطريقة فى كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم . ولو انهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبي العربى فى جملتها وفى تفصيلها دون استثناء لأى نبأ روى عنها لايتفق وما ورد فى القرآن الكريم[٢] فما لم يكن مما تجرى به سنة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه، وما كان مما تجرى به سنة

---

أقول : فكان مافعله سعيد بن المسيب كماقال فضيلة الاستاذ كاتب المقالة فى عنوان مقالته « مثلا أعلى لشجاعة العلماء » وكان مافعله عبد الملك وواليه مثلا أعلى لسخافة الملوك وعمالهم . ومعالى الدكتور هيكل الذى لا يرجو من علماء عهد الأمويين والعباسيين ـ عهد تدوين الأحاديث النبوية ـ غير المماشاة لأهواء الزمان وحكامه ، انما يقيس أولئك العلماء بمشايخ الأزهر الذين شجعوه على تأليف كتابه فى السيرة مسيئا ظنه بروايات السيرة والحديث، والذين أثنوا على هذا الكتاب أو دافعوا عنه

(١) يعقل الى حد ما اشتراط عدم المخالفة للقرآن فى قبول الحديث ولكن اشتراط موافقته للقرآن لايترك للسنة مكانا مستقلا بين الأدلة الشرعية بل يجعلها مستغنى عنها لاسيما اذا أريد بموافقة الحديث للقرآن ورود ذكر ماورد فى الحديث، فى القرآن كما فسرها بعد أسطر من كلامه

(٢) أطال المؤلف الكلام فى وجوب اتخاذ الموافقة للقرآن أومخالفته مقياسا لقبول الحديث أو رفضه على الرغم من كون هذا الوجوب المزعوم مبنيا على حديث موضوع مخالف للقرآن، وقد نبهنا من قبل على ان عدم الاتفاق مع القرآن لايوجب رفض الحديث مطلقا اذ قد يكون الحديث المخالف ناسخا للقرآن وقد تكون مخالفة الحديث للقرآن فى زعم الزاعم لا فى نفس الأمر . والعجب أن أحاديث المعجزات التى أراد معالى المؤلف رفضها وأثار فى سبيل رفضها الشبهة فى صحة ما كتب فى كتب الحديث مطلقا ، من هذا القبيل كما ستعلمه

الكون محصوه ثم أثبتوا منه ماثبت لديهم بالدليل اليقينى، وتركوا منه ما لم يقم الدليل عليه[1] ٥١ — ٥٢

« وأكبر ظنى ان الذين كتبوا السيرة كانوا يؤثرون هذا الرأى لولا أحوال العصر أيام المتقدمين ، ولولا أن ظن المتأخرون ان فى ذكر مالم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات مايزيد الناس إيمانا على إيمانهم ؛ لذلك حسبوا ان ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر، ولو أنهم عاشوا الى زماننا ورأوا كيف اتخذ خصوم الاسلام ماذكروه منها حجة على الاسلام وعلى أهله لالتزموا ماجاء به القرآن[2]، ولقالوا بما قال به الغزالى ومحمد عبده والمراغى وسائر المدققين من الأئمة[3]، ولو انهم عاشوا فى زماننا هذا ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوبا وعقائد بدل أن تزيدها إيمانا وتثبيتا لكفاهم ذكر ما فى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة[4] ٥٣

---

(١) اشترط فى صحة الحديث هنا موافقته لسنة الكون زيادة على شرط موافقته للقرآن وهذا الشرط الزائد هو أساس الشرط الآخر عنده بل أساس الداء الذى جر عليه ماأحصيناه من جرائر الأخطاء

(٢) لا يجوز رفض ماورد فى السنة من سيرة نبينا ﷺ بمجرد أنه لم يرد به القرآن ولا بمجرد أن خصوم الاسلام اتخذوه حجة على الاسلام وعلى أهله وانما ينظر الى كونه حجة عليهما فى نفس الأمر، وستتضح لك حقيقة هذه المسألة إن شاء الله

(٣) ذكر المؤلف من ذكرهم من الائمة الثلاثة المدققين على ترتيب أزمنتهم لا على أن محمد عبده يقل عن الغزالى والمراغى يقل عنهما فى الامامة والتدقيق . وأنا لاأدرى كيف يكون للغزالى رأى فى مقياس قبول الحديث أو رفضه يتفق مع رأى معالى هيكل باشا أو مع رأى من يتفق معه من الامامين ، فى نفى معجزات نبينا غير القرآن وفى عدم الاعتماد على كتب السيرة وكتب الحديث التى كتبت فيها أحاديث المعجزات وفى مخالفة تلك الاحاديث للقرآن

(٤) لنا كلام فيما سيأتى ان شاء الله على هذه النقاط

« اما ومضرة الروايات التى لا يقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعى جانب الدقة العلمية فى تمحيصها خدمة للحق وخدمة للاسلام ولتاريخ النبى العربى ...

« ولو اننا عرضنا كثيرا من الأمور التى ترويها كتب السيرة وكتب الحديث على مافى القرآن لما وسعنا الا أن نأخذ برأى الأئمة المدققين ، فقد كان أهل مكة يطلبون الى النبى أن يجرى ربه على يديه المعجزات اذا أرادهم أن يصدقوه ، فنزل القرآن يذكر ماطلبوا ويدفعه بحجج مختلفة . قال تعالى : ( وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ) وقال تعالى : ( وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننّ بها قل انما الآيات عند الله ومايشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ) ولم يرد فى كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد الا القرآن الكريم [1] هذا مع أنه ذكر المعجزات التى جرت باذن الله على أيدى من سبق محمدا من الرسل، كما انه

---

(١) لم يحسن معاليه التعبير عما حاول إفادته هنا فاستعمل « الارادة فى محل الأمر والتكليف ، إذ لوكان الله أراد بمعجزة القرآن أن يؤمن الناس كافة برسالة محمد ﷺ لآمنوا ولم يبق على وجه البسيطة أحد إلا وقد أسلم . ولعله لايعرف أن ارادة الله تستلزم وقوع ماأراده من غير أدنى تخلف، ولا الكلمة المأثورة المشهورة : ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا إجماع المسلمين عليها

جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد، وما وجه اليه الخطاب فيه، وما ورد فى الكتاب عن النبى العربى لايخالف سنة الكون فى شىء[1] ص ٥٤

« اما وذلك مايجرى به كتاب الله، وما يقتضيه حديث رسول الله ( يعنى القول المذكور الموضوع ) فأى داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم الى اثبات خوارق مادية للنبى العربى ؟ انما دعاهم الى ذلك أنهم تلوا ماجاء فى القرآن عن معجزات من سبق محمدا من الرسل فاعتقدوا ان هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة فصدقوا ماروى منها[2] وان لم يرد فى القرآن[3] وظنوا انه كلما ازداد

---

(١) فيه امتداح معجزة نبينا محمد ﷺ بأنها لاتخالف سنة الكون كما إن فيه شيئا من انتقاص معجزات غيره من الأنبياء عليهم السلام بأنها تخالف سنة الكون

(٢) فيه تصديق المعجزات الكونية للانبياء الماضين، وتكذيب معجزات نبينا الكونية وتكذيب رواتها المسلمين وهو يتضمن عارا ان لم يكن على نبينا فعلى أمته . ومعاليه متوهم فى كل ذلك

(٣) عدم ورود فى القرآن لايوجب عدم وروده فى الحديث ، وهو يصر على توهم التلازم بين الأمرين وعلى عدم التمييز بين المخالفة للقرآن و بين عدم الورود فيه . ومن البين أنه لولم يقبل مماورد فى كتب الحديث والسيرة إلا ماورد مثله فى القرآن لكان نبينا محمد ﷺ الذى هو أشهر رجل فى تاريخ الدنيا وأكثره من ناحية العلم والضبط بحياته، من أقل الرجال فى ذلك لأن القرآن لايتضمن من أنباء حياته غير القليل إلا أن القرآن ملأ هذا الفراغ باعتنائه بسنة الرسول قائلا (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) وقائلا (وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى) وقائلا (وأنزلنا عليك الكتاب لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وقوله تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ) على ان بيانه ﷺ من بيان الله فلولا السنة أولولا الثقة بالسنة التى هى مبينة لمجملات القرآن ومتممته من هذه الحيثية على الأقل كانت رسالة القرآن ـ بالتعبير الحديث ـ مختلة غير مؤداة حق الأداء . فضياع السنة فى

عددها كانت أدل على هذا الكمال وأدعى الى أن يزداد الناس بالرسالة ايمانا . ومقارنة النبي العربي بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله للناس كافة ولم يبعث الى قومه وحدهم ليبين لهم ، لذلك أراد أن تكون معجزة محمد انسانية [١] عقلية لايستطيع الإنس والجن الاتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، هذه المعجزة هي القرآن وهي أكبر المعجزات التي أذن الله بها [٢] وقد أراد جل شأنه منها أن تثبت رسالة نبيه بالحجة البينة والدليل الدامغ سلطانه ٥٤ — ٥٥

« ولو أراد الله أن تكون المعجزة المادية وسيلة الى اقتناع من نزل الاسلام على رسوله بينهم لكانت ولذكرها في كتابه لكن من الناس من لايصدقون الا ما يقره العقل » [٣] ٥٥

---

قرون الاسلام الأولى ضياع القرآن في الجملة ، ووعد الله تعالى بحفظ القرآن في قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) يتضمن وعده بحفظ السنة أيضا . فأين تذهبون أيها المدعون ضياع السنة الصحيحة التي وعد الله حفظها في ضمن حفظ القرآن

(١) مامعنى كون بعض المعجزات انسانيا و بعضها غير إنساني ؟ سنتكلم عليه

(٢) لاشك ان القرآن أفضل المعجزات ولكن اذا كان لنبينا معجزات أخرى مع القرآن ولم يكن جميع كتب الحديث والسيرة كاذبة وانما الكذب في دعوى كون أصحاب تلك الكتب تلوا ماجاء في القرآن من معجزات من سبق محمدا ﷺ فاختلقوا معجزات له تقليدا لمعجزاتهم وافتراء على الله ورسوله ، ولم يكن التقليد منهم بل من معالى مؤلف «حياة محمد» لأعداء الاسلام المفترين الكذب على كتب السيرة والحديث ... إذا كان الواقع في نفس الأمر كذلك فهل يكون حقا علينا ان ننفي تلك المعجزات مراعاة لخاطر معاليه أو لخاطر أعداء الاسلام ؟

(٣) فيه انتقاص لمعجزات سائر الأنبياء عليهم السلام بأنها لايقرها العقل وهو أشد من انتقاصها بماسبق من مخالفتها لسنة الكون لأن مالايقره العقل يكون مستحيل

وقال في مقدمة الطبعة الأولى ص ١٤ : على أن لهؤلاء الذين يحمّلون الاسلام وزر انحطاط الشعوب الاسلامية من العذر أن أضيف الى دين الله شيء كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورمى من ينكره بالزندقة (١) وندع الدين جانبا ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام فقد أضافت أكثر كتب السيرة الى حياة النبي مالا يصدقه العقل (٢) ولا حاجة اليه في ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك قد اعتمدعليه

---

الوقوع وينجلي منه رجحان معجزة نبينا أعني القرآن على معجزاتهم عند معاليه . أما لزوم كون القرآن حين ينطق بتلك المعجزات ناطقا بالمحال وكونه مقرا لما لايقره العقل فذلك لايهم معاليه !!

(١) ليس سبب انحطاط شعوب المسلمين دخول ماليس من دينهم في دينهم إذ لايمكن ان يدعى أحد ان الاسلام طرأ عليه التحريف بأكثر مما طرأ على المسيحية مع ان الشعوب المسيحيين لايعتبرون مع الشعوب الاسلامية في دركة واحدة من الانحطاط لاسيما عند معاليه وأمثاله من المسلمين العصريين . ثم ماهي التي أضيفت الى الاسلام واعتبرت من صلبه وكان منها للذين حملوا الاسلام وزر انحطاط الأمم الاسلامية العذر في هذا التحميل ؟ فان كانت هي المعجزات الكونية المضافة الى معجزة القرآن ولم يكن لها أساس من الصحة ، فكيف تسبب زيادة المعجزات الكونية المكذوبة على معجزة نبينا انحطاط شعوب المسلمين حين لم تكن تلك المعجزات الكونية لسيدنا موسى وعيسى وهي غير مكذوبة عليهما ، سببا لانحطاط اليهود والنصارى ؟ فهل من اللازم مطلقا أن لايكون لنبينا معجزة كونية حتى تحمل كتب السيرة والحديث في سبيل نفيها الكذب ويحمل إثباتها أوزار إنحطاط الشعوب الاسلامية ؟

(٢) لم يذكر هنا كتب الحديث بجانب كتب السيرة لا لأنه يصدق مافيها من أحاديث المعجزات بل لأنه ماراجع كتب الحديث عند تحرير كتابه «حياة محمد» وهذا نقص لكتابه مهم وهو في ذلك أيضا مقتف لآثار المستشرقين الذين لايراجعون كتب الحديث عند كتابتهم عن حياة سيدنا محمد لأن مراجعتها تكلفهم عناء كبيرا لايحتملونه مهما كانوا ناشطين كما نبه عليه الفاضل الهندي كاتب السيرة

المستشرقون ، واعتمد عليه الطاعنون على الاسلام ونبيه وعلى الأمم الاسلامية ، واتخذوه تُكأتهم فى مطاعنهم الى يومنا الحاضر » (١)

« وقال ص ١٧ « وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين وكذلك تضافر عمل الاستعمار على تأييد مادس على الاسلام من خرافات لايسيغها العقل ولا يقبلها الذوق » (٢)

وقال فى مقدمة الطبعة الثانية ص ٥٥ : « ولو ان أمة مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين ولم تحتج الى التصديق بمعجزة غير القرآن لما طعن ذلك فى دينها ولا نقص من اسلامها (٣) .

---

(١) طعنات المستشرقين فى الاسلام وفى نبيه تثير سخط معاليه نحو كتب السيرة والحديث ورواة الحديث ولا تثير سخطه نحو الطاعنين أنفسهم

(٢) مايطابق الواقع ان الاستعمار يؤيد التجديد الهدام للاسلام ويعادى الجمود على الاسلام ويعده جمودا فى وجهه يشهد بهذا معاداة الاستعمار لتركيا القديمة ومحاباته لتركيا الجديدة محاباة أوهمت الغافلين من قوة الاستعمار العميقة قوة الترك الكماليين وضعف غالبي الحرب الماضية أمامهم فى غدها

(٣) الايمان بدين الاسلام مع عدم الايمان بمعجزة نبى الاسلام غير القرآن يضر بالدين ويكون نقصا فيه اذا كان سببه عدم الاعتماد على غير القرآن والاعتقاد بأن ما ثبت فى الاسلام إنما يثبت بالكتاب ولا اعتداد بالسنة أو كان سببه عد المعجزات الكونية من المستحيلات العقلية . ومن أبعد مايتصور الى درجة مثيرة للضحك أن يكون معالى هيكل باشا التزم تأليف الكتاب عن حياة سيدنا محمد مستمدا فى ذلك من القرآن فحسب كما قال فى آخر صفحة من مقدمة الطبعة الثانية لكتابه : « وفى مقدمة ما يجب علينا خدمة للحقيقة وللعلم وللانسانية ان نتعمق فى دراسة سيرة النبى العربى تعمقا يهدى الانسانية طريقها الى الحضارة التى تنشدها والقرآن أصدق مرجع لهذه الدراسة وهذا الكتاب لايأتيه الباطل ولا تعلق به الريبة .. فكل ماتعلق بسيرة محمد

فما دام الوحي لم ينزل بها [1] فلا جناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محل تمحيص، فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به وما لم يثبت فله فيه رأيه ولا تثريب عليه، فالايمان بالله وحده لاشريك له لايحتاج الى معجزة [2] ولا يحتاج الى أكثر من النظر فى هذا الكون الذى خلقه الله. والشهادة برسالة محمد الذى دعا الناس بأمر ربه الى هذا الايمان وجنبهم مايزيغ قلوبهم عنه لاتحتاج الى معجزة غير القرآن ولا تحتاج الى أكثر من تلاوة الكتاب الذى أوحاه الله اليه [3]

---

يجب ان يعرض على القرآن فما وافقه كان حقا ومالم يوافقه لم يكن بحق » والمراد مما وافق القرآن ماورد به القرآن وقدعبر به فى كثير من كلماته التى سبق نقلها. ويؤيده ان مرمى هذه المقدمة التى كتبها لطبعة كتابه الثانية وخلاصتها أنه لايرى كتب الحديث وكتب السيرة مرجعا صادقا لاتتعلق به الريبة. فحينئذ يكون من حق امرىء ان يقوم فيرد كل ماورد به كتاب « حياة محمد » تقريبا، بحجة أنه لم يرد به القرآن

(١) يظن معاليه ان الوحي ينحصر فى الكتاب المنزل ولم يوح إلى نبينا غير القرآن مع أن الله تعالى قال فى كتابه: ( وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ) وقال: ( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) فهو لايعرف كون الوحي على قسمين: وحي متلو وهو الكتاب ووحي غير متلو وهو السنة

(٢) اذا كان المانع من الاعتراف بالمعجزات الكونية عدم اعتراف العلم بما يخالف سنن الكون فهذا العلم الذى يخضع لحكمه العصريون من المسلمين لايعترف أيضا بالله وحده لاشريك له ولذا قال معاليه فى أواخر مقدمة الطبعة الأولى لكتابه عن علاقة الانسان بالكون وخالق الكون: « قد يقف العلم بوسائله حائرا امامها لايستطيع أن يثبتها ولا ان ينفيها وهو لذلك لايعتبرها حقائق علمية » ص ٢٢

(٣) إن كان لنبينا محمد ﷺ معجزات غير القرآن وهذا مانعتقده بأدلة من السنة بل من الكتاب أيضا كما سيتبين للقارىء، فلا يجوز للمسلم أن يجازف ويقول: ليس لنبينا معجزات كونية ولا يحتاج الايمان بالله ولا الشهادة برسالة محمد الى تلك

وقال أيضا ص ٥٦ : «لم يذكر التاريخ أن معجزة حملت أحـدا من الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبي العربى على ان يؤمن به [(١)] بل كانت حجة الله البالغة

---

المعجزات ، كأن الله تعالى أظهر تلك المعجزات على يده عبثا مستغنى عنها . ثم لما كان نبينا مبعوثا الى الناس كافة وفيهم أمم غير العرب لاتدرك إعجاز القرآن إلا من أكب منهم على تعلم اللغة العربية وأنفق شطرا كبيرا من عمره فيه وجبل على طبع أدبى سليم ، فلا تصح دعوى استغناء هذه الكثرة العظمى فى تصديق رسالة محمد ﷺ عن معجزاته الكونية التى روتها كتب الحديث أو على الأقل روت بعضها بصحة تفوق روايات تاريخ الأمم المقبولة

ان لسيدنا موسى معجزات يؤمن بها اليهود والنصارى ولسيدنا المسيح معجزات يؤمن بها المسيحيون وهذا قبل أن نزل القرآن وآمنا بهما وبمعجزاتهما نحن المسلمين أيضا ، وليس طريق إيمان اليهود والنصارى بتلك المعجزات الواصلة اليهم بروايات من سلفهم الى خلفهم ، أقوى وأثبت من أحاديث معجزات سيدنا محمد المروية فى كتب الحديث ، فلماذا إذن يؤمن كل من اليهود والنصارى بمعجزات نبيهم ولا نؤمن نحن المسلمين بمعجزات نبينا ؟ فهل كون القرآن أكبر معجزة وأفضلها يمنع من وجود معجزات أخرى لنبينا ﷺ ؟ وهل الغرض من هذا التفريق بين معجزات الأنبياء و بين معجزات نبينا تكذيب روايات المسلمين وتخصيصها بعدم الوثوق أم الغرض تبرئة نبينا من معجزات الأنبياء الماضين التى لايقرها العقل ؟

(١) يرد عليه ان ماسماه التاريخ ان كان مأخوذا من كتب السيرة والحديث فهى تشهد بمعجزات نبينا وان لم يكن مأخوذا منها وكان يذكر معجزات نبينا من غير ذكر من حملته المعجزات على الايمان فلماذا يفضل غير المذكور فى التاريخ على المذكور المنصوص عليه إن كان ذلك التاريخ حائز الثقة ؟ وان كان ماسماه التاريخ لايذكر معجزة ولا من حملته المعجزة على الايمان فكيف يصح له القول بأن التاريخ لم يذكر أن معجزة حملت أحدا من الذين آمنوا بالله ورسوله فى حياة النبي على ان يؤمن لأنه لما لم يذكر

عن طريق الوحى على لسان نبيــه ، وكانت حياة النبى فى سموها هى التى دعت الى الايمــان من آمن منهم وان كتب السيرة لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة محمد قبل الاسراء قد ارتدت عن ايمـانها حين ذكر النبي أن الله أسرى به ليلا من المسجـد الحرام الى المسجـد الاقصى الذى بارك حوله (١) ولم يؤمن سراقة بن جعشم لما اتبع محمدا حين هجرته الى المدينة ليأتى أهــل مكة به حيا أو ميتا، طمعا فى مالهم على رغم ماروت كتب السيرة من معجزات الله فى سراقة وفى جواده (٢) ولم يذكر التاريخ أن مشركا آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات (٣) كما آمن سحرة فرعون لمــا لقفت عصا موسى ماصنعوا »

---

معجزات نبينا لم يذكر أيضا أنها حملت أحـدا على الايمان وليس للمؤلف الحق منطقيا ان يستخرج من هذا حكمه بأن المعجزات لاتحمل أحدا على الايمان

(١) ماذا يريد أن يقول هيكل باشا ؟ فهــل هو ينتقد حادثة الاسراء بأنها فشلت ولم تنفع فى هداية الناس إلى الايمان برسالة محمد ﷺ ثم يتوسل بنفى فائدة المعجزات الى نفى المعجزات ؟ لــكن المعجزات كما قيل انها تنقسم الى معجزة هداية ومعجزة إنذار، منقسمة أيضا الى معجزة تكريم للنبى كما فى الاسراء به الى المسجد الأقصى ثم الى السماوات ولا يلزم ان تــكون المعجزة حتى معجزة الهداية ضامنة للهداية بالنسبة الى كل زمان وكل انسان ، وهذا القرآن مع كونه فى رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح الله صدره للاسلام . فمسألة الهداية بيد الله فهو يهدى من يشاء ويضــل من يشاء، ويهدى من يهديه اذا شاء من غير معجزة ومن غير نبى إلا انه لايعذب الناس حتى يبعث رسولا وبالمعجزات تتم حجته عليهم . وبهذا البيان يسقط ماذكره معاليه هنا جملة

(٢) هو آمن بعد حين وأعطى أسورة كسرى فى فتح إيران

(٣) لامعجزة عند معاليه غير القرآن ومراده من المعجزات التى لم يذكر التاريخ ان مشركا آمن عند واحدة منها برسالة نبينا ، هى المعجزات التى اختلقها التاريخ نفسه فلماذا اذن لم يختلق هذا التاريخ إيمان مشرك على الأقل مع كل معجزة اختلقها ؟ فهل

وقال أيضا ص ٦٢ « ان الفترة التى انتهت بقتل عثمان هى التى تقررت فيها القواعد الصحيحة للحياة الاسلامية العامة وهى لذلك وحدها التى يمكن الاعتماد الثابت اليقينى على ماوقع لمعرفة هذه القواعد الصحيحة (١) أما فيما بعد هذه الفترة فانه على الرغم من ازدهار العلم والمعرفة أيام الأمويين وبخاصة أيام العباسيين قد اندست يد العبث بهذه القواعد الأساسية الصحيحة لتقيم مقامها قواعد تتنافى فى كثير من الأحيان وروح الاسلام تحقيقا لاغراض شعوبية فى أكثر أمرها، وقد كان الاعاجم وكان الذين تظاهروا بالاسلام من اليهود والنصارى هم الذين روجوا لهذه القواعد الجديدة ، غير متورعين فى تأييدهم عن اختراع الاحاديث ونسبتها الى النبي عليه السلام (٢) ولا عن ادعاء أشياء على الخلفاء الاولين لاتتفق وسيرتهم ولا تلتئم ومزاجهم »

---

عجز عن اختلاق الثانى الذى هو أسهل من الأول ؟

(١) استثنى هذه الفترة الأولى التى جمع فيها القرآن لئلا يسرى العبث والتزييف اللذان ادعى استيلاءهما على الفترات اللاحقة وافسادهما لحجية الأحاديث المجموعة فى تلك الفترات، الى القرآن

(٢) هذا القول وهذه الدعوى تشبه قول الشيخ محمد عبده أثناء مناظرته الأستاذ فرح انطون منشئ مجلة «الجامعة» ــ ومقالات المناظرة منشورة فى آخر كتاب الأستاذ المذكور المسمى « فلسفة ابن رشد » تحت عنوان « باب الردود » ــ مامعناه وخلاصته ان الاسلام استعجم فى عهد المعتصم بدخول العناصر الأجنبية عن العرب فيه كالفرس والترك . ولعل معالى هيكل باشا اقتبس هذه الفكرة من الشيخ محمد عبده ثم مزجها بأقوال المستشرقين . وكنت أنا قبل رؤية هذه الأسطر من مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « حياة محمد » أحمل كلام الشيخ ذاك على مغزى سياسى قومى وأقول فى نفسى إنه يغضبه إفلات الحكم من يد العرب حتى لايسره ازدياد قوة الاسلام بدخول عناصر جديدة فيه وانضمامهم الى المسلمين . والآن و بعد أن ازددت علما

انتهى مارأينا نقله من كلمات هيكل باشا فى مقدمة كتابه . وقد أطلنا فى النقل عنه كما أطال هو فى التدليل على أنه أحسن صنعا فى تجريد « حياة محمد » عن المعجزات الكونية ، حرصا منا على أن لا نكون قد عزونا عند النقد عليه مالم يقله أولم يكن هو مراده مما قاله وانما أسأنا نحن الفهم والتفسير وبنينا اعتراضاتنا عليه

فقد انجلى من هذه النقول الطويلة ان معاليه يتوسل الى اسقاط معجزات نبينا ﷺ الكونية عن مرتبة الثبوت باسقاط جميع الأقوال المروية عنه غير القرآن مع الأعمال المنسوبة اليه وجميع ماجرى عليه فى حياته مما ذكر فى كتب الحديث والسيرة ولم يذكر فى القرآن ، عن رتبة الجدارة بالتعويل عليه ، على أن يكون سواء فى ذلك مايتعلق بالمعجزات وما يتعلق بغيرها وان يحق لكل شاك فى صحة ماورد فى تلك الكتب من أولها الى آخرها ، شكه !! (١)

فان صحت لمعاليه هذه الدعوى لزم ان يكون أول واجبه الاحجام عن تأليف هذا الكتاب الذى أسماه « حياة محمد » فمن أى مصدر كتب ما كتبه فيه ان كانت كتب

---

بأفكار الشيخ ومبادئه أذهب فى فهم معنى قوله المذكور مذاهب بعيدة ومرامى عميقة لو سردتها لخرجت عن الموضوع الى موضوع آخر لايمكن توفية حقه إلا بتأليف مستقل

(١) لم تقتصر مطاعن هيكل باشا فى كتب الحديث والسيرة على مافيها من الروايات المتعلقة بالمعجزات كما نبهنا عليه من قبل أيضا ، وما كنا مغالين فى هذا التنبيه ، بل سعى معاليه لالقاء الشبهة فى كل ماورد فى تلك الكتب وان كان مقصوده الطعن فى رواياتها المتعلقة بالمعجزات فحسب ، وكان دافعه إلى اطلاق القول انه لم يجد سبيلا خاصا للوصول الى مقصوده هذا فعم كل مافيها بالطعن ولم يفكر فيما يترتب عليه أولم يبال به . وعليه فارتقى واجبنا فى نقد كلامه من الدفاع عن معجزات نبينا غير القرآن وعن الروايات الواردة بصددها فى كتب الحديث والسيرة ، الى الدفاع عن ركن السنة مطلقا فى الاسلام

السيرة والحديث غير جديرة بالثقة والتعويل [١] وأصحابها متهمين بالأغراض السياسية والدينية ؟ وليس فى القرآن مايكفى من المعلومات اللازمة لتأليف كتاب عن حياة محمد ﷺ مثل كتاب هيكل باشا ، لأن كتاب الله ليس كتاب السيرة والترجمة عن حياة نبيه . فان كان التشكيك المطلق فى صحة ما عزى الى النبى ﷺ من الأفعال أو روى عنه من الأحاديث فى كتب الصفوة من أئمة المسلمين ، غريبا من أى مسلم فهو ممن وضع كتابا عن « حياة محمد » أغرب! فمن أى أصل اقتبس اذن ماضمنه فى كتابه؟ حتى انه لايمكنه أو بالأصح لايجوز له ـ بالنظر الى عقليته المفهومة واضحة من كلماته التى نقلناها وأطلنا فى النقل ـ ان يأخذ من كتب المستشرقين الذين يقدرون لمحمد ﷺ وحياته قدرها ولا يتعدون الحق والانصاف ـ على فرض وجود فريق منهم بهذه الصفة ـ لأن مصادرهم فى كتبهم أيضا لابد أن تنتهى الى كتب الاسلام التى زعزع هيكل باشا ثقة الناس بها وهدم معها كتب الآخذين منها

ولايمنع هذه الزعزعة وذاك الهدم كون معاليه استدرك الأمر فاستثنى الفترة الأولى من تاريخ الاسلام المعتبرة من بدئه الى مقتل عثمان وأولاها الثقة حيث قال ص ٦١ « ففى الفترة الأولى بقى اتفاق المسلمين تاما لم تغير منه روايات الاختلاف على الخلافة ولا غيرت منه حروب الردة ولا فتح المسلمين البلاد التى فتحوا . أما بعد مقتل عثمان فقد دب الخلاف بين المسلمين وقامت الحروب الأهلية بين على ومعاوية واستمرت الثورات ظاهرة تارة خفية أخرى ولعبت الأهواء السياسية دوراً خطيراً فى الحياة الدينية نفسها » اذ لم يجمع أحاديث النبى ﷺ جامعوها ولم يكتب السيرة

---

(١) لو انتقد تلك الكتب بأنها تحتوى روايات وأحاديث لايوثق بها ثم عينت تلك الأحاديث والروايات و بينت أسباب النقد كما يفعله النقاد من علماء الحديث لهان الأمر ولم يقع جميع مافى تلك الكتب تحت الشبهة بحيث لايميز صحيحه ـ ان كان فيها صحيح ـ عن سقيمه

كتابها الا بعد الفترة الأولى ، فلا يكفى فى الوثوق بواقعات التاريخ الاسلامى كون زمان وقوعها قبل مقتل عثمان ، بعدأن كان كتابها وجامعوها من رجال الفترةالثانية المفروض فيهم الغش والتغريض ، ألايرى انالأحاديث والروايات الخاصة بالمعجزات لاريب فى أنها باعتبار مصادرها تتقدم الفترة المشبوهة ومع ذلك لم ينجها تقدمها الزمنىعن تشكيك معاليه فى صحتها

ولا يفتح امام الباشا طريقا لامكان تأليف كتابه بعد أن أقفل الطريق على نفسه ان يوجد هناك أحاديث صحيحة على نسبة حديث واحد فى مائة وخمسين حديثا ورواية واحدة فى مائة وخمسين رواية يمكن الاعتماد عليهما فى وضع كتاب عن حياة نبى الاسلام ﷺ كماذكر الباشا نفسه هذه النسبة واعترف بها عند ذكر اهتمام الامام البخارى وأبى داود بتمحيص الأحاديث ونقدها ، لأن معاليه ذاهب الى اختلاط القلة الضئيلة بتلك الكثرة القاهرة المؤدى الي فساد الجميع ، غير واثق بتمحيص البخارى وانتقائه أربعة آلاف من ستمائة ألف حديث . ولعل معاليه يبنى عدموثوقه هذا على ما ذكره — وقدنقلنا عنه سابقا — من تجريح بعض العلماء لكثير من الأحاديث التى أثبتها جامعوها فى كتبهم على انها صحيحة (١) فمالى المؤلف مدع لفساد الكل حتىالباقىبعد اسقاط مئات الالوفوحتى الباقى بعد تجريح بعض معين من الباقى الأول . فلولم يدع ذلك لوجد أحاديث المعجزات فى البقية الباقية من انتقاء بعد انتقاء ونقد بعد نقد ، وما وسعه ان يجعل كتابه عطلا عن المعجزات

هذا هو النقد العلمى الذى يكرر الباشا ذكره عند ذكر الأسباب الناعية على أحاديث المعجزات ورواياتها والذى يدعى انه أسس كتابه عليه والذى أيضا ينقض هو نفسه أساس كتابه نفسه مع أساس المعجزات وأحاديثها . ويجعله معلقا على الهواء . وخلاصة نقدنا أن كتاب الباشا ينقض نفسه بنفسه . هذا واحد

---

(١) قد بينا فيما سبق معنى هذا التجريح وعدد الأحاديث المنتقدة فى صحيح البخارى ومسلم

## ٢

الثانى هل فكر معاليه فيما يترتب على مافعله حين أثار الشبهة فى صحة الأحاديث النبوية بجملتها وفى أمانة رواتها بجملتهم وفى جدارة كتبها بجملتها بأن يعول عليها ؟ يترتب عليه ويلزمه لزوما عقليا بينا هدم الركن الثانى من الأركان الأربعة التى يعتمد عليها الاسلام أعنى الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وهدم ماينبنى على الثانى من الثالث والرابع . ولنقل جدلا : لينهدم مايلزم انهدامه ان لم يكن مبنيا على أساس صحيح وكانت الحقيقة على خلافه ولا نبال بانهدام صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا بانهدام ركن السنة لابتناء أحكامها التفصيلية عليها وكون الأحاديث مبينة لاجمال القرآن ومتممة له بهذه الحيثية ، فما كنا ندرى ـلولم تكن السنةـ كيف نصلى؟ وكم نركع ونسجد وكيف نزكى وكم يخرج المزكى من ماله ؟ وكيف يحج الحاج ومن ذا يعلم مثلا ان المرأة لاتصلى ولا تصوم أيام حيضها ثم تقضى الصوم ، وأن الصلاة تجب على المريض ولا تجب على الحائض ، والتفاصيل المذكورة فى كتب الفقه عن مسائل هذه العبادات لانجدها فى الكتاب . فيلزم عند اقتصار مدار العمل على الكتاب أن يكون لقائل أن يقول : « هذه الأعمال التى يعملها المسلمون الى يومنا هذا لاتستند الى أساس صحيح ثابت فى الدين » وهذا انهدام صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا [١] ولنقل لينهدم ماينهدم ولا نبال به ، لكن سنة نبي الاسلام ليست كمازعمه وزيرمعارف مصر واهية الأساس لاتقاوم النقد والتمحيص على الطريقة العلمية أو لا يبقى منها بعد النقد

---

(١) عجيب مالقى الاسلام والعلوم الاسلامية بمصر فى زماننا فانى أسمع كثيرا من العلماء والعقلاء فيما يتبرمون بمناقشات المتكلمين وخوضهم فى مباحث الفلسفة مدعين الغنى عنها فى الاشتغال بمطالعة السنة، مع أنك ترى ماطرأ على مكان السنة بمصر من اعتداء المؤلفين العصريين بكتبهم عليها ومن توانى الجمهور من علماء الدين فى كبح جماح المعتدين وتنبيه الغافلين بل ومن اشادة البعض من العلماء بتلك الكتب

والتمحيص شيء تبنى عليه الأحكام، بل الطريقة المتبعة فى الاسلام لتوثيق الأحاديث النبوية أفضل طريق وأعلاها لاتدانيها فى دقتها وسموها أى طريقة علمية غربية اُتبعت فى توثيق الروايات . حسبك أن نقد الرجال أى رجال الحديث أصبح علما مدونا فى الاسلام له كتب خاصة لاتستوعبها المجلدات ، نذكر منها «تهذيب الكمال» للمزى وعليه شرح علاء الدين المغلطانى فى ثلاثة عشر مجلدا و«تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر فى عشر مجلدات يذكر فى أوله انه ألفه فى ثمانية عشر عاما و « الفاصل بين الراوى والواعى» للرامهرمزى و « ميزان الاعتدال » للذهبى و « لسان الميزان» لابن حجر . وقد ذكرنا من قبل أسماء الكتب الجامعة لتراجم ثلاثة عشر ألفا من الصحابة وشهادة الدكتور « اشبرنكر » الألمانى بامتياز الأمة الاسلامية بين أمم الدنيا فى الاهتمام بتمحيص الروايات واحاطة الموضوع من أوسع نطاقه . ففى صحيح البخارى مثلا ألفان وستمائة واثنان من الأحاديث المسندة سوى المكرر انتقاها من مائة ألف حديث صحيح يحفظها . وقريب من ألفى راو اختارهم من نيف وثلاثين ألفا من الرواة الثقاة الذين يعرفهم . وكتاب البخارى البالغ أربع مجلدات كبيرة يبقى بعد حذف أسانيده على حجم مجلد واحد متوسط الحجم ، فهل سمعتم وسمعت الدنيا أن كتاب تاريخ فى هذا الحجم يروى ما فيه سماعا من ألفى رجل ثقة يعرفهم المؤلف وغيره من أهل هذا العلم بأسمائهم وأوصافهم ، على أن يكون كل جملة معينة من الكتاب مؤلفة من سطر أو أكثر أو أقل تقريبا سمعها فلان وهو من فلان الى ان اتصل بالنبى ﷺ فيقام لكل سطر من الكتاب تقريباً شهود من الرواة يتحملون مسؤلية روايته ؟

ولم يتأخر جمع الأحاديث الى عصر المأمون كما ادعاه الباشا فيما سبق تمديدا للزمان الحائل بين مصدرها وجمعها، بل جمع فى عهد عمر بن عبد العزيز المتوفى فى ١٠١ وكان قد أمر فى هذا الشأن بتشكيل دواوين يبلغ عددها ألوفا فجمع أربعة آلاف حديث

تتعلق بتفاصيل الأحكام الشرعية، وخمسمائة حديث تتعلق بأصولها وكان الخليفة نفسه من كبار المجتهدين والمحدثين . ولم يتأخر التأليف فى الحديث أيضا الى عصر المأمون فقد كان ابن شهاب الزهرى المتوفى فى ١٢٢ مؤلف أول كتاب فى زمن عمر بن عبد العزيز وكان ابن جريج فى مكة المتوفى فى ١٥٠ وابن اسحق فى ١٥١ ومالك فى ١٧٩ فى المدينة وسفيان الثورى فى ١٦٠ فى الكوفة وحماد بن سلمة ١٦٧ أوربيع بن صبيح فى ١٦٠ و سعيد بن أبى عروبة فى ١٥٦ فى البصرة والأوزاعى فى الشام متقدمين فى جمع الأحاديث

نعم قد يوجد بين الأحاديث أحاديث موضوعة وأحاديث منكرة وأحاديث ضعيفة ـ ويوجد شىء منها فى أحاديث المعجزات أيضا ـ لكن هناك مع كل ذلك أحاديث متواترة وأحاديث مشهورة وهناك أخبار آحاد متواترة المعنى وأخبار آحاد فى رتبة الصحة وأخبار آحاد فى رتبة الحسن . وهناك أحاديث مرفوعة وأحاديث مرسلة [1] فأئمة الحديث أنفسهم ورجالهم الثقات رتبوا الأحاديث الواصلة اليهم بأسانيد مختلفة على هذه المراتب وميزوا زيوفها من صحاحها وكان الرواة المتهمون بالكذب أو عدم الدقة مملومين عندهم فاذا دخل واحد من المتهمين أو المجهولى الحال فى سلسلة الاسناد

---

(١) وقد قال رسول الله ﷺ (لاألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمرى مما أمرت به أونهيت عنه فيقول لاأدرى ماوجدنا فى كتاب الله اتبعناه) رواه الشافعى فى الام ، وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن أبى رافع مولى رسول الله وفى رواية الترمذى (الا انى أوتيت القرآن ومثله معه ألايوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه) وفى رواية مقدام (ألاوان ماحرم رسول الله كما حرم الله) وهذا الحديث معدود من معجزاته ﷺ المتعلقة باخباره عن الغيب قال الفاضل الهندى كاتب السيرة المارة الذكر من قبل : « ان هذا الاخبار كما ينطبق على المعتزلة القدماء ينطبق أيضا على طائفة حديثة من الهنديين والمصريين لايعولون على الأحاديث ويسمون أنفسهم أهل القرآن »

لأى حديث أخل برتبته من القبول . واليوم أصبحت مرتبة ثبوت كل واحد من الاحاديث المضبوطة فى جوامع الكتب المحصاة بمئات الالوف متعينة عندنا تعينا لامحل للريبة فيه . فالذين ينظرون من بعيد الى مايجرى فى علم الحديث الاسلامى من النقد الحر والرقابة الدقيقة و يطلعون منه على ان علماء الحديث لايقيمون فيما بينهم لبعض الاحاديث وزنا . ويقيمون لبعضها وزنا ناقصا ، ليس من الانصاف ان يتخذوه وسيلة طعن مطلق فى قيمة الحديث وموقعه بين أدلة الشرع الاسلامى . ولولا ان علماء الحديث أنفسهم لم ينقدوا مايستحق النقد من الاحاديث لما أمكن المستشرقين ان يعيبوا صحاحها بعتلاتها . فنقد علماء الحديث من تلقاء أنفسهم ما يستحق النقد من الأحاديث لا يكون نقيصة لصحاحها تزيل الثقة عنها بل مزية تجعلها جديرة بالثقة وهذه الصحاح ينبنى عليها أكثر أحكام الشريعة الاسلامية من عباداتها ومعاملاتها . ومن المؤسف المؤلم للمسلم ان يرى بلادا اسلامية اجترئ فيها على استبدال قوانين الأمم غير المسلمة بقوانين شريعتها ، ولم يكفها الغاء العمل بشرعة الاسلام حتى زيد فى الاجتراء وطعن فى تلك الشريعة بدعوى عدم استنادها من ناحية السنة على أساس متين وقصر الأساس الصحيح على الكتاب ، مع ان العمل ببعض الكتاب مهجور أيضا فى تلك البلاد. فلم يبق الا دور اهمال البعض الباقى ثم الطعن فى أساس الكتاب[1]

---

(١) وانى لاأثق باخلاص العصريين من الكتاب والعلماء الذين يقصرون اهتمامهم على القرآن و يهملون أسس الاسلام الأخرى ، لاأثق باخلاصهم فى اهتمامهم بالقرآن زيادة على عدم وثوقى بكفايتهم العلمية التى توجب عليهم تقدير الأسس الأخرى فقد قرأت مقالة فى مجلة « الرسالة » بعنوان « القرآن والمسلمون » للشيخ العصرى محمد شلتوت وكيل كلية الشريعة وقرأت معها مقالة لصاحب المجلة الأستاذ الزيات يشيد بمقالة الوكيل و يعدها انبعاث الأزهر ورأيت مقالة الشيخ المثنى عليها تغفل ذكر ماعدا القرآن وتنحى باللوائم على كتب التفسير المعروفة المتداولة فى أيدى العلماء مدعيا أن أهل التفاسير =

= الماضية مافهموا القرآن . وهذا القول منه يتضمن القدح في الأئمة المجتهدين الذين استنبطوا الأحكام من القرآن ، بل ان التفاسير القديمة ينتهى طرفها الأول الى تفسير الصحابة والرسول ﷺ

ولعل الشيخ القادح لايعجبه الامثل تفسيره فى مقالة سابقة له قائلة بأن القرآن جارى عقيدة العرب فى تصوير الشيطان كشخص ذى حياة مع كونه فى الحقيقة عبارة عن نزعات الشر المنبثة فى العالم . فليس ببعيد ان يلغى فى التفسير الجديد الذى يعجبه كثيرا من الأحكام المنصوص عليها فى القرآن بادعاء كونها مجاراة لأهواء العرب فى عهد الرسول القريب من عهد الجاهلية ، ويمكننى ان أذكر اباحة تعدد الزوجات مثالا لهذه الدعوى المنتظرة من الشيخ

والحق ان القرآن الذى هو كلام الله لايمكن ان تتصور فيه مجاراة الأهواء ، وانما للعصريين أنفسهم أهواء يشذون بها عن المسلمين ويريدون ارهاق بعض آيات القرآن عليها وهم فيما عدا ذلك من الآيات التى لاصلة لها بأهوائهم الشاذة عاجزون عن كتابة سطر يستحق ان يسمى تفسير القرآن من غير مراجعة كتب التفسير القديمة التى ادعى الشيخ ان أصحابها مافهموا القرآن، أو مراجعة مابقى منها فى ذاكرتهم من تلك الآثار التى ورثوها معنا من العلماء الماضين فشكرناهم وكفروا

وآخر ماأقول فى الذين يتظاهرون بحصر اهتمامهم فى القرآن نائين بجانبهم عن الحديث والفقه مثيرين الشك فى صحة الأحاديث ومدعين كون الفقه عبارة عن آراء الفقهاء ثم مستهينين من القرآن بتفاسيره القديمة فلم يبق الا متن القرآن ، آخر ماأقول فيهم: قد كذب القرآن فى هذا البلد قبل بضع عشرة سنة تصديقا لبعض أعداء الاسلام من المستشرقين كما كذبت السنة أخيرا لانكار المعجزات فى حياة محمد ﷺ تصديقا للبعض الآخر من الأعداء . وعند ذلك انبرى من انبرى من كتاب المسلمين وعلمائهم للدفاع عن القرآن وصال على المعتدى . ولا أدرى لعدم كونى يومئذ بمصر هل بين المدافعين الصائلين الشيخ شلتوت أو الأستاذ الزيات أو الدكتور هيكل مؤلف « حياة محمد » ومخليها عن المعجزات غير القرآن

•

وكيف يخطر ببال مسلم ان لا يكون ما فى صحيح البخارى الذى كان المسلمون الى هذا الزمان يعتبرونه أصح الكتب بعد كتاب الله ، أو صحيح مسلم أو موطأ الامام مالك أومسند الامام أحمد بن حنبل أو مسانيد الامام أبى حنيفة أو الامام الشافعى؛ صحيحا حقيقة يعول عليه على الأقل كما يعول على كتب التاريخ المعتبرة عند علماء الغرب [١] أو أن تكون أمانة أئمة الاسلام المذكورين دون أمانة المؤرخين الغربيين واخلاصهم للحق وتضحيتهم فى سبيله دون اخلاصهم وتضحيتهم أو لايكون بين عشرات الألوف من الأحاديث المروية فى كتبهم — ومسند الامام أحمدوحده يحتوى من الأحاديث ما يقرب من أربعين ألفا ـ حديث واحد صحيح تثبت به واحدة من معجزات محمد ﷺ الكونية ؟

عجيب جدا أن يكون المسيحيون صعدوا بنبيهم الى درجة الألوهية استنادا الى معجزاته الكونية ويكون المسلمون استكثروا لنبيهم معجزة كونية واحدة تدل على نبوته ولو بالنظر الى الذين لايقدرون معجزة القرآن حق قدرها كالمستشرقين والعامة من الناس . فهل يظن منكرو المعجزات الكونية منا لمحمد ﷺ أنهم يستجلبون بانكارهم هذا اعجاب المستشرقين نحونبينا ؟ كلا ، وانما يعجب ذلك الذين ينكرون النبوات من الغربيين . والذين لاينكرون النبوات منهم يبقى نبى الاسلام عندهم بفضل معالى هيكل باشا من غير معجزة ، لأنهم لايقدرون اعجاز القرآن الذى لايفهمونه . وفضلا عن هذا فمعاليه يلطخ سمعة كبار المسلمين الذين كانوا وسائط بلاغ لهعن نبيهم ، بوصمة شبهة الكذب . فاذا كان الحق يقال مهما كان مرآ فما فعل هيكل باشا فى

---

(١) نعم أنا لاأدعى لاؤلئك الأئمة الذين لاشك فى انهم أكثر خوفا من الله من مؤلفى الغرب وانه لاضمان أقوى لتجنب الكذب من مخافة الله ، لاأدعى لهم العصمة من الخطأ، والأمانة والعدالة غير العصمة مع ان كتب المؤرخين الغربيين لم تمحص ولم تغربل عليهم بعشر معشار ماغربلت كتب أئمة الاسلام بأيدى أئمة الاسلام الآخرين

مقدمة الطبعة الثانية لكتابه من اثارة الشبهة فى صحة أحاديث الرسول بجملتها [1] للتوصل الى اثارة الشبهة فى صحة أحاديث المعجزات ، ومن التنازل عن ثانى العقلين الرئيسيين من معاقل الاسلام الأربعة ألا وهو السنة ، فى سبيل التنازل عن معجزات نبي الاسلام الكونية ، جناية لا تغتفر ، وتأييد مشيخة الازهر لهذه الجناية أدهى وأمر . فكيف يتفق هذا التأييد وتدريس الحديث فى الأزهر بل تدريس أصول الفقه والفقه أيضا بمذاهبه الاربعة حال كون أكثر أحكامها مستندة الى السنة ؟ فهل الاستاذ الأكبر المراغى يحاول بتقريظ كتاب الدكتور هيكل باشا وتقديمه للمسلمين تهيئة جو ملائم لالغاء كلية الشريعة ؟

ومن دواعى الأسف ان كتاب معاليه الذى تخاطف نسخه الراغبون فى قراءته واقتنائه من المسلمين بمصر حتى طبع ثلاث مرات فى أربع سنين كان يكيل فى مرأى ومسمع من أولئك القارئين المسلمين طعنات تزييف على كتب كانت تعتبر من يوم تأليفها الى هذا الزمان أصح الكتب فى الاسلام بعد كتاب الله مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وموطأ مالك [2] وغيرها من السنن والمسانيد ، فلم تعل فى مصر ولا فى غير مصر أصوات دفاع عن كرامة هذه الكتب المباركة عند المسلمين ولو بقدر الاصوات المرتفعة من النواب المسلمين فى برلمان مصر دفاعا عن كتاب «برناردشو» الانجليزى الذى كان يدرس فى الجامعة المصرية والذى فيه شتم نبينا وسيدنا محمد ﷺ أقبح شتم، ولا بقدر صوت الاستاذ الأكبر المراغى شيخ الجامع الازهر والشيخ رشيد رضا صاحب المنار دفاعا عن كتاب هيكل باشا الطاعن فى كتب الحديث [3]

---

(١) بل التشكيك فى كتب الحديث والسيرة على الاطلاق يؤدى الى التشكيك فى القرآن أيضا لأن تلك الكتب هى المرجع أيضا فى مسألة جمع القرآن وما التزم فيه من الدقة فى ضبط الأصل

(٢) أصح الكتب بعد كتاب الله على قول الامام الشافعى موطأ مالك، وهذا لا ينافى قول الآخرين بأن أصحها بعد القرآن صحيح البخارى لكون البخارى وصحيحه متأخرين عن الامام الشافعى

(٣) لا يقال ان الطعن فى كتب الأحاديث المؤدى الى انهيار أساس مهم من أسس الشريعة

٣

الثالث ان المانع من اثبات المعجزات الكونية فى « حياة محمد » على مايظهر من اعتذار مؤلفه فى مقدمة الطبعة الثانية هو مخالفة تلك المعجزات للقرآن. وربما تراه يعبر عن هذا المانع بعدم ورود تلك المعجزات فى القرآن ، لكن مخالفة القرآن شىء وعدم ورود الذكر فيه شىء آخر . فان صح الأول صح كونه مانعا الى حد ما . وليس الثانى بمانع ، صح أولم يصح! اذ القرآن لم يكن كتاب سيرة أوتاريخ لحياة محمد ﷺ كما انه لامعنى لتعليق صحة مافى كتب الحديث والسيرة من معجزات نبينا الكونية ، بشرط كونها واردة الذكر فى القرآن فتكون تلك الكتب تكرارا لما فى القرآن مستغنى عنها

فالمقياس الذى يرى معاليه حتما على المسلمين تطبيقه على الأحاديث المنسوبة الى نبيهم ليعلموا صحاحها من زيوفها ثم يعنفهم باهماله مضطرب بين أمرين يحسبهما معاليه أمرا واحدا فيذكر أحدهما تارة والآخر تارة أخرى وتارة يذكرهما معا وتارة يزيد عليهما مقياسا ثالثا . وقد جمع الثلاثة فى قوله :

« ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبى العربى فى جملتها وفى تفصيلها دون استثناء لأى نبأ روى عنها لايتفق وما ورد فى القرآن الكريم فما لم يكن مما تجرى به سنة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه ... »

فالأمران اللذان يذكرهما ويحسبهما أمرا واحدا هما عدم اتفاق نبأ الحديث مع القرآن

---

الاسلامية وقع من مؤلف «حياة محمد» فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ، تبريرا لاهماله المعجزات المذكورة فى كتب الحديث والسيرة، وجوابا عن الاعتراضات الموردة على المؤلف بسبب هذا الاهمال ، لكن تقريظ فضيلة الأستاذ الأكبر انتشر مع الطبعة الأولى وتقدم تلك الطعون الملحقة بالطبعة الثانية . لانا نقول ان تقريظ فضيلته قبل الطبعة الثانية والطعون الملحقة بها لم يكن مقدما على الاهمال الظاهر فى الطبعة الأولى الذى ورط صاحبه فى الطعون المنتشرة مع الطبعة الثانية . على انه كان فى استطاعة فضيلته ان يسحب تقريظه لكتاب الدكتور هيكل باشا بعد أن رأى طعونه الهدامة المصوبة نحو السنة فى الطبعة الثانية والثالثة، فلم يفعل بل أذن فى نشر تقريظه مع كل طبعة

وعدم ورود ذكره فيه . وقد عرفت أن ثانيهما حشو مفسد والمانع الثالث المزيد عدم كونه مما يجرى به سنة الكون ، وربما يعبر معاليه عن هذا المانع بكونه مما لا يقره العقل ويحسبهما أيضا واحدا مع ان المخالف لسنة الكون أولسنة الله شىء ومالا يقره العقل أومالا يصدقه العقل أومالا يسيغه العقل أومالا يدخل فى معروف العقل أو ما يبعد عن مقتضى العقل أو مالا يقبله العقل ، شىء آخر . وقد استعمل كل هذه التعبيرات فى تارات: فاستعمل كلا من الخمسة فى أمكنة مختلفة من مقدمة الطبعة الثانية والأولى لكتابه واستعمل التعبير السادس فى صلب الكتاب ص ١٤٢ فهناك أمور أربعة يذكرها معاليه كأنها أمران ويعتبرها موانع لصحة الحديث : مخالفته للقرآن ؛ عدم ورود ذكر ما فيه ؛ فيه ، مخالفته لسنة الكون ، مخالفته للعقل . وليس الأول متحدا مع الثانى ولا الثالث مع الرابع . وليس الثانى بمانع كما عرفت ولا الثالث وهو المخالف لسنة الله أوسنة الكون، اذ يمكن أن يكون هذا المخالف معجزة وهو المطلوب، ولا يلزم ان يكون المخالف لسنة الكون أوسنة الله مخالفا للعقل أى محالا ، ومن هذا تعد المعجزة من خوارق العادة لا من خوارق العقل والا لما أمكنت ولما وقعت . لكن الذين لا يميزون خارق العادة من خارق العقل ويزعمون المعجزة التى هى من خوارق العادة وان شئت فقل من خوارق سنة الكون ، خارقة للعقل أيضا ، ينفونها قائلين باستحالتها ، وهذا الزعم منهم ناشىء من زعم آخر هو عدم امكان خرق القوانين الطبيعية المقررة فى العلم الحديث المثبت المبنى على التجارب الحسية ، وهذا قول الملاحدة المادية وهذا أيضا هو الداء المزمن الذى استولى على عقول كثير من مثقفى العصريين والذي وقفنا مجهود كتابنا الكبير الذى هذا الكتاب جزء منه ، على معالجته

وأعجب شىء من المسلم عدم اقلاعه عن دعوى مبنية على نفى وجود الله وقدرته المسيطرة على الكون . فمهما كان العلم المادى علما مثبتا ومهما كان ظنهم فى العلم المثبت المبنى على التجربة انه لا يقبل التغيير والتعديل ولا يقر المعجزة ، فالعقل يفارق هذا العلم

المنقلب جهلا ويقر المعجـزة أى يقول بامكانها . وقد أطلعنا القارئ فى أوائل هـذا الـكتاب الصغير على قيمة القوانين المثبتة بالتجارب زيادة على ما كتبنا فيما تقدم (من الـكتاب الكبير)

ومعالى مؤلف كتاب « حياة محمد » النافى لمعجزات نبينا محمد ﷺ الكونية لوعلم ان نفاة المعجزات من الغربيين بناء على استحالتها عقلا ، انمـا ينفونها ويدعون استحالتها لعدم اعترافهم بوجود الله وبوجود أنبيائه ، لما نفى المعجزات عن حياة محمد ﷺ وعلى الأقل لما بنى نفيها على أنها لايقرها العقل. والأسف ان الذين استشارهم من شيوخ المعاهد مكاشفا لهم ماينتهجه فى كتابه ، شجعوه عليه بدلا من ان ينبهوه الى ان المعجزات لاتنافى العقل . ويتصاعد الاسف تجاه فضيلة الاسـتاذ الاكبر فى تقريظ كتاب هيكل باشا ، بعد أن قال: «لم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة الا فى القرآن وهى معجزة عقلية » : « وما أبدع ماقال البوصيرى :

لم يمتحنا بما تَعيَى العقولُ به حرصا علينا فلم نرتَب ولم نَهِم

ومعنى قول البوصيرى هذا بالنظر الى اعجاب فضيلته به ان محمدا ﷺ لم يأت أمته بمعجزات لاتستسيغه العقول كما أتى غيره من الانبياء صـلوات الله عليهم و يعنى بها المعجزات الكونية ، مع أنا اذا فرضناهذا المعنى لذلك القول كان ماأتى به البوصيرى القائل لهذا القول والقائل فى نفس القصيدة مثلا :

جاءت لدعوته الاشجارُ ساجدةً تمشى اليه على ساق بِلا قَدَم

والقائل :

أقسمتُ بالقمر المنشـقّ ان له من قلبه نسبةً مبرورةَ القسم

بل القائل :

وكل آى أتى الرسل الـكرامُ بها فانما اتّصلت من نوره بهم

من الأقوال المتناقضة ، هو ما تعيي العقول به ، لاماأتى به الأنبياء من المعجزات

الكونية . ولقد أغرب فضيلته فى استشهاده ببيت شعر أخطأ فى فهم معناه [1] وتغاضى لتمشية خطائه عن سائر أبيات القصيدة وهو بصدد الافتاء المؤيِّد لاهمال معجزات نبينا ﷺ غير القرآن فى كتاب عن حياته، لعدم اعتماد مؤلفه على كتب السيرة والحديث التى تلصق بها تلك المعجزات . فكيف يستشهد ببيت شعر للبوصيرى المغلوط فى فهم معناه حين لا يُستشهد بالأحاديث المذكورة فى كتب الحديث ؟ مع ان بيت البوصيرى برىء مما توهم له الاستاذ الأكبر من المعنى، وقرينة البراءة أبياته الكثيرة الأخرى التى أوردنا آنفا بعض نماذج منها ، وانما معناه أن الاسلام لايوجد فيه مالا يقبله العقل كما وجد فى بعض الأديان المحرفة عن أصلها . أو معناه أن نبينا بعث بالحنيفية السهلة السمحة كما ورد فى الحديث وكما جاء فى القرآن ناعتا له ( ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم )

فان اعترض معترض بكون المقارنة فى التوجيه الاول لا تقع بين الاسلام وغيره من الأديان المنزلة لعدم صحة اعتبار ماحرف منها دينا ، وبكون مافى الأديان السابقة من المشاق على التوجيه الثانى مما تعيى به الابدان لامما تعيى به العقول [2] ان اعترض علينا فى التوجيهين ولم يجد غيرنا توجيها للبيت أحسن منهما فاللازم حينئذ حمل التبعة تبعة امتناع البيت عن التوجيه المعقول على عاتق قائله أعنى البوصيرى رحمه الله، اذ ليس من الواجب على أحد أن يجد تفسيرا حسنا لبيت البوصيرى ان لم يكن هو أحسن انشاده . ولا يجوز انكار معجزات نبينا الكونية طلبا لتقويم بيت شعر ، ثم لايجوز

---

(١) وقد ذكرنى هذا ما سبق لفضيلته انه أخطأ فى فهم أقوال الفقهاء عند ترويج فتنة ترجمة القرآن الحادثة فى تركيا ، حيث كتب مقالة فى «السياسة الاسبوعية» و«الاهرام» واستدل على رأيه فى الجواز بأقوال العلماء المانعين كما يظهر ذلك من مراجعة كتابى «مسألة ترجمة القرآن» ص ٢٣ــ٢٤ الذى نشرته قبل عشر سنين وانتقدت فيه مقالة فضيلته وغيره

(٢) ويمكن أن يعد مافى الانجيل من الآية المشهورة الآمرة بتحويل الخد الايسر لمن ضرب الخد الايمن ظلما ليضربه أيضا ، مما تعيي به عقول الرجال الأحرار

مرتين أن يقال عن بيت مثله مضطرب المعنى : ماأبدعه ! كما قال فضيلة الاستاذ

وكما أغرب فضيلة الاستاذ الاكبر أغرب معالى مؤلف الكتاب فى الاتفاق مع فضيلته على الخطأ فى فهم البيت وفى نسيان ماعداه من أبيات البردة، ولم يكتف بتقبل هذه الفتوى المبنية على خطأ ظاهر فى الفهم بل جعل ثمن الشكر لفضيلته أن جعله فى عداد الائمة المدققين مثل الغزالى ومحمد عبده

ومهما وجد فى أقوال الامام الغزالى ما ينتقد عليه فليس فى الامكان أن يكون له قول يتخذه الدكتور هيكل سندا فى إنكار معجزات نبينا محمد ﷺ غير القرآن . أما الشيخ محمد عبده الذى أزداد اطلاعا عنه بعد مجيئى مصر مازدادت أيامى بها، على ضلع منه فى حدث مدبر ضد الاسلام كمساعدته الخفية لقاسم أمين فى إثارة فتنة السفور بمصر[1] أو على شذوذ مريب كقوله المنقول سابقا فى تعريف النبى أو على مجازفة تشف عن ضعف بصيرته فى العلم كإنكاره لبطلان التسلسل ونسبة كل ما قيل أو يقال فى إبطاله إلى الأوهام الكاذبة وقد سبق تفصيله فى الباب الأول والثانى من الكتاب الكبير ، والشيخ المراغى الذى كتب كلمة التحبيذ فى صدر كتاب لايعترف لنبينا بمعجزة غير القرآن ويكذب ماجاء عنها فى كتب السيرة والحديث ويسعى لرفع الثقة بتلك الكتب فى مسألة المعجزات وغيرها ويحسن ظنه بكتب المؤرخين الغربيين كما سبق منا فى مقدمة الكتاب الكبير نقل كلمات عن كتاب معاليه تشهد بذلك فى حين انه يسىء ظنه بكتب أئمة المسلمين ـ كتب كلمة التحبيذ والتقريظ على هذا الكتاب ورأى رأى مؤلفه فى نفى المعجزات الكونية وذهب من قول البوصيرى:

---

(١) وبالنظر الى قول الشاعر المشهور على جارم بك فى قصيدته المذاعة بالراديو من محطة الحكومة ليلة الاحتفال بذكرى قاسم أمين الثلاثين :

كنت فى الحق للامام نصيرا والوفى الصفى من أصحابه

لم يكن قاسم هو مثير الفتنة والامام مساعده بل الأمر بالعكس

لم يمتحنّا بما تعيَى العقولُ به   حرصا علينا فلم نَرتَب ولم نَهِمِ

الى انه أيضا على رأيهما غافلا عن أقوال البوصيرى من قصيدته فى غير هذا البيت ، وباعد بين الدين والعلم وبين الفقه والدين [١] فهذا الشيخ وذاك الشيخ لايعدهما من أئمة الاسلام المدققين الا من لايعرف الاسلام وأئمته المدققين

ومما يمنع كون معنى بيت البوصيرى كما فهمه الاستاذ المراغى فضلا عن القرائن المانعة له من أبيات فى نفس القصيدة أنه لو كان معناه أن نبينا لم يأت أمته بمعجزات تعيى العقول فى الاعتراف بها كما أتى غيره من الأنبياء ، لكان البوصيرى قائلا باستحالة معجزاتهم عند العقل ومنكرا لوقوعها فى أزمنتهم إذا المستحيل عند العقل وهو الذى يعيى العقل دون الاعتراف به، لايقع ولا يمكن وقوعه ولذا أنكر الأستاذ فريد وجدى القائل باستحالة المعجزات عقلا وقوعها فى الماضى واعتبر جميع آيات القرآن المنبئة عن معجزات الأنبياء إلى المتشابهات . لكن البوصيرى رحمه الله لا يتصور أن يكون فى هذه العقلية الظاهرة البطلان . فهل الأستاذ الأكبر الذى فسر قول البوصيرى بغير ما أراده قائله ، فى عقلية رئيس تحرير « مجلة الأزهر » فى عدم التمييز بين خارق العادة وخارق العقل ؟

بقى أنه لا يقال عن فضيلة الأستاذ الأكبر بعد غض النظر عن خطائه الفاحش فى فهمه لبيت البوصيرى الذى استشهد به ، أن فضيلته ماأنكر فى تعريفه بكتاب هيكل باشا ومجازفته فى كيل التقريظله ، معجزات نبينا غير القرآن وانما ادعى انحصار معجزاته القاهرة فى القرآن وعنى بها معجزته القطعية التى يكفر منكرها . لأنا نقول بعد غض النظر ثانيا عن معجزاته غير القرآن الثابتة بالسنن المتواترة تواترا معنويا [٢]

---

(١) تكلمنا على الأول فى مقدمة الكتاب (الكبير) وسنتكلم على الثانى فى الباب الرابع منه

(٢) قال المحقق الدوانى فى شرح العقائد العضدية ان معجزات نبينا المغايرة للقرآن وان لم يتواتر كل منها فالقدر المشترك بينها متواتر كشجاعة على وسخاوة حاتم . وقد صرح القاضى عياض أيضا فى الشفاء بهذا التواتر

بل الثابتة بالقرآن : فهل كل ما كتبه مؤلف كتاب «حياة محمد» فى كتابه مما يكفر منكره حتى يرى معجزاته غير القرآن لم تبلغ فى الثبوت هذا المبلغ فيخلى عنها كتابه ويقر له فضيلة الأستاذ الأكبر بهذا الاخلاء على تلك المعذرة ؟ فان كان فى المعجزات غير القرآن ماثبت ثبوتا يحكم على منكره بالضلال ان لم يحكم بالكفر — ولا شك فى وجود مثله فيها — فهل لايكفى عيبا على كتاب هيكل باشا أن يخلو عنه وعلى الأستاذ الأكبر ان يحبذ هذا الضلال ؟ ومافعله الباشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه من سعيه لزعزعة ركن السنة فى الاسلام وسكوت فضيلة الأستاذ مادح الكتاب على هذا السعى لاشك فى أنه فوق الضلال

٤

الرابع ماذا هو الباعث على اثبات معجزة عقلية وهى القرآن لمحمد ﷺ ونفى كل معجزة كونية عنه (١) وماذا هو الباعث على محاولة رفع الثقة بعامة الأحاديث النبوية فى سبيل نفى الثقة بأحاديث المعجزات ؟ فهل الباعث على ذلك ضعف مكان السنة حقيقة رغم كونها من أهم الأركان الأربعة التى تستند عليها الشريعة الاسلامية ، أم الباعث كون المعجزات الكونية لايقبلها العقل مطلقا أو لايقبلها العقل العصرى المبنى على التجربة ؟ وقد بينا فى مواضع عدة من الباب الأول وفى أول هذا الباب (الثالث) من الكتاب (الكبير) حدود التجربة وحدود العقل وأثبتنا أن العقل الذى ينظر الى المعجزة الكونية نظره الى المستحيل والذى تحكم عليه التجربة ولا

---

(١) كان فضيلة الأستاذ المراغى قال فيما كتبه تأييدا لاغفال المعجزات الكونية فى كتاب «هيكل باشا» «لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة الا فى القرآن وهى معجزة عقلية» وقد يضيفون الى صفة «العقلية» «الانسانية» كما قال هيكل باشا ص ٥٥ «مقارنة النبى العربى بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق فهو خاتم الأنبياء والمرسلين وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله الى الناس كافة ، لذلك أراد ان تكون معجزة محمد انسانية عقلية»

يحكم هو على التجربة ، انما هو عقل الذين لايعرفون العقل وينكرونه وينكرون الحياة والروح وينكرون خالق العقل والحياة لعدم انقياد كل من هذه الأمور للتجربة ولا يمكن أن يكون مؤلف كتاب «حياة محمد» المؤمن بالله وكتابه المنزل على نبيه، منهم

لكن من الواجب ان يعرف معالى المؤلف ان منكرى المعجزات البانين انكارها على دعوى استحالتها ، لايفرقون بين المعجزات الكونية والعقلية ويرون الكل مخالفا لسنة الكون كما يرون المخالف لسنة الكون محالا . فمتى بلغ أى شيء مبلغ المعجزة والخارقة خالف سنة الكون وخرقها والا لم يكن معجزة الا فى تعبيرات الأدباء المتجوزين ، حتى ان النبوة والرسالة بمعناهما المعروف عند المليين معجزة مخالفة لسنة الكون ، فمن يقول باستحالة المخالف لسنة الكون يقول باستحالة النبوة والرسالة أيضا ، الا أن تكون من قبيل ماشاع فى ألسنة الكتاب المصريين من رسالة المرأة ورسالة الرجل ورسالة «الجامعة» ورسالة «الأزهر» ورسالة الصحف ورسالة المجلة أو مجلة «الرسالة» . ومن غرائب العصر الذى يسود فيه عدم الاعتراف بالمعجزة والنبوة والرسالة كثرة استعمال هذه الكلمات وان كانت فى غير مواضعها، ولعل مرمى المستعملين تنزيل هذه الأسماء من مسمياتها القديمة المستحيلة الى مسميات جديدة معقولة ! !

فلا فرق اذن بين المعجزة العقلية والمعجزة الكونية ، فكلاهما محال عند الملاحدة القائلين باستحالة المخالفة لسنة الكون وكلاهما ممكن الوقوع عقلا عند المسلمين بحول الله وقوته . فلو اعترفت الطائفة الأولى بوجود الله ووجود أنبيائه لقالت هى أيضا بامكانهما من غير فرق ولا وجه للتفريق بينهما باثبات المعجزة العقلية ونفى المعجزة الكونية ، الا أن يراد من المعجزة العقلية مايكون منشؤه التفوق العقلى المنقطع النظير لمن أتى بالمعجزة فلا يخرج على سنة الكون وانما يكون مبلغه أسمى مايستطيع انسان أن يبلغه . وربما يجد القارئ المفكر تلاؤما مع هذا التوجيه فى قول معالى المؤلف : ص ٤٤

« فحياة محمد حياة انسانية بلغت أسمى مايستطيع الانسان أن يبلغ ، ولقد كان ﷺ حريصا على أن يقدر المسلمون انه بشر مثلهم يوحى اليه حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك [١] وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر انما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين المسلمين الى هذا الموقف من هـذا الحـديث أن حياة محمد كلها حياة انسانية سامية وانمـا لم يلجأ فى اثبات رسالته الى ماالجأ اليه من سبقه من أصحاب الخوارق وهم فى هـذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سندا حين ينكرون من حياة النبى العربى كلها مالايدخل فى معروف العقل ويرون ماورد من ذلك غير متفق مع مادعا القرآن اليه من النظر فى خلق الله وان سنة الله لن تجد لها تحويلا »

فهذا القول من المؤلف غاية فى التخليط والتشويش لايصعب فهم ذلك لمن أحاط بتفاصيل ماقلنا فى تحليل أقواله ، ففيه اعتبار المعجزة ممـا لايدخل فى معروف العقل أى مما يخالف العقل ، وفيه التسوية بين مايخالف العقل وما يخالف سنة الـكون ، وفيه توهم كون الاعتراف بالمعجزات مانعا عما دعا اليه القرآن من النظر فى خلق الله ، وفيه الاستدلال على نفى المعجزات بقول الله تعالى : ( ولن تجد لسنة الله تحويلا ) ، وكل ذلك خطأ ، وفيه زيادة على الخطأ عدم اعتبار حياة الأنبياء السابقين الذين ظهرت على أيديهم الخوارق حياة سامية انسانية ، وفيه ايهام ان الاولى بحياة النبى ان تـكون حياة سامية انسانية ليست فيها خارقة لسنة الكون وان شئت فقل : ولا ارسال ملك ولا انزال كتاب بنصه ، لأنهما أيضا من الحادثات الخارقة لسنة الـكون وقانون الطبيعة فلا تتوقف النبوة على شىء من هذا القبيل المستحيل وانمـا معجزة النبى هى التفوق العقلى والخلق السامى الذى به يبلغ أسمى مايستطيع انسان أن يبلغ

---

(١) لايخفى أن كاتب حياة نبينا مجردة عن المعجزات غير القرآن لو وجد حديثا يصارح رسول الله أصحابه فيه بأنه لايرضى ان تنسب اليه معجزة غير القرآن لبادر الى ذكر هذا الحديث قبل كل شىء حتى قبل ذكر الحديث الموضوع الذى تمسك به وهو يجعل القرآن مقياسا لقبول الحديث أو رفضه

فمعنى كون القرآن اذن معجزة عقلية انسانية مفترقة عن المعجزات الكونية فى الاثبات والنفى أن يكون الاتيان به من الانسان ملتئمة مع العقل كمن أتى بكتاب يعجز غيره أن يأتى بمثله فى البلاغة أو فى أى مزية من المزايا !!

ففى هذه الأسطر المنقولة آنفا من كتاب «حياة محمد» أشياء كثيرة يؤخذ مؤلفه بها والمأخذ الأخير يتفق اتفاقا مع كلام الشيخ محمد عبده فى تعريف النبى والرسول الذى نقلناه قبل الشروع فى نقل أقوال عن مقدمة الطبعة الثانية لكتاب هيكل باشا ونقدها، نعم فى هذا المأخذ الأخير بعض مغالاة منا فى سوء الظن بعقلية العصريين فى مسألة المعجزة والنبوة كما انا أخذناهم وقادتهم من علماء الدين . وما أجدر أيامنا معهم بقول الطغرائى :

وحسن ظنك بالأيام مَعجزة      فظن شراً وكن منها على وجل

ومهما غالينا فى سوء الظن بهم فلا تعدل مغالاتنا مغالاة غيرنا فى سوء الظن بكتب الحديث ورواية المحدثين جملة بل الائمة المجتهدين أيضا لحد مايؤدى الى اسقاط الاحكام الشرعية المبنية على ركن السنة من حيز الاعتداد والاعتماد والله يهدينا ويهديهم سواء السبيل

٥

الخامس مما يقضى به الانصاف ومع ذلك من الغريب أن الذين أرادوا تجريد حياة محمد ﷺ من المعجزات الكونية حتى أثاروا فى سبيل هذا التجريد الشك فى مكان السنة من الاسلام ، انما جنحوا الى هذا الشذوذ الخطير المحدَث وركبوا متن هذا الشطط والاسراف فى التضحية ، لدافع حسن فى نفسه وهو ترغيب عقلاء الغرب فى الاسلام وتحبيبه الى قلوبهم وتقريبه من عقولهم ؛ فكأن المعجزات الكونية والروايات عنها فى كتب الحديث والسيرة أصبحت عيبا على الاسلام وحياة نبيه عليه الصلاة والسلام . وبهذه العقلية لابغيرها فسر الشيخ محمد عبده سورة الفيل من القرآن

بما فسر واقتدى به معالى هيكل باشا حيث قال فى كتابه عند ذكر وقعة الفيل :

« كان وباء الجدرى قد تفشى فى جيش أبرهة وبدأ تفتك به وكان فتكا ذريعا لم يعهد من قبل ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر وأصابت العدوى نفس أبرهة فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من المرض فلم يقم الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه . وبذلك أرخ أهل مكة بعام الفيل هذا ، وقدسه القرآن »

قال هكذا ثم كتب سورة الفيل بنصها كأنها جاءت طبق ماحكاه من أبرهة وجيشه أهلكهم وباء الجدرى من غير أن يكون هناك شيء من الطير الأبابيل ولا مما رمتهم به من حجارة من سجيل كما لم تذكر سورة الفيل شيئا من وباء الجدرى الذى أبادهم فى حكاية هيكل باشا . فكانت صورة الحكاية مع ما كتب فى نهايتها من آيات السورة آية فى الجمع بين المتخالفين [1] فماذا تقولون فى مؤلف كتاب « حياة محمد » الذى كان يشترط فى قبول الأحاديث النبوية موافقتها للقرآن ثم نراه لايراعى شرط الموافقة للقرآن فى تفسير القرآن ؟ فكيف لايطمئن على صحة ماورد فى كتب الحديث من أحاديث المعجزات وغيرها ثم يطمئن على صحة تفسير سورة من القرآن بهذه الصورة المأخوذة من تفسير الشيخ محمد عبده أحد أئمة المؤلف المدققين ؟ يقول معالى المؤلف ومن يؤيدونه مثل فضيلة الشيخ المراغى والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » لم يرد فى القرآن ذكر معجزة كونية لسيدنا محمد ﷺ . وأنا أقول: ولو كانت وردت

(١) كان الشيخ محمد عبده قد أغضبه دخول أقوام غير العرب فى الاسلام و فى حكومة الخليفة العباسى المعتصم فقال: استعجم الاسلام فى عهده مع انه لاغرابة فى استعجام الاسلام كما لاغرابة فى استعرابه لكونه دينا غيرخاص بقوم دون قوم وإنما الغرابة كل الغرابة فى استعجام القرآن العربى بتفسير الشيخ لسورة الفيل بما لاتتحمله لغة القرآن

فماذا ينجع فى المنكرين مالم يعوزهم تأويل كتأويلهم فى سورة الفيل ؟ (١)

وكل هذه التأويلات البعيدة التى لايقبلها العقل على انها مفهومة من النص القرآنى ولا يعدها تفسيرا بل تغييرا فاحشا انما ترتكب لاحساس الحاجة الى تطبيق الاسلام على رغبات المستشرقين من الغربيين وامالته نحو هواهم ان لم تمكن امالتهم نحوه التى هى فعل الأبطال الذائدين عن كرامة الاسلام ، بما لايعوزهم من الحجج، فى حين أن الموقف الأول موقف العاجزين الذين لايستنكفون عن اجراء التعديلات فى الاسلام المعروف عند أهله بل عند الأجانب عنه الناقدين له ، ويقصدون بتضحيتهم من دينهم هذه ارضاء أولئك الناقدين والتخلص من نقدهم كما يشهد بذلك قول مؤلف « حياة محمد » بعد اثارة الشبهة فى روايات المتقدمين والمتأخرين ممن كتبوا السيرة :

« حسبوا ان ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر . ولو أنهم عاشوا الى زماننا هذا ورأوا كيف اتخذ خصوم الاسلام ماذكروه منها حجة على الاسلام وعلى أهله لالتزموا ماجاء فى القرآن . ولو أنهم عاشوا فى زماننا ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوبا وعقائد بدل ان تزيدها ايمانا وتثبيتا لكفاهم ذكر مافى كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة »

وأنا أقول مضرة هذه الروايات عن المعجزات تتصور عند معالى المؤلف وغيره

(١) وكان الذى ينبغى للدكتور هيكل كاتب « حياة محمد » ان يقول عن حادثة الطير الأبابيل عام الفيل الذى ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من ان يحرف السورة النازلة فى القرآن بشأنها عن معناها اتباعا للشيخ محمد عبده وإلغاء للخارقة التى نصت عليها السورة وكانت معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم تقدمته وتسمى هذه المعجزة المتقدمة على بعث الأنبياء ارهاصا ، كان الذى ينبغى للدكتور هيكل ان يقول كما قال الفاضل الهندى كاتب السيرة المارة الذكر :

« انمحى جيش أبرهة بالحجارة التى رمتها الطير الأبابيل عليه وكانت آية من كبريات الآيات يجب على المسلمين والمسيحيين ان يتنبهوا لكونها لم تقع لانقاذ مشركى مكة من شر أبرهة الذى كان مسيحيا والذى كان دينه أعلى من دين مشركى مكة ، وانما كان وقوعها ايذانا لظهوره صلى الله عليه وسلم صاحبا حقيقيا لمكة وكان معجزة من معجزاته ، ولذا قال الله تعالى فى أول السورة مخاطبا له صلى الله عليه وسلم ( ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الخ )

من المتبعين لعقليات الغرب ومرضاتهم ، بكونها مخالفة لسنة الكون ومقتضى العقل وقد أسند معاليه عدم اثبات المعجزات فى كتابه الى هذين المانعين مع الموانع الأخرى. وواجب المسلم عندنا ، واجبه المتعين تجاه هذه الحالة مجابهة هذه العقلية الباطلة بردها على أصحابها واثبات ان المعجزات الكونية لا تخالف مقتضى العقل وان خالفت سنة الكون وأن مخالفتها غير مستحيلة من سنها ، اثباتا علميا كما فعلنا فى أول هذا الكتاب فان لم يقم بهذا الواجب بل تقهقر أمام الناقدين الغربيين بالتنازل عن المعجزات الكونية والتبرؤ باسم الاسلام من رواياتها فى كتب الحديث والسيرة بل من جميع الروايات التى اعتمد عليها أصحاب تلك الكتب ورفعوها الى النبى ﷺ سواء كانت متعلقة بالمعجزات أو بغيرها ، بحجة ان فى الأحاديث المنسوبة اليه موضوعات اختلطت بصحاحها والتبس الأمر . فهذا الذى هو فرار من الواجب الى ماهو أسهل وأرخص (١) والى ماوراء الأسهل والارخص من الأخس والأرذل ، لايكون فيه أدنى فائدة فى استمالة الناقدين أعداء الاسلام الى الاسلام وفى التخفيف من غلواء تعصبهم عليه لأنهم يعرفون كتب الحديث والسير ومافيها ومابذل فى تمحيص رواياتها من المساعى الجبارة . فلا يقبلون تبرؤ المتبرئين من المسلمين منها على أنه تبرؤ الاسلام نفسه بل يعدونه مصانعة وتكتما وضعفا ناشئا من الضعف فى نفس الاسلام . وهل يظن ان علماء الغرب وعقلاءه يقبلون مثلا تفسير سورة الفيل بما فسر به المتبرئون على انه تفسير صادق مطابق للسورة ؟

ومثل الناقدين الأجانب الناقدون من أبناء المسلمين الذين لاتعجبهم معجزات نبينا الكونية المنسوبة اليه فى كتب الحديث والسيرة ، لايقنعهم التبرؤ منها وتكون

---

(١) أسهل وأرخص من تمييز صحاح الروايات عن زيوفها ثم الدفاع عن صحاحها ، ولا يظن ان فيه صعوبتين صعوبة التمييز وصعوبة الدفاع عن الصحاح لأن صعوبة التمييز أزالها النقاد من علماء الحديث قدما وانما رأس البلية ظن الفارين من الواجب عدم امكان الدفاع عن الروايات الصحيحة أيضا

مصانعتهم واسترضاؤهم بالتنازل عما في كتب الحديث والسيرة من روايات المعجزات أشد مساسا بكرامة الاسلام وأشأم ، وهل هم المرادون ويالأسف من أصحاب القلوب والعقائد الزائغة في قول معالي المؤلف : « ولو انهم عاشوا في زماننا هذا ورأوا كيف تزيغ هذه الروايات قلوبا وعقائد، بدل ان تزيدها ايمانا وتثبيتا » ؟ وعلى أعناقكم أيها المتبرئون المتنازلون الفارون عن واجب الكفاح امام أعداء الاسلام وزر تلك القلوب والعقائد الزائغة ، لاعلى أعناق مؤلفي السير وجامعي الأحاديث مثل البخاري ومسلم ومالك وأحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم رحمهم الله ورضي عنهم

أليس سبب هذه الازاغة ظنهم بالمعجزات الكونية انها لاتتفق مع العقل ؟ فاذن لو نحيتم تلك المعجزات عن الاسلام وفاديتم الأمر بالتبرؤ من كتب الحديث وكتب السير على الرغم من كون معنى هذا التبرؤ التضحية بثاني الركنين الرئيسيين من أركان الاسلام وهما الكتاب والسنة ، واكتفيتم بالكتاب أعني القرآن فهل تظنون انكم أنقذتم القلوب الزائغة وأنقذتم القرآن ؟ فماذا تفعلون بالمعجزات الكونية التي يعترف بها القرآن ولو بالاضافة الى أنبياء الله السابقين (١) ويعتبرها آيات بينات وبراهين من ربهم رغم الشيخ صاحب المنار الذي زاغ قلمه مع القلوب الزائغة فاعتبر المعجزات الكونية شبهة وقال : « لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها الخرافيون» والذي استظهر بقوله مؤلف « حياة محمد » ؟ بل كيف تجردون القرآن عن المعجزة الكونية المضافة الى نبينا ونبيكم مع سائر الأنبياء ألا وهي على الأقل الوحي والنبوّة وانزال الملك والكتاب وكل ذلك يخالف سنة الكون ويأباه العلم الحديث المبني على التجربة الحسية الحاضرة علم الزائغي القلوب ؟ فهل تتبرأون اذن من القرآن أيضا وتضحون به كما ضحيتم بالأحاديث ؟ بل ان هذا المدعو علما لايعترف

(١) أم تطمعون في اقناع أصحاب القلوب وهم متعلمون ، بأن الآيات الواردة عنها في القرآن ، بل وآيات البعث بعد الموت أيضا التي تملأ القرآن والتي لايقبلها العلم المذكور أيضا ، آيات متشابهات غير مفهومة المعنى ولا مطلوبة الفهم كما هو رأي الأستاذ فريد وجدي ؟

بوجود الله الذى أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات ، وهو أى عدم اعترافه به أصل زيغ الزائغين وأساسه . فهل تتبرأون من الله أيضا وتكونون علماء ذلك العلم الكاملين بدل ان تكونوا انصاف العلماء ؟ ؟

فعلى القائمين بواجب الحيلولة دون زيغ القلوب المستعدة له أن يتشجعوا فيصارحوا ذوى القلوب المذكورة بالحقيقة ان كان القائمون أنفسهم أدركوها حق الادراك ولا يداوروهم ، وتلك الحقيقة أن يقال لكل من زاغ قلبه بسبب المعجزات أو الخوارق المنسوبة الى أى نبي من أنبياء الله بناء على أنها تخالف العلم : كن عاقلا قبل أن تكون عالما . وقولى هذا يضاهى ماقال « مونته نى » : « إن الرأس الجيد الانشاء أولى من الرأس الجيد الملء » فقد يكون العلم مشوبا بالجهل يشوبه علماؤه المتعدون به حدوده . وعند ذلك يفترق العقل عن العلم ويكون قوله الفصل . والمعجزات لا ينكرها العقل كما بيناه فى أوائل هذا الكتاب ( الصغير ) ، فليس بصحيح مايقال انها تخالف مقتضى العقل وانما هو قول الذين التبس عليهم العقل الحر والعلم المقيد بسنة الكون فظنوا الكل سواء . ويجدر بنا أن نورد هنا ما قلناه فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب[1] ردا على المنكرين لوجود الله بناء على أن العلم لايعترف بوجوده وكان عنوان ذلك الفصل « موقف العلم من الله » وهذا العلم الذى لا يعترف بوجود الله يريدون به العلم الطبيعى ، ومن دأب الغرب المادى والشرق المقلد انهما يذكران العلم مطلقا ويريدان ذلك العلم كأنه لاعلم غيره . وهذا ماقلنا فى الفصل المذكور :

« القائلون بوجود الله لايقولون به على أنه موجود طبيعى بل يقولون به على انه موجود ضرورى يضطرنا الدليل العقلى المنطقى الى الحكم بوجوده واستحالة عدم وجوده . فهو موجود بوجود فوق وجود الموجود الطبيعى الذى لاضرورة فى وجوده وكان من الممكن أن لا يكون موجودا ، ولهذا نحتاج عند القول بوجود الموجود الطبيعى

(١) نعنى الكتاب الكبير الذى لم ينشر بعد

الى التجربة الحسية فتراه بعينك أو تلمسه بيدك أو تحسه بحاسة أخرى ثم تستيقن وجوده ، ولا يضطرك عقلك قبل التجربة الى الاعتراف بوجوده . ولا كذلك الموجود الضرورى الوجود . فمن الطبيعى أن لايعلمه العلم الطبيعى الذى يختص علمه بالطبيعيات الممكنة الوجود والعدم . ونحن القائلين بوجود الله لا حاجة لنا بان يعلمه العلم الطبيعى ولا أن نعلمه بواسطة ذاك العلم . فلو أن العلم الطبيعى أثبت وجود الله كوجود واحد من الطبيعيات، لما أقنعنا ذلك لعدم لزوم كون ما أثبت وجوده واجبَ الوجود بل من الطبيعيات التى هى موجودة بالوجود الواقعى فقط لابالوجود الواجبى الضرورى الذى هو الوجود بوصف مضاعف والذى هو وجود الله

« فمن الطبيعى اذن أن يجهل العلم الطبيعى بالله ولا يجده فى الطبيعة . ولكن ليس بطبيعى أن يجهل علماء الطبيعة وهواتها ان العلم الطبيعى اذا لم يجد الله فى الطبيعة لعدم كونه من الطبيعيات وعدم تعلق العلم الطبيعى بما وراء الطبيعة ، لايلزم منه عدم وجود الله مطلقا فيكون واجبا عليهم أن يعلموا وجوده بواسطة غير العلم الطبيعى . فان جهلوا به بناء على ان علم الطبيعة المبنى على التجربة الحسية لا يعلمه لم يكونوا معذورين لان الانسان لايعيش بنوع واحد من العلم ولا يكون به انسانا

« ومن الطبيعى أيضا بناء مسائل العلم الطبيعى على التجارب الحسية وعدم التعويل على مالم يثبت بها من تلك المسائل ، ولكن من الجهل أن تُجعل التجربة التى هى المقياس الأسلم والقسطاس الأقوم فى الطبيعيات لكونها أى التجربة الحسية نفسها من الأفعال الطبيعية، مقياسا فيما وراء الطبيعة أيضا فيُحكم بناء على عدم دلالة التجارب الحسية على وجود الله ، بعدم وجوده

« فعلى هذا التفصيل يمكن أن يكون لقولهم: ان العلم لايدلنا على وجود الله وجه معقول ، وذلك بحمل مرادهم من العلم على العلم الطبيعى . ولا وجه أصلا لقول « كانت » ان العقل النظرى لا يدلنا على وجود الله ، لان نطاق العقل النظرى لايقاس

ولا يحد بنطاق العلم الطبيعى ، فهو انما يعرف الوجود العادى أى يعرف الوجود ولا يعرف وجوب الوجود الذى يمتاز به الله ويمتاز بمعرفته العقل النظارى . ولا وجه أيضا لان يطلق العلم فى القول الاول ويراد به العلم الطبيعى كأن غيره من العلوم ليس بعلم أو ليس بعلم مثبت أو ان اثباته دون اثبات العلم الطبيعى ؛ بل عرفت مما نبهناك عليه فى كثير من مباحث هذا الكتاب ( الكبير ) ان اليقين العقلى فوق اليقين الحسى . فليس لاحتكار اسم العلم على العلم الطبيعى ، كما هو دأب الغربى الحاضر ومقلده الشرقى ، وجه معقول . اللهم الا أن يقال: ان أنفع علم فى الحياة الدنيوية يُستخدم فى حوائج البشر هو ذلك العلم الكثير الانتاج الذى حصل به الرقى الأخير الصناعى فى الغرب . واستعمال مطلق العلم فى العلم الطبيعى من المحدثات الأخيرة أيضا . وبقدر مايصح هذا التوجيه يظهر سر قوله تعالى ( يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) . انتهى ماقلناه فيما سبق وأردنا اعادته هنا

فكما قلنا هنالك فى مسألة وجود الله نقول هنا فى مسألة المعجزات : ان الحكم فيها بالامكان والاستحالة لا يدخل فى اختصاص العلم الطبيعى . نعم من اختصاصه الحكم بأن المعجزات تخالف سنة الكون بشرط أن لايجاوز حكمه هذا الى الحكم باستحالة المخالف لسنة الكون ، لان هذا العلم لا يعرف المحال ولا الممكن ولا الواجب بميزانه الذى هو التجربة الحسية وانما يعرف الواقع وغير الواقع فى زمن التجربة ، وقد فصلنا ذلك فيما سبق غير مرة . اما مخالفة المعجزات لسنة الكون فنحن نعترف بها ولا ندعى ان المعجزات من الأفعال الطبيعية وانها تنطبق مع سنة الكون التى هى سنة الله العمومية ، وانما هى منطبقة على سنة الله الاستثنائية . ونحن لانقبل كون مخالفة المعجزات لسنة الكون مانعة عن وقوعها ، بل ان هذه المخالفة لازمة مطلوبة لتكون المعجزة معجزة ، ولا نقبل أن سنة الله بمعنى سنته فى الكون الطبيعى لن تجد لها تحويلا ولو كان المحول هو الله نفسه واضع تلك السنة

ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن ارضاء لمنكرى المعجزات والخوارق من المستشرقين وتفضيلا لموافقتهم فى عقلية الانكار على تجشم معارضتهم : ان القرآن مهما حبب اليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم واعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ . وقد يُطمع منهم ان يعدوه أفضل كتاب فى الدنيا وضعه البشر . أما انه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والخوارق . وما دام أناس من المسلمين وفيهم معالى مؤلف « حياة محمد » ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها الى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضا مخالفة لسنة الكون، مخالفة للعلم، مخالفة لمقتضى العقل ؛ فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لايدينون بالاسلام ان يقبلوا القرآن على انه من المعجزات الخارقة أعنى انه كلام الله لا كلام سيدنا محمد ؟ فالواجب اذن أن يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها . وما أجدر معالى المؤلف الذى لجأ الى عصيان العلم فى مسألة الوحى والنبوة واعترض على سلطته (١) ما أجدره بأن يعصيه فى مسألة المعجزات أيضا التى لاتنفك عن النبوة ولا يعترفَ بسلطته فيما وراء الطبيعة مطلقا . لكنه ضحى هناك بالعلم وهنا ضحى بالمعجزات وكتب الحديث وشىء كثير معها من الاسلام فى سبيل مماشاة العلم فلم ينتظم له المسلك

أما المستشرقون الذين انتهج مؤلف كتاب « حياة محمد » هذه الطريقة الملتوية لقطع ألسنتهم المتطاولة ضد الاسلام من جراء روايات المعجزات الكونية ــ وما هو بقاطع كما عرفت ــ فاما ملاحدة ماديون أو نصارى متعصبون لدينهم . فان كانوا ملاحدة فلا يرضيهم التنازل عن معجزات نبينا غير القرآن بحجة انها معجزات كونية ولم يرد ذكرها فى القرآن ، رجاء ان يعترفوا بمعجزة القرآن . وان كانوا نصارى فكيف يعترضون على معجزات محمد ﷺ الكونية ويعدون الأحاديث المروية عنها

(١) يظهر ذلك بمراجعة الطبعة الثانية لكتابه ص ٤١ — ٤٢ وهذا دليل على ان العلم لايقبل الوحى والنبوة أيضا وانهما مما يخالف سنة الكون كالمعجزات

عاراً على الاسلام لأجل كونها مخالفة لسنة الـكون ومقتضى العقل والعلم ، فى حين ان معجزات سيدنا المسيح كلها كونية مخالفة لسنة الـكون . وكان القرآن أفضل معجزة وأوفقها لأن يكون معجزة مؤيدة لنبوة خاتم الأنبياء يخاطب العقول الناضجة بارشادات من سبقوه صلوات الله عليهم كلهم وكان بهذا المعنى حجة عقلية لا بمعنى انه ليس بمعجزة كونية خارقة لسنة الكون لأنه معجزة عقلية وكونية معا ، وكان خصيصا أحرى بأن يؤمن به الغرب الراقى الناضج العقل ، قبل الشرق ولـكن أين ذلك من الغرب الذى يعمه فى طغيانه ويريد ان يخرج الشرق المسلم من دينه ويعاديه لدينه وقرآنه . وهذا فى حين ان المسلم الغافل يتنازل عن شطر دينه ومعجزات نبيه تزلفا اليه ، وهيهات لايرضيه الا التنازل عن الشطر الباقى أيضا ، وهيهات من أصحاب القلوب الزائغة من الشرقيين أن يرجعوا بهذا القدر من التنازل الى رشدهم مادام الغرب الذى هم مقلدوه لايعده كافيا ويستمر فى مناوأة الاسلام ومكافحته

مَضى بِها ما مَضى من عقلِ شاربِها وفى الزُّجاجةِ باقٍ يطلُبُ الباقى

فبالنظر الى ان معجزة القرآن العقلية ما أثرت فى قلوب الغربيين المعدودين أعقل الأمم ، والى ان مرض الانـكار والاستبعاد للمعجزات الـكونية قد أعدى الشرق من الغربيين ، ومع ذلك نراهم أى الغربيين لا يزالون مرتبطين بالأنبياء الذين لهم معجزات كونية ، فالسعى فى تجريد نبينا عن المعجزات الـكونية لاستمالة الغربيين ليس الا غفلة ظاهرة وسذاجة باهرة

وقد كتب معالى المؤلف فى مقدمة الطبعة الثانية لـكتابه نوعين ممن انتقدوه : فـكاتب مصرى مسلم بعث بمقالة الى مجلة المستشرقين الالمانية نقدا لـكتاب « حياة محمد » وبعث ترجمة عربية لمقالته الى المؤلف يؤاخذه فيها على اعتماده على المصادر العربية واعتباره القرآن وثيقة تاريخية لامحل لريبة فيها مع ان مباحث المستشرقين من أمثال « فيلد » و « جولدزهر » و « نولدكى » وغيرهم تدل على انه حرف وبدل بعد وفاة النبى

والصدر الأول للاسلام واسم النبي بعض مابدل فيه فقدكان اسمه «قثم» أو «قثامة» ثم بدل وصار «محمد» ليتسنى وضع الآية (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) وأضاف الكاتب الى أقواله هذا أن بحوث المستشرقين دلت كذلك على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن ماكان يسميه الوحى انما كان أثراً لنوبات الصرع التى تعتريه

ومعاليه شكرالله سعيه رد على فرية تحريف القرآن فى صدر الاسلام بشواهد مفحمة من كلمات المستشرقين وعلى فرية الصرع بأدلة علمية حاسمة [1]

والنوع الثانى من نقاد كتاب « حياة محمد » سماهم مؤلفه ببعض المشتغلين بالعلوم الدينية الاسلامية الذين آخذوه بأنه يرجع الى أقوال المستشرقين ولا يأخذ بكل ماسجلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبي العربي

وربما يتوهم هنا متوهم فيلتمس عذرا للمؤلف فيما سلك فى كتابه من التوسط بين عقلية ذلك الكاتب المصرى المسلم الذى هو أبعد بكثير من الاسلام من المستشرقين وبين عقليات ذلك البعض من المشتغلين بالعلوم الدينية الاسلامية كما قال المؤلف نفسه :

« بينا يؤاخذنا غلاة المصدقين لما أسرف فيه المستشرقون بانا نعتمد على المصادر العربية ونستند الى ماورد فيها ، اذا بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الاسلامية يؤاخذوننا بأننا نرجع الى أقوال المستشرقين ولا نأخذ بكل ماسجلته كتب السيرة وماروته كتب الحديث متصلا بسيرة النبي العربي واننا لانتهج نهج تلك الكتب »

لكن تحقيق الحقائق ووضع النصاب لها الذى هو واجب المؤلف فى أى موضوع من موضوعات المؤلفين الثقات الأثبات لم يكن تأليفا بين المتساويين المتباعدين واختيار وسط تتعادل نسبته الى الطرفين . وليس بمستقيم ظهور المؤلف عند الشكاية من تشدد المشتغلين بالعلوم الدينية عليه فى مظهر من أوخذ لعدم أخذه بكل ماسجلته كتب السيرة

---

(١) والكاتب أشنع مثال لمبلغ كتاب يعدون من المسلمين وهم كفار بدينهم وكتابهم ، فى تقليد الغربيين حتى معاداة الاسلام العمياء

وكل ماروته كتب الحديث متصلا بسيرة النبى ﷺ ، فلا علم لنا بنص ما كتبوا فى مؤاخذته على أثر الطبعة الأولى لكتابه ، لكننا نحن لم نؤاخذه لعدم أخذه بكل ما فى كتب السيرة والحديث متصلا بحياة نبينا بل لكونه عند الجواب على مؤاخذةالاولين فى مقدمة الطبعة الثانية ، رمى كل مافى تلك الكتب بشبهة الكذب

٦

السادس اذا كانت المعجزات خارقة لسنة الكون وكان خرق السنة جائزا لامانع منه بل لازما ضروريا للمعجزة لتكون معجزة فلماذا يشهد القرآن بأن سنة الله لن تجد لها تبديلا ؟ فهذا السؤال يمكن أن يخالج بعض الأذهان بعد مطالعة ما كتبنا الى هنا كما خالج ذهن هيكل باشا قبل مطالعة ما كتبنا حيث قال ص ٥٥ من الطبعة الثانية لكتابه :

« ولو أن أمة مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة الى التصديق بمعجزة غير القرآن لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين رجل لم يتلجلج قلبه ولم يتعثر فؤاده بل هداه الله الى الايمان أول مادعى اليه كما هدى أبا بكر فآمن وصدق من غير تردد . وآخر لم يلتمس ايمانه فيما وراء سنة الكون من خوارق بل التمسه فى خلق الله هذا الكون الفسيح الارجاء الذى يقصر تصورنا دون ادراك حدوده فى الزمان والمكان وتجرى أموره مع ذلك على سنن لا تحويل لها ولا تبديل [1] فاهتدى من

---

(١) ماقاله من النظر فى خلق الله هذا الكون الجارى على سنته انما ينفع فى ايمان الرجل بالله خالق الكون لافى ايمانه بهذا الدين أى الاسلام وقد قلنا فى أوائل هذا الكتاب: إن سنة الكون ونظامه العام دليل على وجود الله وخرق تلك السنة يكون دليلا على وجود أنبيائه والدين المتضمن للتكليف من الله انما يكون مبدأه الايمان بالنبى لا الايمان بالله فقط . فمعالى الباشا الذى أراد تحليل ايمان الرجل الثانى بدين الاسلام من غير حاجة منه الى التصديق بشىء من الخوارق ، لم يوفق لذلك فماذا سبب ايمان هذا الرجل بنبى الاسلام بعد ايمانه بالله ؟ فان قال سبب ايمانه به القرآن وفرضنا أنه يفهم اعجاز القرآن قلنا ان القرآن أيضا من الخوارق فلولم يكن خارقا لسنة الكون لما كان معجزة ولم يعجز الناس عن الاتيان بمثله

سنن الله فى الكون الى بارئه ومصوره. سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن (١)
بل هما لا يفكران فى هذه الخوارق على أنها من آيات فضل الله. ومثل هذا الايمان يراه
الكثيرون من أئمة المسلمين مثلا أسمى فى الايمان. ويذهب بعضهم كذلك الى أن
الايمان الصحيح يجب أن لا يكون مصدره خوفا من عقاب الله أو طمعا فى ثوابه بل
يجب أن يكون ايمانا خالصا بالله وفناء تاما فيه »

أقول من الغفلة أو التغافل ان يبحث عن ايمان كايمان أبى بكر فى العصريين
الذين يساوموننا ويشترطون فى ايمانهم بالله وبالقرآن ان لا يعترفوا بمعجزات تخرق
سنة الكون (٢) كأن الله غير قادر على خرقها أو كأنه لم يكن هو الذى سنها وانما هى
طبيعة الكون، كما قال بذلك محمد ثابت الفندى فى مقالته التى نالت الجائزة الأولى من
لجنة المباراة الصحفية والتى مر الكلام عليها فى مقدمة الكتاب الكبير وهم لا يزالون
فى ايمانهم بالله وبالقرآن طبيعيين، وكأن القرآن لا يعترف مثلهم بتلك المعجزات

(١) يكاد الباشا يقول: « وسواء كان النبى أو لم يكن» ولا يعتذر عنه بأنه لا يقول ذلك لأنه اذا لم يكن النبى فمن يدعو الرجل الأول الى الايمان؟ لانا نقول فى جوابه ومن أين يعلم ان الداعى نبى من أنبياء الله اذا لم تكن معه علامة لنبوته ورسالته من الله؟ وهى المعجزة الخارقة. فالذين لا تعجبهم المعجزات يظنون ان أنصارها يلتزمون وجودها مع النبى من غير حاجة اليها لا من النبى ولا من الذين أرسل اليهم

(٢) وقد قال معاليه عن أبى بكر فى كتابه فى مبحث الاسراء: « مالبث محمد حين حدثهم بأمر اسرائه ان ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله. وقال كثيرون والله ان العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة وشهرا مقبلة أيذهب محمد ذلك فى ليلة واحدة ويرجع الى مكة وارتد كثير ممن أسلم وذهب من أخذتهم الريبة فى الأمر الى أبى بكر وحدثوه حديث محمد فقال أبو بكر انكم تكذبون عليه قالوا بلى هاهو ذاك فى المسجد يحدث الناس قال أبو بكر لأن كان قد قاله لقد صدق انه ليخبرنى ان الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تعجبون منه »

فهل أبو بكر الذى شبه به معاليه أحد رجلين مستغنيين فى ايمانهما عن الخوارق المخالفة لسنة الكون لما سمع حديث الاسراء آمن به؟ أم لم يؤمن وقال لا حاجة لى فى ايمانى الى هذه الخارقة المخالفة لسنة الكون؟

الخارقة الظاهرة ولو على أيدى الأنبياء السابقين وكأنها رغم شهادة القرآن بها ليست معجزات معقولة مقبولة عند أصحاب العقول الراجحة أوكأن الايمان بالقرآن جملة مع عدم الاعتراف ببعض مافيه يعتبر ايمانا ويكفى فى دين الاسلام ، وكأنى بمعاليه يفتى فى كل ذلك بالجواز وتدور فتاواه على محور سنة الكون التى لاتحويل فيها ولا تبديل .

أما قوله المتناقض مع فتاواه وهو « بل هما لا يفكران فى هذه الخوارق الا على انها من آيات فضل الله » فغاية مايفهم منه ان معاليه متردد فى هذه المسائل لم يستقر رأيه على شيء كما يقال عن المفتى المتردد فى الفتوى : « انه يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ومع هذا الاضطراب فى الرأى فهو أميل الى نفى الخوارق منه الى اثباتها تمسكا بسنة الكون المؤيدة بالعلم وبصراحة القرآن القائلة : ( فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ) ! ! لأنه اذا كانت هذه الصراحة القرآنية مانعة عن الخوارق لزم ان تقع أنباء القرآن عن معجزات الأنبياء السابقين مثل ابراهيم وموسى وعيسى وصالح وسليمان وغيرهم صلوات الله عليهم ، تحت شبهة الكذب والوضع كالأنباء المروية فى كتب السيرة والحديث عن معجزات نبينا ﷺ على رأى معاليه أوتكونَ الآيات الواردة فى القرآن الناطقة بأنباء معجزات الأنبياء آيات متشابهات غير مفهومة كما قال الأستاذ فريد وجدى وان كان القرآن ينادى بقوله ( لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون )

معالى مؤلف « حياة محمد » لم يكن مبتكرا فى الاستدلال بقول الله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) على نفى المعجزات الكونية واثبات مذهب الطبيعيين ، بل اكتشفه قبله من اكتشفه من المستشرقين ومن علماء الدين بعصر الذين ديدنهم تهيئة الأدلة المتمشية مع أهواء المتعلمين العصريين . لكن المراد

من الآية ليس كما يظنون ، وانما هى مبينة لسنة الله فى أمم بعث فيهم أنبياء وأيدهم بالمعجزات فعصوهم وكذبوهم . وسنة الله انزال العذاب عليهم كما قال تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) وهذا المعنى فى الآية التى تمسك بها هيكل باشا ومن تقدمه يدل عليه ماقبل الآية فى سورة الملائكة :

( وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا استكباراً فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

وما قبلها فى سورة الأحزاب : ( لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا )

وما قبلها فى سورة الفتح : ( ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لايجدون ولياً ولا نصيرا سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا )

وفى سورة الاسراء : ( وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذا لايلبثون خلافك الاقليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا )

وكيف يمكن ان يكون معنى الآيات كما ظنوه فيكذِّب به القرآن ما نص هو نفسه عليه من أنباء الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة لسنة الكون ويكْذب فيما قاله فى آخر سورة يوسف (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى )

أما القول بوجوب أن لايكون مصدر الايمان الصحيح خوفا من عقاب الله أو طمعا

فى ثوابه وكذا القول بكون مرتبة هذا الايمان دون مرتبة الايمان الخالص ، فقد أراد معالى الباشا ان يدخل فى مبحث الايمان بسبب المعجزات مسألة عصرية أخرى وهى انتقاد العقلية القديمة الاسلامية الداعية الى مخافة الله، وان كانت لاتبدو المناسبة بين مسألة المعجزات الخارقة لسنة الكون وبين مسألة الايمان بالله بدافع الخوف من عذاب الله أو الطمع فى ثوابه بل وان كان فى تطبيق هذين الدافعين على مسألة الايمان بالله شىء من عدم الانطباق اذ الايمان انما ينبنى على عقيدة كون الشىء حقا والعقيدة نفسها تقوم على أسباب حقيقية تختلف باختلاف متعلقها أوعلى تقليد محض وليس بين أسباب كون الشىء حقا خوف المعتقد من الشىء الذى يعتقده، فبناء على هذا لا يتصور ان يؤمن أحد بالله خوفا من عذابه وانما يتصور الخوف من عذاب الله بعد الايمان بالله فلم يكن المؤلف محسنا فى وضع المسألة التى أراد انتقادها وانما يعقل ان تكون الطاعة لله خوفا من عذابه أو طمعا فى ثوابه موضع البحث لا الايمان به

وعلى كل حال فان انتقاد الايمان بالله أوالطاعة له خوفا من عذابه وانتقاص هذا الايمان أوالطاعة ينافى مسلك القرآن فى مدح الخائفين من الله ، مسلكه البارز فى آيات كثيرة لاتحصى لكثرتها كقوله (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ) وما حث الله عبده المؤمن فى كتابه على شىء حثه على تقوى من الله وما أكثر من الأمر بشىء اكثاره فى الأمر بالتقوى التى هى مخافته كقوله (واتقوا الله لعلكم تفلحون) وقوله (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب [1] كما انه لم يكرم مرتبة عنده لعباده تكريمه لمرتبة التقى فقال: (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال النبى ﷺ (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له) وماذا

---

(١) انظر كيف يخص الله تعالى أولى الألباب بالدعوة الى مخافته فى حين ان العصريين الذين يعتبرون أنفسهم عقلاء من الطراز الأول يعدونها منقصة

قد يكون الايمان الخالص عند غير المعترفين بالكمال للايمان الصادر من القلب التقى المشحون بمخافة الله ؟ فهل هو ايمان عبده به من غير مخافته ؟ ولا يعقل ايمان مجرد من كل دافع حتى انهم ان قالوا نؤمن حبا فهو أيضا ليس بايمان خالص مجرد من كل دافع . على ان التعليل لاينتهى فى الحب لأنه أيضا يحتاج الى علة دافعة اليه . فان كان أساس المال عظمة الله فعلاقتها بالمهابة والمخافة والاجلال أولى وأقوم من علاقتها بالمحبة ولأن المخافة والاجلال أحرى بموقف العبد

فقد وجدنا المصدر الحقيقى للايمان بالله وهو ادراك عظمته واستحقاقه للمعبودية . وأول مايحصل بتأثير هذا الادراك فى نفس الانسان هو تصاغره بين يدى ذلك العظيم وتذلله [١] وتخشعه له ومخافته منه تصاغرا وتذللا وتخشعا يوشك معها أن يرى محبته فوق حد العبد وأدبه مع مولاه . وفى «أساس البلاغة» للعلامة الزمخشرى « الايمان هيوب »[٢] وليس بلازم أن تكون مخافته من عذابه كما صوروا المسألة قصدا لانتقاد مخافة الله وانتقاص أهميتها بل المخافة من الله نفسه كما قال عز من قائل ( ويحذركم الله نفسه ) وهى تنطوى على المخافة من عذابه أيضا كما تنطوى هذه المخافة الناشئة من ادراك عظمته على محبته ، الا أن المحبة لله العظيم لابد أن تغمرها الرهبة والمهابة، ومن هذا قال سبحانه وتعالى ( فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا )

فمقتضى العقل أن تُهاب القوة التى تسيطر على جميع القوى ثم تحب لكونها فوق الجميع . ومن هذا لا يتصور الظلم من الله فيكون كل ما يفعله حقا وعدلا وحكمة .

---

(١) لو كان الاستاذ فرح انطون منشىء مجلة « الجامعة » الذى ناظر الشيخ محمد عبده وانتقد على القرآن تعبيره عن بنى آدم بعباد الله كما سبق ذكره فى مقدمة الباب الاول (من الكتاب الكبير)، حيا واطلع على كلمتى هذه لقال : « ماهذا التصاغر والتذلل المنافى لكرامة الانسان ؟ » ولا يعرف لذة التذلل لله والشرف الذى فيه الا الأحرار الحقيقيون الذين يأبون التذلل لملوك الدنيا والتصاغر بين أيديهم والذين يعرفون الله كما قال تعالى ( انما يخشى الله من عباده العلماء )

(٢) ثم وجدت هذا القول فى «الفائق» للزمخشرى أيضا ، منسوبا الى ابن عباس رضى الله عنهما

والقوة تزداد اقترابا من الحق كلما ازدادت كبرا واتساع نطاق فتعتبر الغلبة بين الدولتين المتحاربتين استحقاقا للجانب الغالب على المغلوب ولا توجد محكمة تفصل بين الظالم والمظلوم فى مثل هذه المسائل بل يُعترف بالحق للغالب بمجرد غلبته فتعتبر قوة السيف حقا مسلما به وتكون معاهدات الصلح بعد الحرب وثائق حقوق للقاتل على المقتول على عكس ماإذا كانت حادثة القتال بين الافراد . لكن هذا الحق المبنى على الغلبة فى الحرب بين الدولتين اعتبارى وقتى لا حقيقى ودائمى، لاحتمال أن تنهض الدولة المغلوبة فى المستقبل فتتغلب على الغالب الأول فينتقل الاستحقاق الى جانبها فى استرداد ماأخذ منها والاستيلاء على مازاد عليه ، أو لاحتمال أن تقوم قوة ثالثة فتقهر الجانبين وينتقل حق الاستيلاء اليها وهكذا يدور هـذا الحق الاعتبارى الوقتى مع الأقوى الوقتى فالأقوى من الأقوى حتى اذا انتهت الى قوة لاقوة فوقها وهى قوة الله أصبحت القوة عند ذلك عين الحق

ففى الامكان أن لايحب الصغير المقهور الكبير القاهر وليس فى الامكان أن لايخافه حتى انه لا يكون فى الامكان أن لايحبه أيضا اذا كانت محبته مبنية على مخافته التى لاتفارقه . ولا تحسبوا أن هـذه المحبة لا تكون صميمية لأن المقهور من جميع الوجوه لايسعه الا أن يحب قاهره ولا يسعه الا أن يكون صميميا فى محبته والا يلزم أن لا يكون القهر تاما وهو خلاف المفروض . فكل أحد وكل شىء اذا خفته هربت منه الا الله تعالى لأنك اذا خفته هربت اليه فالخائف من ربه هارب الى ربه . واليه يشير قوله تعالى ( ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين ) وقوله ﷺ ( لاملجأ ولا منجا الا اليك )

وقد أطلت هـذه المسألة التى دخلت فيها عرضا وتبعا لدخول مؤلف كتاب « حياة محمد » ومع هذا فهى كانت حرية بالتدقيق لأهميتها، ولما كنت أدرى من زمان انها من مزالق العقليات الجديدة المتصوَّرة فى مخافة الله منقصة وفى محبته غنى عنها

ورجحانا عليها أو المتصورة تنافيا بينهما . وكنت كتبت هذه المسألة فى كتاب ألفته باللغة التركية لما كنت فى بلادى قبل عشرين سنة وأوردت فيه قول الشاعر :

وأبكى لنفسى رحمةً من عتابها ويبكى من الهجران بعضى على بعضى

وانى لأخشاها مُسيئا ومحسنا واقضى على نفسى لها بالتى تقضى

واذا كان هذا شعور انسان رقيق الحس ومهذبه نحو انسان يحبه ويتفانى فى حبه فكيف ينبغى أن يكون شعوره نحو ربه العظيم . ولعل الفكرة الغريبة المتجهة الى عدم التقدير لرتبة مخافة الله السامية فى الاسلام وفى نفس الأمر قدرها تسربت فى عقول بعض المسلمين تقليداً للمسيحيين بواسطة تقليد الغرب المسيحى وتقليداً لمتصلفة الصوفية . ومن المعلوم ان إله المسيحيين رحيم فقط وليس بعزيز ذى انتقام ، حتى انه افتدى بنفسه عندهم فى العفو عن ذنب البشر وكان الذنب عظيما جدا فناسب أن يضحى المجنى عليه بنفسه ليعفو عن الجانى صاحب الذنب . ولا يمكن أن تكون فكرة فى الدنيا معكوسة الى هذا الحد، فالله يرحم البشر ويعفو عنهم ولا يرحمه البشر ويعفون عنه وكيف يعفون عنه ولا ذنب له وانما الذنب ذنبهم والذنب يعفى عنه ولا يعفى عن الذى لاذنب له وانما أُذنب عليه ، فيجعلونه فداء يفتديهم ويجزى نفسه بذنوبهم جزاء دونه جزاء سنمار ( ان الانسان لظلوم كفار )

هذا تحليل مسألة الخوف من الله فكأن الذين لايرونه متناسبا مع مقام الألوهية والعبودية من النصارى يرون خوف الله من الانسان أنسب من عكسه . والمتصوفة الوجودية لايفرقون بين الله وما سواه فلا محل للخوف

وجوابى للذين لايعجبهم ايمان المؤمن ـ أو بالأصح طاعة المؤمن ـ طمعا فى ثواب الله أن الاعتراض على من أطاع الله طمعا فى ثوابه يتضمن الاعتراض على قوله تعالى : ( ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ) وقوله مشيرا الى نعيم الجنان المشاد بذكره فى الآيات المتقدمة : ( لمثل هذا فليعمل العاملون) وقوله

( وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وقوله فى وصف المؤمنين ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) وقوله : ( ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا ان رحمة الله قريب من المحسنين ) فالله تعالى فى الآية الأخيرة يأمر بدعائه خوفا وطمعا ويسمّى الداعين له خوفا وطمعا محسنين والذين أناقشهم لايعجبهم الخوف ولا الطمع فينهون الناس عنهما فأى القولين أحق أن يتبع ؟

٧

السابع أصحيح ان فى القرآن مايمنع وجود المعجزات لنبينا محمد ﷺ كما ادعاه مؤلف كتاب « حياة محمد » واتخذ منه مقياسا يرفض به كل مافى كتب الحديث والسيرة من أنباء معجزاته الكونية ؟

هذه الدعوى يبنيها منكرو المعجزات الكونية لنبينا على نوعين من آيات القرآن فأولا يبنونها على مايتكرر ذكره فى سور مختلفة من أنه لاتبديل لسنة الله ولاتحويل، فيحملون سنة الله هذه على سنته فى الكون التى يسمونها القوانين الطبيعية المستنبطة من نظام العالم ويقولون أو بالأصح يريدون أن يقولوا : « كما أن المعجزات الكونية لايقبلها العلم لكونها مخالفة لسنن الكون أى القوانين الطبيعية لايقبلها كتاب الله أيضا فيصرح فى آيات عدة أن لاتبديل لسنة الله، وقد سبق الجواب عنه وأنه ان كانت تلك الآيات مانعة عن المعجزات الكونية فلا يخص منعها بمعجزات نبينا بل يعم معجزات الأنبياء كلهم المقصوص أنباؤها مفصلة فى القرآن

وثانيا يبنون دعوى كون القرآن يمنع وجود معجزات كونية لنبينا على مايحكى فى آيات كثيرة من أن المشركين كانوا يقترحون على النبى ﷺ أن ينزل الله عليه آية أى معجزة ليؤمنوا بنبوته فيكون الجواب أن الآيات عند الله وانما النبى بشر مثلهم أرسل اليهم لينذرهم

فرأى المستشرقون هذه الآيات (١) وانتهزوا من وجودها فى القرآن فرصة القول بأن محمدا لم تكن له معجزة مثل معجزة موسى وعيسى ، ومرادهم من هذا القول أن محمدا لم يكن نبيا ، ورآها كثير من المتعلمين بمصر تعلما عصريا يدفعهم الى التعويل على أقوال علماء الغرب المستشرقين أكثر منه على أقوال علماء الشرق أئمة الاسلام ، ورآهم ثم تابعهم علماء الدين فى الأزمنة الأخيرة التى طرأ فيها الضعف على الاسلام وعلمائه ، من حدثتهم أنفسهم ان يكونوا أئمة كما كان السلف رضوان الله عليهم فابتدعوا امامة يتبع فيها الامام المأموم

رأى هؤلاء وهؤلاء النقص الذى رأى المستشرقون فى الاسلام ، نقص المعجزات ونقص التضاد بين الكتاب والسنة فى مسألة المعجزات الكونية نفيا واثباتا ، لكن الرائين المسلمين كما لم يفكروا فى أن السلف الصالح من رواة الأحاديث وجامعيها المتثبتين كالامام البخارى ومسلم ومالك وأحمد وغيرهم ورواتهم من الثقات البالغ عددهم عشرات الألوف ، كانوا أكثر قراءة للقرآن واطلاعا على آياته من مستشرقى الغرب ومن أنفسهم أتباع أولئك الغربيين فى الشرق من الكتاب والعلماء فكيف فاتهم كلهم رؤية هذا التضاد بين القرآن وأحاديث المعجزات التى رووها وأثبتوها فى كتبهم ؛ كما لم يفكر راءو التضاد من المسلمين فى هذا لم يفهموا مغزى رؤية الرائين الأجانب فحاولوا أن ينتصروا لدينهم ويتداركوا نقص التضاد بين الكتاب والسنة فى أمر المعجزات بالطعن فى صحة نسبة السنة ونقصَ المعجزات الكونية فى نبيّ الاسلام بالطعن فى تلك المعجزات نفسها واسقاط أهميتها فى تأييد النبوة على الرغم من ظهورها على أيدى الأنبياء المتقدمين ، حتى قال الشيخ رشيد رضا

---

(١) التى منها ماأورده مؤلف « حياة محمد » ونقلنا عنه سابقا من قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا )

صاحب مجلة « المنار » عند دفاعه عن معالى هيكل باشا وتصويبه فيما فعله فى كتابه من اخلاء حياة نبينا عن المعجزات الكونية : « ان الخوارق الكونية شبهة عند علماء العصر لاحجة لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى وان المفتونين بها هم الخرافيون »

القول بأن المعجزات الكونية شبهة لاحجة الذى عزاه الشيخ رشيد الى علماء العصر الغربيين هومذهب الشيخ نفسه أيضا لأنه اعتمد فى دفاعه عن كتاب هيكل باشا عليهم واعتبر قولهم حجة حين لايعتبر معجزات الأنبياء الكونية حجة ولا تعبير القرآن عن تلك المعجزات تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآية الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان ، حجة فى انها حجة : قال تعالى : ( فلما جاءهم موسى بالحق قالوا هذا سحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) وقال : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات) وقال : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال : (وآتينا عيسى بن مريم البينات ) وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلهم يهتدون ) وقال : ( وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملأه) وقال : (فأراه الآية الكبرى) وقال : (وفى موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلطان مبين )

وقال هذا الشيخ فى كتابه « الوحى المحمدى » ص ٤٦ « وأما تلك العجائب الكونية فهى مثار شبهات وتأويلات كثيرة فى روايتها وفى صحتها وفى دلالتها [١] وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرة فى كل زمان ، والمنقول منها عن صوفية

(١) يظهر من هذا ان كل ماادعى هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه متجرئا على كتب الحديث والسيرة فامامه فيه الشيخ رشيد . ومن غريب المصادفة انه ورد الى أثناء كتابة هذه السطور عدد مجلة (الفتح) الاسلامية ٦٥٥ فقرأت فيه مقالة للاستاذ الكبير صاحب المجلة يعد فيها كفريات

الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد (١)

فكأن الشيخ وقد ذكر فى كتابه أمثلة مما يأتى به الصوفية الهندوس وفيها احياء الموتى ، يسعى فى مقابل مايدعيه المستشرقون أعداء الاسلام من أن محمداً لم يأت بمعجزة كما أتى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، يسعى لأن يدعى فى مقابل ذلك ان معجزات أولئك الأنبياء لم تكن بمعجزات . ويقرب منه ماقاله هيكل باشا : « ان القرآن ذكر المعجزات التى جرت باذن الله على أيدى من سبق محمدا من الرسل كما أنه جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد وماوجه اليه الخطاب فيه وما ورد فى الكتاب عن النبي العربى لا يخالف سنة الكون فى شىء » فكأن ما ذكر القرآن من معجزات الأنبياء السابقين معيبة بمخالفة سنة الكون حين لايوجد هذا العيب فى معجزاة نبينا التى هى القرآن وعيب مايخالف سنة الكون عندهم انه لايكون ولا يقبل العلم أنه يكون . ولا يغرنك قول الباشا «ان القرآن ذكر المعجزات التى جرت باذن الله على أيدى من سبق محمدا من الرسل » لأنه لو وقعت تلك المعجزات رغم مخالفتها لسنة الكون لم يذكر مخالفتها لها كعيب تنزهت عنه معجزة نبينا ﷺ ، بل لزم أن يكون وقوعها خارقة لسنة الكون مزية لها على المعجزة التى لاتخرق سنة الكون لأن المعجزة التى تقع وتخرق بوقوعها سنة الكون لابد أن تكون أقوى من

---

غلام أحمد القاديانى وبينها قوله : « قد أعطانى الله اختياراً كاملا لأن أقبل الأحاديث الموافقة لالهامى وأردها اذا خالفت آرائى » وقوله عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « ماصدر عنه معجزة واحدة فضلا عن معجزات

(١) كما لايقدح فى الأحجار الكريمة والجواهر الفاخرة ولا ينقص من قيمتها الغالية ، وجود زيوف تشابهها وتلتبس مع أصولها الحقيقية فى أعين الغافلين وأنظارهم الحمق ، كذلك لايقدح فى آيات الله التى أظهرها على أيدى من اصطفاهم للرسالة الى الناس ، وجود مشعوذين من أهل السحر والدجل . ولماذا لم يعتبر الشيخ من سحرة فرعون الذين لما رأوا عصا سيدنا موسى تلقف مايأفكون خروا سجدا وقالوا آمنا برب موسى وهارون حين لم يؤمن فرعون قائلا انه لكبيركم الذى علمكم السحر ؟ . فكان ينبغى للشيخ ان يعتبر ويتعلم من سحرة فرعون تمييز المعجزة من الشعوذة بدل ان يتعلم من فرعون التسوية بينهما

التى لاتخرق فظهر أن مخالفة المعجزة لسنة الكون فضل لها لاعيب ونقص، واذا كان فى الخارقة من حيث انها خارقة عيب فلابد أن يكون عيبها فى عدم وقوعها . فلماذا اذن ذكرها القرآن وأكبرها ؟ وترى الباشا يقابل ماذكره القرآن للانبياء المتقدمين من الخوارق ، بما ذكره القرآن لمحمد ﷺ من الانتصار فى الحروب . فماذا تفهمون من هذه المقابلة ؟ أليس الفرق فيما بينه وبينهم صلوات الله وسلامه عليهم كلهم ان القرآن نوه به بما يكون ونوه بهم بما لايكون ؟

عجيب هذا الجدال المحدث بين المستشرقين غير المسلمين والمستغربين المسلمين المبنى على تعصب كل من الطرفين لدينه على دين الطرف الآخر : فالمستشرقون يعيبون الاسلام بأن نبيه لم يأت بمعجزة وعجز عن الاتيان بها حين قيل عنه : ( فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ) وهم لايعدون القرآن معجزة وان لم يقولوا عنه كما قال مشركو مكة المقترحون على النبى ﷺ أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون : ( أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ) والمستغربون الغافلون يقابلون اعتداء المستشرقين بالاعتداء قائلين : ان معجزات المرسلين الأولين لم تكن جديرة بأن تعد معجزات للانبياء لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى وان المفتونين بها الخرافيون والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد . وأنا أقول عنهم «المستغربون» لكونهم صدّقوا دعوى الغربيين أن لامعجزة لمحمد غير القرآن بشهادة القرآن نفسه وما ورد فى كتب الحديث والسيرة عن معجزاته مكذوب عليه . وأقول عنهم « الغافلون » لكون اعتدائهم المقابل على المستشرقين يتضمن الاعتداء على القرآن أيضا

وقال الشيخ رشيد أيضا : « ان آيات المرسلين لم يؤمن بها ممن شاهدها الا المستعدون للايمان بها وان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى وان أكثر بنى اسرائيل لم يعقلوها وقد اتخذوا العجل وعبدوها بعد رؤيتها ورؤية غيرها فى برية سينا.

وقال اليهود فى المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الانسان وقالوا ان ابليس يفعل أكبر من فعله ، وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سببا وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك . ونقلوا عن المسيح انه قال : « الحق أقول لكم ليس كل نبى مقبولا فى وطنه »[1] وجعل يعنى المسيح القاعدة لمعرفة النبى الصادق تأثير هدايته فى الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثمارهم يعرفونهم » ومن استقرأ تواريخ الأمم علم ان أهل الملل الوثنية أكثر اعتمادا على العجائب من أهل الأديان السماوية ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء والقديسين أكثر مما نقلوا عن الأنبياء والمرسلين وان أكثر المصدقين من الخرافيين »

وأنا أقول فى هذا البيان ايهام ان المعجزات الكونية أظهرها الله على أيدى رسله عبثا لأنها لن تنجح فى تأييد رسالتهم ولم تكن خير وسائل الى اقتناع الناس بصدقهم ولو بقدر اقتناعهم بصدق السحرة والمشعوذين والدجالين فى دعاويهم فكأن الله تعالى ماأصاب ــ والعياذ بالله ــ فى اختيار المعجزات لأنبيائه الا فى معجزة القرآن التى تخاطب العقول والافهام مع ان قول الشيخ : « ان آيات المرسلين لم يؤمن بها ممن شاهدوها الا المستعدون للايمان بها » يجرى فى كل معجزة ولا تعزب عنه معجزة القرآن . فالمعجزة مطلقا لا يؤمن بها الا المستعدون للايمان وهم الذين شاء الله هدايتهم لا الذين قالوا مثلا : ( لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ) ولا الذين جعل الله على قلوبهم أكنة أن

---

(١) الظاهر من هذه الجملة رفع الايجاب الكلى بمعنى ان بعض الانبياء مقبول فى وطنه لا كلهم، مع ان الذين ينقلون هذا القول عن المسيح عليه السلام يريدون السلب الكلى . فلو قال « ليس نبى مقبولا فى وطنه » بدون « كل » لكان أوفق بالمعنى المقصود الذى هو عموم النفى مدلولا عليه بنكرة فى سياق النفى. لكن الشيخ أو من نقل عنه أتى بالكل على ظن انه أدل على العموم فأفسد المعنى وقلبه من عموم النفى الى نفى العموم

يفقهوه ولا الذين قال الله فيهم ( كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به ـ أى بالذكر الحكيم ـ وقد خلت سنة الأولين ) فشبه الذين لا يؤمنون بالقرآن بالذين لم يؤمنوا بمعجزات الأنبياء الماضين . ولقد أخطأ الشيخ فى احتقار المؤمنين بالأنبياء المتقدمين بسبب معجزاتهم الكونية التى سماها « عجائب » فاستهان بها أيضا ، بان أكثرهم من الخرافيين، فكأنه قال آمن بهم السذج ولم يؤمن أصحاب العقول الراجحة مع ان رجحان العقل وخفته يجب أن يوزن بميزان الايمان بالنبى الحق وآياته التى هى آيات الله والاعراض عنه فمن آمن فهو أعقل الناس ومن كفر فهو أجهلهم وأغباهم

الحاصل ان فى معجزات الأنبياء عليهم السلام دلالة كافية على صدقهم فى دعوى النبوة للذين شرح الله صدورهم للايمان ولا يقدح فى قيمة المعجزات ظهور أشباهها الزائفة فى أيدى السحرة والمشعوذين ولذا لم يمنع هذا التشابه سحرة فرعون عن الايمان بمعجزة موسى . ولا يقال ان السحرة كانوا عارفين بالفرق بين المعجزة والسحر بفضل معرفتهم بالسحر ولم يؤمن فرعون لعدم معرفته بهذا الفرق المتوقفة على معرفة السحر، اذ لا عذر له فى عدم المعرفة بعد معرفة العارفين ولان المؤمنين بموسى لم يكن كلهم سحرة حتى يعذر فرعون بعدم معرفته المعجزة من السحر . والذين ينتقدون الخوارق الكونية من معجزات الأنبياء تارة بحجة التباسها بأعمال السحرة وتارة بعدم كونها ضامنة لايمان الأمم التى بعثوا اليها فقد تعدوا بالمعجزات حدودها وطالبوا الأنبياء بمعجزات ملجئة لا تتفق مع اختيار المكلفين وتجعل الايمان بالغيب معاينة لا يبقى معها امتياز المؤمن على الكافر بل يضطر الجميع عندها الى الايمان . وليس لنا أن نشترط فى نصاب دلالة المعجزة على صدق النبى أن يؤمن به كل من شهد معجزته ، ألا يرى ان دلالة المعجزة على صدق النبى فى دعوى النبوة لا تفوق دلالة البراهين العقلية على وجود الله ومع هذا فقد لا تؤثر تلك البراهين فى قلوب الملاحدة الضالين . فهل يحط ذلك من قيمتها عند ذوى العقول السليمة ؟

وانى أرى الشيخ رشيد الذى يقيس قيمة المعجزات بمقياس عدد الذين آمنوا بها ثم ينتهى منه الى فشــل معجزات الرسل الأولين ، فى غفلة عن الـكثرة الهائلة التى نواجهها من اتباع الدين المسيحى الذين تغلبوا فى وجـه البسيطة حتى استطاعوا أن يحولوا بين طائفة من علماء المسلمين وكتّابهم وبين دينهم وعقولهم فجعلوهم ينكرون معجزات نبيهم الـكونية ويرتابون فى أحاديثه المروية عنه فى كتب الحديث ويطعنون فى قرآنهم على ظن انهم يطعنون فى معجزات الأنبياء المتقدمين مع ان تلك المعجزات فى ضمان القرآن. فبماذا ترتبط بدينهم فى رأى الشيخ تلك الـكثرة الهائلة المتغلبة، حتى بعد انقضاء أوان هذا الارتباط ببعث محمد ﷺ ، ان لم يكن لمعجزات سيدنا عيسى وموسى تأثير معتد به فى قلوب الناس ؟

ثم أقول : نحن المعترفين بالمعجزات الـكونية نقدر قدر القرآن أكثر مما يقــدره منكرو المعجزات غــير القرآن . لـكن فضل القرآن وتفوقه بين المعجزات لا يوجب انـكار كل معجزة غــيره بتنزيلها منزلة السحر والشعوذة والدجل أو منزلة أدنى من منزلتها كما فعل الشيخ رشيد . ولم أقل عبثا انا نقدر قدر القرآن أكثر من الذين يظهرون بمظهر أنصار معجزة القرآن ومكبريها للتذرع منه الى الاستهانة بغيرها من المعجزات لان القرآن مشحون بالاعتناء بمعجزات الانبياء الـكونية ، فاذا كانت تلك المعجزات لافرق بينها وبين أفعال الدجاجلة والمشعوذين أو كانت حتى دونها فى التأثير على قلوب الناس ولم يصدقها غير الخرافيين لزم أن يكون القرآن نازلا على وفق أهواء الخرافيين مكبرا لما يكبرونه، وذلك ينقص من قدر القرآن أى نقص. وما ذا هو الفرق بين مافعل الشيخ رشيد من تنزيل معجزات الأنبياء الـكونية منزلة السحر والدجل وبين ماقاله كفار قوم موسى مثــلا المحـكى فى قوله تعالى : ( فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ماهذا الا سحر مفترى ) ؟ وما ذا هو الفرق بين قولهم هذا فى الزمان الماضى وبين قول عقلاء الغرب اليوم ان القرآن كلام محمد لا كلام الله ؟ وما كانت معجزات

سيدنا موسى سحرا لكن من لم يؤمنوا بموسى ادعوا ذلك كما ان القرآن لم يكن كلام سيدنا محمد لكن الغربيين يدعون انه كلامه ، فهل يحط قولهم هذا من مكان القرآن؟ كلا . فاذن لا يحط ماقاله قوم موسى سابقا وما قاله الشيخ رشيد لاحقا من مكان معجزات موسى صلوات الله على نبينا وعليه (١)

---

(١) وجملة القول ان وضع نبينا مع الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ووضع معجزته مع معجزاتهم فى صف الجدال لأهل الكتاب مسلك شديد الخطر وتفريق بين رسل الله مخالف لمسلك القرآن القائل ( لانفرق بين أحد من رسله ) فكما ان القرآن الذى هو معجزة نبينا قول الله تعالى فالمعجزات الكونية الظاهرة على أيدى الانبياء وفيهم نبينا أيضا أفعاله تعالى المؤيدة لهم ، ولا وجه لتفضيل قول الله على فعله فالمفاضلة بين المعجزات باطراء بعض والحط من شأن ما عداه ليست من شأن العاقل وكل منها أوفق لزمانه من غيره فمعجزة موسى بالعصا وقعت فى عهد رواج السحر فجاءت تفوقه وتبطله ، ومعجزة عيسى بابراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى وقعت فى عهد رواج الطب وهى ليست من جنس الطب المستند الى التوسل بالاسباب ، ومعجزة نبينا فى عصر البلاغة والتبارى بها وكل ذلك يمثل تفوق فعل الله أو قوله على أفعال البشر وأقوالهم . فاذا كان فى معجزة القرآن فضل على ماعداها من المعجزات فليس ذلك الفرق فى أصل الاعجاز وانما هو فى اتحاد المعجزة مع الوحى فى القرآن حين كان سائر المعجزات منفصلة عن الوحى الذى هو المقصود الأصلى من النبوة وكانت المعجزات نفسها أمورا مقصودة لغيرها وهو تأييد الوحى باثبات كونه من قبل الله

وكذا الحال فى موقف الاسلام من النصرانية واليهودية لا تفاضل بينها وكلها دين الله الذى أمر عباده أن يدينوا به فى برهة من الزمان وكل دين فى زمانه أفضل من غيره ولولا ذلك لما اختاره الله لذلك الحين. وملاك فضل الاسلام عليهما أن مضى دورهما وجاء دور الاسلام فى مختتم الجميع فنسخ الأديان الأولى و بقى الى يوم القيام لاناسخ له

ولقد سلك منكرو معجزات نبينا غير القرآن مسلكا وعرا جرهم الى القدح في كتب الأحاديث والسير ثم الى القدح فى معجزات الأنبياء المتقدمين بل فى نبوتهم أيضا . وكان هذا التورط الثانى وقع منهم ملافاة للنقص فى معجزات نبينا فيجعلون القرآن معجزة وحيدة مطلقا بعد ان جعلوه معجزة وحيدة لنبينا . لكن هذا المسلك الذى يتضمن اعلاء شأن القرآن فى الظاهر يخالف مسلك القرآن نفسه ويتضمن قدحا فى القرآن أيضا كما بينا من قبل . ونبين هنا وجها آخر وهو أن القرآن تحدى بلغاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا ، وهذا التحدى تمسك به

---

فليس لأحد بعد مبعث محمد ﷺ الى الناس كافة أن يبقى متمسكا بالدين الماضى ناثيا بجانبه عن الاسلام الذى هو الدين الحاضر . حتى لو فرضنا فرض المحال ان معجزات موسى وعيسى تفوق معجزات نبينا عليه وعليهما السلام عكس ما أثبته الشيخ رشيد رضا فى كتابه لما كان لليهود والنصارى اليوم الا أن يتبعوا دين محمد ويتركوا دين آبائهم الأولين الذين تقدم عهدهم عهد الاسلام فيكونوا مسلمين بدلا من كونهم هودا أو نصارى اذ لامعنى لكون الانسان يهوديا بعد انقضاء عهد اليهودية أو نصرانيا بعد انقضاء عهد النصرانية، الا اذا لم يكن لمحمد ﷺ معجزة كونية كما هو زعم الشيخ رشيد والدكتور هيكل ولا غير كونية كما هو زعم اليهود والنصارى

هذا هو القول الأسلم فى المقارنة بين الاسلام والنصرانية واليهودية الحقيقيتين من حيث انهما دينان سماويان كالاسلام . اما مقارنة الاسلام مع النصرانية الحاضرة فلا وجه لها أصلا لكونها مقارنة بين الدين السماوى المحفوظ والدين الصناعى المحرف عن أصله و بعبارة أخرى الدين الذى لايقاوم أمام العقل والنقل ولم تجئ معجزات سيدنا عيسى لتأييد هذا الدين المحرف المسعىّ لأدامته بعد نسخه ومسخه، فلا وجه للمقارنة بينها و بين معجزات نبينا بمناسبة المقارنة بين النصرانية الحاضرة والاسلام ، فضلا عن الاعتداء على تلك المعجزات بهذه المناسبة

الشيخ رشـيد رضا وغيره فى انـكار كل معجزة لنبينا غير القرآن (١) وادعوا تفرد القرآن به مع أنه ان ارتفعت الثقة بكتب الحديث والسيرة وكان أصحاب هذه الكتب لم يكتبوها لوجه الحق بل محاباة للاسـلام ، كما ادعى ذلك المدعون من المسـلمين عند انـكار المعجزات الثابتة بالأحاديث ، تأتى لمن شاء من أعداء الاسلام المنكرين لمعجزة القرآن أيضا أن يقول : من الجائز أن يكون فى عصر النبى أتى آت من البلغاء بمثـل ماتحدى به ثم لم تروه كتب الحديث والسـيرة التى لايؤمَن على أنبائهـا من الزيادة والنقصان، وليس فى الشرق ولا فى الغرب مراجع تاريخية لصدر الاسلام غير تلك الـكتب،فمن أين نثبت اليوم ان القرآن معجزة تحدت فأعجزت وسلمت من المعارضة ؟ وقد كان فضيلة الاستاذ المراغى قال فى مقالته التى نشرتها « السـياسة » الاسبوعية و « الاهرام » أيام حدثت فتنة ترجمة القرآن بتركيا وإقامة الترجمة مقام الأصل العربى فى الصلاة وغيرها وانحاز فضيلته الى أنصار تلك الفتنة ومروجيها:

(١) نعم ذكر المتكلمون فى المعجزة شروطا منهـا التحدى لـكن المحقق الدوانى نبه على انه لايشـترط فيها صريح التحدى بل يكفى قرائن الأحوال. والمعقول عندى أن يكون مرادهم من شرط التحدى مقارنة المعجزة بدعوى النبوة أعنى يلزم لأن يعتبر خارق العادة معجزة ظهوره على يد مدعى النبوة تمييزا لهـا عن الـكرامة والارهاص ، فلو اشـترطنا فى كون المعجزة معجزة أن يكون من ظهرت على يديه تحدى بها الناس وطالبهم بالاتيان بمثلها كما وقع فى معجزة القرآن واستدل به الشيخ رشيد على انحصار معجزة نبينافيه وجاء هذا الاشتراط موافقا لأقوال علماء الـكلام لزم أن لايكون لنبينا فى جميع ماظهر على يديه معجزة واحـدة عند المتكلمين الا القرآن كما هو كذلك عنـد الشيخ رشيد ! وكيف يكون علمـاء الـكلام متفقين مع هـذا الشيخ فى انكار ماعدا القرآن من معجزاته لفقدان شرط التحدى ، فى حين انهم صرحوا بأنه صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة غير القرآن ان لم تثبت كل واحدة منها عنه تواترا فالقدر المشـترك متواتر كجود حاتم وشجاعة على ، كما نقلناه سابقا من شرح المحقق الدوانى للعقائد العضدية. والتمسك بشرط التحدى ليس الا من مناورات الشيخ اظهارا للمتكلمين فى مظهر الاتفاق معـه ، فهل هو أعنى الشيخ حين أنـكر المعجزات الكونية الظاهرة على يد نبينا أو أيد قول من أنكر فـكتب دفاعا عن كتاب هيكل باشا، أنـكرها لـكونها خارقة لسنة الـكون أم أنـكرها لفقدان شرط التحدى ؟

«ان قراءة الأعاجم للنظم العربى نفسه لايدلهم على الاعجاز وليس فى استطاعتهم فهمه» ، والامم العربيـة الآن ومن أزمنـة طويلة خلت لايفهمون الاعجاز من النظم العربى ، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الاعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقـرآن بسبب هذا الادراك ونحن الآن نقيم على الاعجاز أدلة عقلية ونقول ان القرآن تحدى العرب وانهم عجزوا وهذا يدل على انه من عند الله »

وكان الأستاذ فريد وجدى وهو من غلاة منكرى المعجزات بدعوى انها مخالفة للعقل حتى انه ينكر البعث بعد الموت أيضا للسبب نفسه ، كان هذا الأسـتاذ أنـكر اعجاز القرآن بألفاظه ومبانيه فى مقالاته التى كتبها دفاعا عن فتنـة ترجمة القرآن وقال « انه لم يتحد أحدا ببلاغته وانمـا تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فى حكمته وشريعته » (١) وهذا مع كونه مخالفا لمـا قاله فضيلة الأستاذ المراغى ففيه ان الاستاذ فريد يعرف ان أممـا اسلامية لم تعجبهم شريعة القرآن فاستبدلوا بها شرائع الغرب قبـل استبدالهم ألفاظا أعجمية بألفاظه ومبانيه والأسـتاذ الذى ناصرهم فى تبديل ألفاظه لم يؤاخذهم يومئذ على تبديل شريعته ، فمنكرو المعجزات كما يفرقون بين الكتاب والسنة فيدافعون عن الـكتاب ويخذلون السنة ، يفرقون بين لفظ الـكتاب ومعناه فيتمسكون بمعناه ويخذلون لفظه ويتمسكون بلفظه فيخذلون معناه على حسب ما يقتضى هوى التجديد العصرى

ثم ان المتظاهرين بتكريس كل أهمية وكل تعويل على القـرآن لئلا يكترثوا بغيره ، تراهم يقاومون صراحة القرآن اذا شاء هواهم ذلك كما فعله الشيخ رشيد حين أنـكر معجزة شق القمر التى سيأتى بيانها

وانظر ماقاله الشيخ فى « الوحى المحمدى » بعـد التنبيه على كون نبينا لم يتعلم القراءة والـكتابة وكون قومه الذين نشأ فيهـم أميين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ

(١) وقد نقلت كلا القولين عن الاستاذين فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن »

الأمم وعلوم التشريع والفلسفة ص ٤١ — ٤٣

« وترى تجاه هذا ( أن موسى عليه الصلاة والسلام) قد نشأ فى أعظم بيوت الملك لأعظم شعب فى الأرض وأرقاه تشريعا وعلما وحكما وفنا وصناعة وهو بيت فرعون مصر (١) ثم انه مكث بضع سنين عند حميه فى مدين وكان نبيا - أو كاهنا كما يقولون - فمن ثم يرى منكرو الوحى ان ماجاء به موسى من الشريعة الخاصة لشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة نشئ فى بيت الملك والحكمة

« ثم ظهر فى أوائل هذا القرن الميلادى ان شريعة التوراة موافقة فى أكثر أحكامها لشريعة «حمو رابى» العربى ملك كلدان الذى كان قبل موسى معاصرا لابراهيم ﷺ . وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان فى حفائر العراق انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحياً من الله . ولم ينقل ان حمورابى ادعى أن شريعته وحى من الله (٢)

« ثم يرى الناظر ان سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها وأنهم كانوا يتدارسونها فى مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى فلا يصح أن

---

(١) وقال معالى هيكل باشا فى كتابه ص ٦٦ من الطبعة الثانية : « فى مصر نشأ موسى وفى حجر فرعون تربى وتهذب وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرف الوحدة الالهية وعرف أسرار الكون » ! !

(٢) وأنا أقول فى جواب ماذكره الشيخ من وجوه الطعن فى نبوة سيدنا موسى ان فرعون الذى نشأ فى بيته موسى ادعى لنفسه الألوهية وسيدنا موسى دعا الناس الى عبادة الله فكيف يصح أن يقال انه نشأ فى بيت الحكمة والتشريع مع هذا البون الشاسع بين المنشأ والناشئ من حيث الهدى والضلال وهل فرعون حكم فادعى الألوهية أو ادعاها فحكم أى صار حكيما؟ وحكاية حمورابى العربى ملك الكلدان - وفيها وفى وصفه بالعربى تفضيل ذلك الملك العربى على سيدنا موسى الأعجمى - ان صحت فلا مانع من أن تكون شريعة موسى متوافقة فى بعض أحكامها مع نظم حمورابى وموسى لم يدع لنفسه الأمية مثل نبينا حتى ينقضها اطلاعه على أحوال الملل وتواريخ الأمم . أما ان موسى كان نبيا ولم يكن حمورابى فان العصا التى هى على رغم أنف الشيخ تقطع قول كل خطيب ، ظهرت على عين موسى. والله أعلم حيث يجعل رسالته

يذكر أحد منهم مع محمد ذكر موازنة ومفاضلة [١] ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذى شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبى ، بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدرا وأعلاهم ذكرا وأجلهم أثرا لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعا لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها واصلاح روح أدبى لجمود اليهود المادى على ظواهر ألفاظها. فأمكن لجاحدى الوحى ان يقولوا أنه لا يكثر على رجل زكى الفطرة ذكى العقل ناشئ فى حجر الشريعة اليهودية والمدنية الرومانية والحكمة اليونانية غلب عليه الزهد والروحانية ، أن يأتى بتلك الوصايا الأدبية . على ان منهم من يعزو جلها الى كونفشيوس المشترع الصينى والى غيره من الحكماء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام . ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك وانما يقوله الماديون والملحدون والعقليون وألوف منهم ينسبون الى المذاهب النصرانية »

فقد قدح الشيخ فى نبوة سيدنا موسى وسيدنا عيسى وكتابيهما التوراة والانجيل تفصيلا ثم تبرأ منه بما لا يعدله من الاجمال حيث ذكر وجوه القدح ولم يجب عنها وانما اجتزأ بأن يقول « ونحن المسلمين لانقول هذا ولا ذاك وانما يقوله الماديون والملاحدة والعقليون » ومعناه أنا لا نقول ولكن ننقل أقوال القائلين ولا نجيب عنها إذ لاجواب لها وهذا هو القدح بعينه ! فالشيخ يقوّل الملاحدة مالا يستطيع ان يقوله ، ويدل استنكافه عن الجواب على اعتقاداتهم مع عدم استنكافه عن نقل تلك الانتقادات ، أنه يراها واردة . على أنه يرى الناظر فيما كتب الشيخ تحت عنوان « ويرى الناظر » وعنوان « فأمكن لجاحدى الوحى » شيئا كثيرا ينم على أن رأيه لا يبعد

---

(١) كما انه ليس فى الحق والعدل مافعله أهل الكتاب الذين لايؤمنون بنبى بعد نبيهم من اثارة الشبهة حول نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذلك لايجوز لنا ان نذكر أنبياء الملل الذين لايؤمنون بنبينا بما يثير الشبهة فى نبوتهم كما فعل الشيخ رشيد فلسنا نحن المسلمين كأهل الكتاب لانفرق بين أحد من رسل الله بل نؤمن بهم عن آخرهم ايمانا لايحوم حوله شك الشاكين ولاشبهة المفرقين

عن آرائهم . وحسبك أنه يعنيه انتقاداتهم ولا يعنيه ان يجيب عنها فلو عناه لأجاب وكيف يجيب والجواب الحاسم الذى هو معجزات الأنبياء قد قدح فيها الشيخ قبل القادحين حيث قال أنها شـبهة لاحجة على الرغم من تعبير القرآن عنها تارة بالآيات البينات وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان وتارة بالسلطان وتارة بالحق، وقد سبق كل ذلك. نعم ان الشيخ قال أيضا ماقال عن تلك المعجزات انها شبهة لاحجة ، عازيا له الى علماء العصر ، لـكن قد عرفت أن هذا الأسـلوب من ألاعيب الشيخ والا فكيف يؤيد بقول علماء العصر هـذا ان لم يكن قولهم مقبولا عنده ، ماالتزمه هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد» من اهمال معجزاته ﷺ الكونية ؟

فههنا أى عنـد الـكلام مع جاحدى نبوة سـيدنا موسى وعيسى الذين أحضرهم الشيخ رشيد أمامنا وأحضر معهم مالديهم من شبهات واحتمالات عن أصـل التوراة والانجيل ومأخذهما ، وعنـد توقف ازالة الشبهات والاحتمالات على معجزات ذينك النبيين الجليلين .. عندهذا الموقف الدقيق الذى يعنينا نحن المسلمين بقدرمايعنى اليهود والنصارى ، يتبين عظم جناية المسـتهينين بالمعجزات الـكونية المنكرين لأهميتها فى نبوة الأنبياء . فالأنبياء كلهم غير نبينا صلوات الله وسلامه عليهم، على مأدى اليه قول الشيخ رشيد مفحمون من جانب جاحدى الوحى،فان كان عند الشيخ مايدفع الافحام عنهم ولم يذكره محمدا فهو مع الجاحدين أعداء الأنبياء ، وان لم يكن عنـده ذلك فهو مفحم مع الأنبياء بصفة انه مسلم يؤمن بالله وكتبه ورسله ، بل مفحم معه نبى الاسلام أيضا بصفة كونه مصدقا لمـا بين يديه من التوراة والانجيل

فياأيها المتكلمون بلسان الاسلام لاتحدثوا الناس من غـير ميزان ولا مقياس فمن أسمى ميزات الاسـلام على سائر الأديان السماوية انه ضامن لتلك الأديان أيضا فاذا دخلت شبهة فى أصل واحد منها يتأثر الاسلام بها أيضا ولا يسلم من عدواها . فاياكم أن تستهينوا بمعجزات الأنبياء عند إكبار معجزة القرآن وتستهينو بالسنة عند

اعظام شأن الكتاب ، فالكتاب لا ينفصل من السنة والقرآن لا ينفصل من التوراة والانجيل . فأنتم تعلمون دعوى اختلاق الشعر الجاهلى بعد الاسلام ، ولعلكم تعلمون أيضا ماترمى اليه تلك الدعوى من اثارة الشبهة فى القرآن من ناحية الرواية، بواسطة اثارة الشك فى أمانة الرواة المسلمين مطلقا . وكانت تلك الدعوى قد قوبلت بضجة فى الرأى العام الاسلامى بمصر ، ثم ظهر كتاب « الوحى المحمدى» فطعن صاحبه فى الوحى الموسوى والعيسوى وظهر كتاب « حياة محمد » فطعن صاحبه فى سنة محمد وظهر الطعن فى الطبعة الثانية كل الظهور فلم يحرك كل من ذلك ساكنا فى الرأى العام وما أخل برغبة المسلمين لاسيما فى الكتاب الثانى ، مع أن صلة السنة بالكتاب وصلة التوراة والانجيل بالقرآن أشد وأقرب من صلة الشعر الجاهلى بالقرآن . والفرق المشهود بين الحالين لا يسفر الا عما طرأ على الاسلام بمرور الزمان من ضعف فى الحماسة أو ضعف فى التفكير

***

وعند كتابة هذه السطور ــ وأنا ماانتهيت عن الكلام فى الوجه السابع من وجوه النقد على كتاب هيكل باشا أو بالأصح على مقدمة الطبعة الثانية له ــ اطلعت على العدد الخاص من مجلة « الرسالة » بأول العام الهجرى ١٣٥٨ ورقم السنة هذا منى ، لان المجلة كعادتها مؤرخة برقم السنة الميلادية ، وقد أعجبنى مما قرأت منها ــ وما قرأت جلها ــ قصيدة « قومى بين الشرق والغرب» ومقالة «عندنا غدهم» و « روح العبادة فى الاسلام » و « أعظم يوم فى تاريخ العالم » الا آخر المقالة الأخيرة التى يقول فيها كاتبها الأديب الأستاذ عبد العزيز البشرى :

« وبعد فان بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم هذا الضرب من الخوارق التى تجرى على أيدى الرسل » ثم يقول : « ان معجزة محمد ﷺ تمتاز بأمرين: الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات »

ياللعجب ! حتى الأستاذ ابن الأستاذ الأكبر المرحوم سليم البشرى من شيوخ الأزهر السابقين يشارك الزاعمين بمصر من الكتّاب والعلماء أن لامعجزة لنبينا ﷺ غير القرآن ، ولا أظن ان والد الأستاذ رحمه الله يقبل هذا الرأى لو كان حيا ولا أن الأستاذ نفسه يقبل مايتضمنه وما يترتب على مايتضمنه من المفاسد ولا ما يقصده الزاعمون أو زعماء الزاعمين منه . أما ما يتضمنه وما يترتب على ما يتضمنه فقد أسهبت فى ايضاحه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . واما ما يقصد منه فأقوله هنا :

أرى طائفة عصرية من الكتّاب والعلماء بمصر اتفقوا فيما بينهم على حصر معجزات نبينا ﷺ فى القرآن . وقد راقتهم هذه الفكرة كأنهم اكتشفوا بها حقيقة خفيت على من سبقهم من علماء الاسلام وعقلائه طيلة تاريخه . وربما انتحلوها من علماء الغرب وعقلائهم أو على الأقل من علمهم وعقليتهم الحديثين ، وانى أقول ماسأقوله بصدد الافشاء عن مقصدهم الأقصى، على انه هو الآخر اكتشاف لى كما ان نظرية حصر معجزات نبينا فى القرآن اكتشافهم ، غير أنى لم أنتحل ما اكتشفته من الغرب، وغيرى لايستطيع الكشف عن مقاصدهم، فان استطاعه فقد لايستطيع مجاهدتهم بها

أيها القارىء العزيز ويا أيها الاستاذ عبد العزيز ان عقول الطائفة التى أشرت اليها والتى لاأود أن تكون منها مخطوفة من علم الغرب المادى ، وعهدى بالعقل الذى هو أشرف خلق الله أنه يأبى أن يخطفه خاطف العلم ويأسره آسره [1] انهم لا يؤمنون بالمعجزة أى معجزة كانت ، لان علمهم المثبت يمنعهم ان يؤمنوا بكل ما يخالف سنة الكون، مع ان المعجزة لا بد ان تخالف سنة الكون والا فلا تكون معجزة .

---

(١) وقد قلنا فى الفصل الثالث من الباب الأول ( من الكتاب الكبير ) المعنون « موقف العلم من العقل » انالعقل اكتشف العلوم وأدركها ولم يدرك العلم بعد ماهية العقل

أما معجزة القرآن فانهم يؤمنون بها لكونها معجزة لاتشبه المعجزة وانما هى كلام أبلغ ما يكون فى الكلام ، وهم لايرون فى أن يكون كلام أبلغ من كل كلام مايخالف سنة الكون كقلب العصا حية واعادة الميت حيا، كأنهم يريدون أن يتصوروا نبوة محمد ﷺ على غير ما نتصوره نحن المسلمين القدماء ، ليس فيها مايخرق سنة الكون وانما عبقرية فى الفضيلة والنزاهة والحكمة والهداية الى مافيه سعادة الأمم ، وان شئت فلا تقل عبقرية لما أن فيها شيئا من الخروج على سنة الكون ، بل زعامة فضلى وكمال فى الزعامة دونه زعامة الزعماء ، انهم يريدون أن يجعلوا محمدا ﷺ زعيما عربيا بز كل زعيم من كل أمة فى الصلاح والاصلاح . وقد سمعوا قول أحد المستشرقين عنه « بطل فى صورة نبى » ولا لزوم عندهم لأن يكون محمد الزعيم نبيا ينزل عليه الفينة بعد الفينة ملك يسمى جبريل ويأتى ببلاغ من الله بلفظه ومعناه [١] وهو القرآن المعجز بمراسم ايحائه وانزاله قبل أن يكون معجزا ببلاغته ، لالزوم لذلك لأن القرآن يكون حينئذ معجزة من المعجزات الكونية التى تنكرها هذه الطائفة الشرقية اقتداء بعلماء الغرب المنكرين لكل مايخالف سنة الكون، ولا أشد مخالفة من انزال ملك على بشر حاملا بلاغا متلواً من الله ومتمثلا على الأكثر فى صورة البشر

فمنكرو المعجزات الكونية من العرب للزعيم العربى الأعظم ﷺ ينكرونها عبثا ان لم ينكروا معها نبوته ورسالته المعروفة المعنى عند المسلمين منذ قرون الاسلام الأُوَل[٢] الا أن تكون نبوة كما عرّفها امام الطائفة الشيخ محمد عبده وسبق نقله منا، ورسالة من نوع رسالة مجلة «الرسالة» وبعض كتّابها ولكن من أعلى وأفضل فرد من ذلك النوع

---

(١) قال الله تعالى ( لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه )

(٢) ولكون نبوة الأنبياء والذى تضمنته من الوحى الخاص بهم ، مخالفة لسنة الكون التى لا يقر العلم المدعو بالعلم المثبت مايخالفها ، تلعثم معالى هيكل باشا الذى ألف «حياة محمد» بالعلم ، فى تأليف وحى محمد صلى الله عليه وسلم بالعلم تلعثما كاد يكفر به أى بالعلم فى سبيل الايمان بوحيه . وقد أشرنا اليه من قبل . راجع ص ٤١ — ٤٢ من الطبعة الثانية من كتاب حياة محمد

وليس لقائل أن يقول اعتراضا علينا: ولكن ماالضرر من أن لايكون محمد رسولا مخالفا لسنن الكون اذا فرضنا كونه رسولا طبيعيا موافقا لسنن الكون وفرضنا معه — وهو فرض مطابق للواقع — أنه قام بكل مالزم أن يقوم به لو كان رسولا غير طبيعى كما يتصور المسلمون الأولون، وأتى بمعجزات لا تختلف عن المعجزات الا فى مطابقتها لسنة الكون [١] وان شئت فقل رسولا انسانيا وغير انسانى بدل الرسول الطبيعى وغير الطبيعى

وقبل أن نجيب عن هذا الاعتراض الذى أوردنا علينا ، نورد كلمات من مقالة الدكتور زكى مبارك المنشورة أيضا فى العدد الممتاز من مجلة « الرسالة » تأييدا لصحة اكتشافنا المار الذكر عن عقلية طائفة من المسلمين بعصر فى المعجزة والنبوة المحمدية :

قال : « كان محمد انسانا بشهادة القرآن . وبنو آدم يؤذيهم أن يتلقوا الحكمة عن رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق [٢] « وفى غمرة هذه الضلالة نسيت النواحى الانسانية فى حياة الرسول والا فمن الذى يصدق ان رجلا مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ ، ولأى سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول ؟ »

---

(١) وكان الأستاذ فريد وجدى الذى هو من غلاة منكرى المعجزات يحاول فى الأزمنة الأخيرة ان يصور الاعجاز فى رسالة نبينا بما يشبه هذا النوع الطبيعى الذى يكون اعجازه فى مبلغه من الكمال المنقطع النظير لافى مخالفته الطبيعة . راجع ما كتبه فى مجلة « الأزهر » من المقالات بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة »

(٢) فى هذا القول تعريض للمسلمين القدماء الذين يتصورون لنبيهم أحوالا فوق الأحوال الطبيعية كالمعجزات ونزول الملك عليه بالوحى من السماء فكأنهم فى زعم الدكتور يصعدون محمدا صلى الله عليه وسلم الى مافوق البشرية . وهذا مايعنيه بقوله : « وبنو آدم يؤذيهم تلقى الحكمة من رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » . وأنا أقول لايؤذى المسلمين ان يكون نبيهم بشرا وانما يظن الدكتور ومن فى عقليته من المتعلمين العصريين ان تصور النبى كما يتصور المسلمون القدماء بأن ينزل عليه الملك بالوحى من الله وتكون له معجزات تخرق سنن الكون ، يخرجه من البشرية وينافى انسانيته . ومن عجيب المغالطة استشهاد الدكتور على بشرية نبينا بقول القرآن ، كأن هناك من يشك فى انه انسان ، حتى ان الذين عابوه من جهلاء المشركين فقالوا (مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ) وأراد الدكتور تطبيق عقليتهم بغير حق على المسلمين ، لم يشكوا فى كونه بشرا وانما أشكل عليهم نبوة البشر كما أشكلت على الدكتور نفسه

ماذا يريد الدكتور زكى مبارك أن يقول ؟ فهل هو معترض على تأخر اعلان رسالة محمد ﷺ الى مبدأ العقد الخامس من عمره ؟ والا فما معنى نسيان الناس أو تناسيهم المدة التى تقدمت ذلك الحين من حياة الرسول ؟ فكأنه يقول ان حياة محمد الرسول أضرت بحياة محمد الانسان حيث طغت عليها وأنست الناس ما كان له من حياته قبل مبعثه . مع ان الذين كتبوا تاريخه مانسوا ولا تناسوا ماعرفوا من حياته قبل رسالته . لكن مؤرخى الاسلام ليسوا بكتّاب الرواية حتى يملأوا فراغ مايعرفون بما لايعرفون . والله تعالى يتولى الجواب عن اعتراض الدكتور فيقول لرسوله : ( قل لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ) ويقول ( وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون ) وهذا الفراغ فى حياة الرسول ﷺ قبل رسالته معدود من جملة ماجعل القرآن معجزة

ولعل الدكتور كان يتوقع على الأقل من مؤرخى الاسلام القدماء أن يقولوا عن حياة سيدنا محمد قبل مبعثه انه قضاها فى التفكير فيما سيضعه موضع الفعل والتنفيذ من المبادىء كما قال الأستاذ أحمد أمين فى مقالته المنشورة فى العدد ١٨ من مجلة «الثقافة» بعنوان « محمد الرسول المصلح »

« كم أجهد نفسه فى التفكير وأجهد روحه فى البحث وكانت عزلته فى غارحراء وسيلة من وسائل تفكيره ، وفيم كان يفكر ويطيل تفكيره ؟ فى سوء ماعليه العالم وفى سوء مايعتقد العرب وغير العرب وفى سوء الحالة الاجتماعية فى العالم الذى رآه فى جزيرة العرب وفى العالم الذى رآه فى الشام . قد يكون هذا الفساد واضحا، ولكن ماهو الحق؟ وأين الحق ؟ كان هذا هو زمن التفكير ونوع التفكير ثم اهتدى وكان الوحى إيذانا بالهداية . ثم كان له بعد ذلك من الله قوة فى التنفيذ لاتبارى » فتأمل

وقال الدكتور زكى مبارك أيضا : « كان محمد انسانا قبل أن يكون نبيا »

أقول ان كان هذا كقول بعض المسلمين القوميين أنا عربى أو تركى أولا ثم مسلم ، كان استهانة بالنبوة فلو فرض ان رسولا تكلم هذه الكلمة على معنى ان انسانيته أهم فى نظره من رسالته لسقط عن مرتبة النبوة والرسالة كما يسقط عندى من يقول أنا من القوم الفلانى أولا ثم مسلم، عن اسلامه . ثم قال الدكتور: وذلك من أعظم الحظوظ الذى غنمها فى التاريخ . فسيأتى يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية ولكنهم لايستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد »

معناه سيأتى يوم قريب أو بعيد يثور فيه أتباع محمد عامة والعرب خاصة على نبوته وعلى الدين الذى أتى به ويستغنون عنهما لكونهما من الأمور الغيبية التى لايصدقها أهل العصور العلمية ولكنهم لايستطيعون أن يستغنوا عن عبقريته كزعيم غيرديني ، فكأن عبقريته وبطولته أظهر وأقوى من نبوته كما يدعيه بعض المستشرقين . ولايخفى أن قول الدكتور هذا ثورة من الآن على نبوة محمد ﷺ ودينه . فان قال قائل: ان الدكتور نفسه لايريد ان يكون ثائرا على نبوته ﷺ التى هى من الأمور الغيبية وانما يقول عن ثورة محتملة يحدثها آخرون فى الآتى القريب أو البعيد ، فجوابى عليه ان المفهوم من كلام الدكتور أنه لايأمن على نبوته من الثورة كائنا من كان الثائر ، بقدر مايأمن على عبقريته. ولا ريب فى أنه ينم على شك منه أو تشكيك فى نبوته، فكأنه يتعزى بسلامة عبقريته . عند وقوع الثورة على نبوته وكأن المطلوب عنده اعتراف الناس بعبقريته ، ألسنا صادقين اذن فى القول بأن طائفة من الكتاب المسلمين وبعض علماء الدين بمصر لايؤمنون بالمعجزة والنبوة على معناهما المعروف عند المليين لاسيما وهم يجدون فى محمد ﷺ أوصافا عبقرية تؤهله لأعظم زعامة وتغنيه عن النبوة، ودعوى النبوة منه كانت عندهم حيلة توسل بها الى اقناع الناس بالاذعان لمبادئه وفيها مصلحتهم وسعادتهم ان لم يكن فى الآخرة التى هى أيضا من الغيبيات غير الآمنة من أن يثار عليها ، ففى الدنيا . والاحتيال الذى لايتفق مع النبوة يتفق مع العبقرية . وهكذا

تكون عبقرية محمد مفترقة عن نبوته

فلو قلنا اعتراضا عليهم ان العبقرية لايمكنها ان تعدل رتبة النبوة وحسبنا فى ذلك امكان اتفاق العبقرية مع الاحتيال الذى هو نوع من النفاق ، لكان جوابهم نعم ان النبوة أفضل وأسمى من العبقرية لولا انها من الغيبيات التى تثار عليها بأنها أمر لاحقيقة لها ولا وجود الا فى مخيلة أهل الدين . فخلاصة كلام الدكتور زكى مبارك ان نبوة محمد لا يمكن الدفاع عنها تجاه الثائرين عليها ما أمكن الدفاع عن عبقريته ، ويكون جوابى على هذا الجواب أن محمدا العبقرى من غير نبوة لايصير زعيم المسلمين وانما يصير زعيم العرب ولا جميع العرب بل الذين لايؤمنون بنبوته . فهو زعيمهم ونبينا نحن المسلمين ، لاارتاب يوما فى نبوته ولأننى ندافع عنها وأنا أحقر أمته دافعت عنها فى هذا الكتاب لا لأن نبوته محتاجة الى مدافعتى بل لأنى محتاج الى شفاعته يوم يعلم أيهما أحب اليه ممن هو نبيه أو زعيمه؟ على ان النبوة تتضمن الزعامة أيضا من غير عكس

وقال الدكتور أيضا : « انهم يصنعون بتاريخ الرسول ماصنعوا بتاريخ الأمة العربية . لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعا تاما للمعجزات فالنبى لم يكن رجلا عبقريا وانمــا خصه الله بالرسالة فكتب له الخلود ، والعرب لم يكونوا أمة قوية وانما ارتفعوا بفضل الرسول »

كنت أعيب على الترك المنتمين الى الانقلاب الذى أحدثوه قبل سنين فى تركيا ، انهم لايعترفون بأى حق وفضل للاسلام على الترك فاذا بى أرى طائفة من العرب الذين انتشر منهم هذا الدين ، لا يبدون الاعتراف بفضل النبى العربى على العرب . وكأن العرب الأحداث يريدون أن يأخذوا اللادينية من الترك الأحداث كما أخذ الترك المسلمون دينهم من العرب القدماء . ان النبى عند الدكتور زكى مبارك لم يكن محتاجا فى عبقريته وخلود اسمه الى أن يكون بفضل الله عليه نبيا ، كما لم يكن العرب محتاجين فى نهضتهم ورقيهم الى أن يدينوا بالاسلام بفضل الرسول . فلو كانت للنبى عبقريته

من غير نبوة لكفته فى خلود اسمه ، ولو كانت للعرب قوتهم من غير دين لكفتهم فى رقيهم ونهضتهم تحت زعامة هذا العبقرى العربى بل تحت زعامة أى عبقرى كان .

وهذا من الدكتور غاية فى النكران بفضل الله على النبى العربى وبفضل الاسلام ورسوله على العرب . فهو أجرأ فضولى تعصب لرسول الله بما يُسخط الله وتعصب للعرب بما يُسخط الرسول . لكن القرآن يقول لنبيه ردا على الدكتور : ( ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ) وقال عن العرب : ( هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين )

وحتى الأستاذ أحمد أمين يكذِّب دعوى الدكتور فى العرب حيث يقول فى مقالته المارة الذكر المعنونة : « محمد الرسول المصلح »

« لقد نشأ فى جو خانق وبيئة مضطربة فاسدة وحالة اجتماعية تبعث اليأس ؛ فجعل من الشر خيرا ومن الاضطراب أمنا ومن الفساد صلاحا . فالعرب قد وهبت نفسها للأصنام ، وجعلت البيت الحرام ـ الذى بنى ليعبد فيه الله ـ مباءة لثلاثمائة حجر أو تزيد ، تعبدها من دون الله . ومن تنصر منهم أو تهود فقد تنصر أو تهود بنصرانية أو يهودية فقدت روحها ، وتقسمتها المذاهب والشيع ودخل على تعاليمها الأولى كثير من البدع فلم تنجح فيهم يهودية ولا نصرانية ، والحنفاء الذين ظهروا قبل الاسلام كان صوتهم ضعيفا خافتا ، عجزوا ـ كما عجزت اليهودية والنصرانية ـ أن يغيروا شيئا من حياة العرب وعقلية العرب . ثم كانت حياتهم سلسلة سلب ونهب ، كل قبيلة وحدة بل كل فرع قبيلة وحدة ، وكل قبيلة فى عداء مع من جاورها ، لا أمن على الحياة ولا أمن على المال ، لا يفقهون معنى أمة ولا يفهمون معنى لحياة سياسية أو

مدنية، ولا يعرفون معنى لعلم أو فن ؛ فلو أنت قلت ان أحدا من الأنبياء والمصلحين لم يجد من اختلال أمته وفسادها ماوجد محمد من العرب وغير العرب، ماعدوت الصواب»

وانى كنت قرأت قبل أن رأيت مقالة الدكتور زكى أشياء كثيرة عن خصوم المعجزات، فرأيت منهم من يفرق بسبب المعجزات بين الرسل الذين لانفرق بين أحد منهم، ومن يفرق بين معجزة ومعجزة ، وما رأيت مثل الدكتور من يفرق بين الرسول وبين رسالته ومعجزاته . فمن ذا الذى قال له إن رسالة محمد ﷺ وانسانيته شيئان مختلفان بحيث يبحث أيهما بفضله كتب الخلود لمحمد ؟ فالدكتور يكاد يحنق على نبوة محمد واسلام العرب بسبب نبوته لان الناس أفنوا تاريخ انسانية محمد وعبقريته فى نبوته كما أفنوا تاريخ العرب فى الاسلام . فكأنه ﷺ لو لم تكن له معجزاته من عند الله ولم يسلم العرب على يده لكتب التاريخ عن أمة العرب وعن محمد العربى أكثر وأبهر مما كتبه أو على الأقل مايعدله (١)

فلعل الدكتور تشبع أولا بالدعوى القومية التى تعلمها الشرق من الغرب بعد ان نبذها النبى العربى وسماها دعوى جاهلية، ثم رأى بعض الأبطال القوميين المعاصرين — وانى لعلى يقين من أنه لايعرف زيفهم من خالصهم — فتمنى لو كان محمد ﷺ كأحدهم ، ولم يصبغ عبقريته بالصبغة الدينية الغيبية ، فلعل مجد العرب كان اذ ذاك باقيا لهم ولم يذهب بذهاب قوة اسلامهم . وهنا يطول الكلام اذا وفى بعض حقه

لكنى أوجز القول فأسأل الدكتور : أكان يكون بيد محمد ﷺ هذا القرآن لو لم يكن نبيا ، فان أجاب بالايجاب يلزمه أن لا يكون مؤمنا بأن القرآن كلام الله أو على الأقل يلزم أن تكون نسبة القرآن عنده الى محمد أصح من نسبته الى الله ،

---

(١) ومما هو جدير بالاعتبار ان الدكتور على الرغم مما يرى انه من غلاة دعاة القومية يحدث المفاضلة والمنافسة بين نبوته صلى الله عليه وسلم وانسانيته ولا يستطيع أن يحدثهما بين نبوته وعربيته لان سيدنا محمدا نفسه أفنى قوميته فى دينه

ويلزمه أيضا أن يكون القرآن ومنشئه أعني محمدا كاذبين في دعوى أنه لو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله اذ لايجرأ انسان عاقل على أن يقوم بمثل هذه الدعوى لأى كتاب ألفه ، لان فى امكان البشر أن يأتى بمثل كلام أحد منهم مهما كان مبلغه فى القدرة على انشاء الكلام . وان أجاب بالنفى ولم يكن نقصان القرآن عن عبقرية الزعيم العربى خسارة لاتقبل التلافى لزم أن لايكون الدكتور مؤمنا بعبقرية القرآن ايمانه بعبقرية محمد . ثم لو لم يكن القرآن لما اعتنى بلغة العرب وخدمها من خدمها من علماء العرب والعجم تلك الخدمة التى لم تخدم بمثلها أى لغة أمة فى الدنيا والتى لا يقدرها الجيل الحديث من العرب حق قدرها ؛ بل لو لم يكن القرآن لما كان بقاء اللغة العربية والعرب الى يومنا هذا مضمونا ؛ وما ظن الدكتور زكى مبارك بمصر : آلعرب أتوها بالعربية والعروبة أم القرآن والاسلام[1] ؟

فلا يستطيع عربى عاقل أن ينكر كون عبقرية محمد العربى كلها أو جلها بفضل القرآن الذى حصل عليه بفضل رسالته من الله ؛ حتى ان المنكرين لمعجزات نبينا ما وسعهم انكار معجزة القرآن؛ ولا يكون القرآن معجزة الا اذا كان من عند الله ، ولا يكون من عند الله الا اذا كان محمد رسول الله بالمعنى المعروف الغيبى للرسالة . وانظر فيما قاله الدكتور وتأمل جدا : « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان وبفضل الكتاب

---

(١) لاتجد فى العالم لغة من اللغات الراقيسة الا وقد طرأت عليها تغيرات كبيرة وتطورات بحيث لايفهم الجيل الحديث لغة الجيل القديم من نفس القوم أو يستثقله ، الا اللغة العربية الفصحى فتجد ماقيل أو كتب قبل أكثر من ألف سنة من النظم أو النثر العربى كأنه قيل اليوم أو كتب أو أفضل مما قيل اليوم أو كتب . وهذا بفضل القرآن الذى ثبت على ما كان عليه من لفظه المعجز لم تتبدل منه ولا كلمة واحدة وبقيت لغة الفصحاء والبلغاء فى كل عصر غير متباعدة عن جاذبية محور القرآن، وكان من أثر تبعية الفصحى للقرآن غير منقادة للتطورات التى يقتضيها الطبيعة البشرية ان اتسعت مسافة الفرق فى اللغة العربية بين الفصحى الثابتة بثبات القرآن والعامية المتغيرة بتغير الزمان وأصبحت أكثر مما بينهما فى أى لغة أخرى

الذى بلّغه عاش البيان (١)

وقال الدكتور أيضا : « وما يجوز عنـد جمهور المسلمين أن يقال : ان الله خص محمدا بالرسالة لأنه كان وصل الى أسمى الغايات من الوجهة الانسانية ولا أن يقال : ان الله اختار ذلك الرسول من العرب لانهم كانوا وصلوا الى غاية عالية من قوة الروح . »

جمهور المسلمين الذين عاتبهم الدكتور لايجهلون أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، ولـكن أدب الاسلام وفلسفته لا يسوغان دعوى الاستحقاق بين يدى الله لأى عبد من عباده وانما يقال ان أثاب فبفضله وان عاقب فبعدله . فان كان ﷺ وصل الى أسمى الغايات من الوجهة الانسانية ـ ولا ريب فى انه وصل ـ فقد كان وصوله اليه أيضا بفضل خاص من الله به ؛ وان كان العرب اختار الرسول منهم لانهم كانوا وصلوا الى غاية عالية من قوة الروح ، ولـكن هل هو قبل اسلامهم أو مع اسلامهم أو بعده بقليل أو كثير ، وعلى كل حال ان كانوا وصلوا الى غاية عالية فذلك بفضل الله أيضا

وقال أيضا وأنا أنقل عنه غير متبع لترتيبه :

« أعتقد ان شخصية النبى محمد لم تدرس حق الدرس الى اليوم فى البيئات الاسلامية

---

(١) وانى لاأعلق على هذا القول غير تذكير ما كنت قلته فى أوائل الباب الأول ( من الـكتاب الـكبير ) عند مناقشة أقوال الأستاذ فرح أنطون منشىء مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده فى الزمان الماضى :

« والى الله المشتكى من الرياء الذى لايزال الجيل الأخير من الـكتاب المتفرنجين ينتقبونه ، ماأشفه وما أغلظه ! فلو لم يكن لأهل الدين فخار ولا لهؤلاء عار الا اختلاف الطائفتين فى الاخلاص والرياء لـكفاهما ، وهل محجة الـكمال التى يأملون أن يصل اليها البشر فى المستقبل ، وهم معاشر العقلاء المتفرنجين قد وصلوا اليها من الآن ، مرآة الناس ومصانعتهم ؟ وهؤلاء المراؤن مزيفون أشد وأشنع من المجرمين أهل المهنة الملومة ، لانهم يزيفون النقود والمراؤن يزيفون أنفسهم »

وقول الدكتور زكى هذا يؤيد ما ذكرته سابقا فى مغزى تخصيص معجزة القرآن بالاعتراف من منكرى المعجزات قائلين انها معجزة عقلية انسانية !!

لان المسلمين يجعلونه رسولا فى جميع الأحوال فهو لا يتقدم ولا يتأخر الا باشارة من جبريل ؛ ومعنى ذلك انشخصية محمد فى جميع نواحيها شخصية نبويةلاانسانية»

قلت وكأن معنى قول الدكتور هذا ان نبوة سيدنا محمد تنافى انسانيته . ثم قال

« يضاف الى هذا ان جمهور المسلمين يعتقدون ان النبوة لاتكتسب ، وهم يعنون بذلك انها لاتنال بالجهاد فى سبيل المعانى الانسانية وانما هى فضل يخص الله به من يشاء . »

قلت وهو كذلك رغم أنف الدكتور ، لأن ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ثم قال :

« وانما غلبت هذه العقيدة لأن الاسلام نشأ فى بيئات وثنية أوخاضعة للعقليات الوثنية ، والرسول لم يشق بين قومه الا لأنه حدثهم بأنه بشرمثلهم ولو انه كان استباح الكذب لحدثهم بأن فيه عنصرا من الألوهية لوصل الى قلوبهم بلا عناء »

وأنا أقول هل قوم الرسول الذين شق هو بينهم ولم يصل الى قلوبهم بلاعناء لأنه لم يحدثهم بان فيه عنصراً من الألوهية ، هم العرب الذين كان يقول عنهم الدكتور: « ان الله اختار الرسول منهم لأنهم كانوا وصلوا الى غاية عالية من قوة الروح » ؟

ان المسلمين أيها الدكتور من العرب وغيرهم لو استباح النبى الكذب فحدثهم بان فيه عنصراً من الالوهية لما آمنوا به نبيا بله ايمانهم به على ان فيه شيئا من الألوهية . ولا مناسبة أصلا بين عقيدة المسلمين أن النبوة فضل من الله يخص به من يشاء من عباده ، التى هى عقيدة التوحيد الخالص وبين عقليات وثنية تتصور فى النبى عنصرا من الألوهية

الحق ان المسلمين وأعنى بهم مايعنى الدكتور بجمهورهم ممن كانوا على مذاهب الائمة الأربعة أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد والذين أخذ أولئك الائمة منهم ومن

كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة مثل الأشاعرة والماتريدية ومعهم كثير من غيرهم ماأنكروا فى أى وقت من الأوقات كون النبى انسانا ؛ وانما الطائفة العصرية المارة الذكر ينكرون أن يكون الانسان نبيا يأتيه وحى من الله على طريقة خاصة معلومة عند أنبياء الله الذين نعرفهم بأسمائهم المذكورة فى القرآن ، وربما يأتيه ملك أوينزل عليه كتاب أيضا . وهذا مراد الدكتور مما عبر عنه بعنصر من الألوهية غيرَ مصيب فى تعبيره ، وانما الدكتور ومن فى عقليته يعتبرون النبوة الحقيقية عنصرا من الألوهية ويزعمون انها لا تأتلف مع البشرية . (١) وهى عقلية قديمة جاهلية كافحها القرآن فى كثير من آياته كقوله (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ماأنزل الله على بشر من شىء ) وقوله (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ) وقد سبق أن الدكتور طبق هذه الآية بغير حق على الذين يخالفهم من المسلمين فى العقيدة، مع أن الآية تنطبق عليه نفسه ومن على شاكلته كما نبهنا اليه فى محل تطبيقه أيضا . فالرسول لم يشق بين المسلمين حين حدثهم بأنه بشر مثلهم ، كما أنه ماستباح الكذب عند ماحدثهم بأنه نبي يأتيه وحى من الله ، والذين يتصورون المنافاة بين الحالتين من الجاهليين القديمين والحديثين لم يكن خطأهم فى أنهم ماقدروا النبى حق قدره فحسب بل أصل اخطائهم انهم ماقدروا الله حق قدره كما نبه عليه القرآن الحكيم لأنهم بانكارهم النبوة المعروفة عند المسلمين أنكروا قدرة الله على ارسال الرسل وانزال الكتب وانظر قول القرآن الحكيم أيضا : (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ) والله تعالى أذن لاتصال الانسان به بأن خلق فيه العقل والادراك حتى زعم « بلوتن » الاسكندرى ان الانسان يتحد

(١) حتى ان النبي الذى لم يستبح الكذب حين قال لقومه انه بشر مثلهم استباحه عند الدكتور حين قال لهم انه نبي بالمعنى المعروف الذى يتوهم الدكتور أن فيه عنصراً من الألوهية وحين قال ان القرآن كلام الله لا كلامه ، انظروا الى قوله السابق « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان الخ » تجدوا فيه تصديق ما أقول

مع الله عند ادراك أى شىء من الأشياء وقد تقدم بحثه ( فى الكتاب الكبير ) عند النظر فى الفلسفة الحسبانية فى آخر الفصل الأول من الباب الأول . فالله الذى خلق العقل وجعله صلة بينه وبين الانسان من غير أن يخرجه من البشرية على خلاف زعم « بلوتن » قادر أيضا على أن يجعل بينه وبين من اصطفاه من عباده صلة أخص من صلة العقل وينزل عليه وحياً أوضح من وحى العقل من غير أن يخرجه أيضا من البشرية على خلاف زعم الدكتور زكى وأمثاله

## هل يجوز أن تكون النبوة مكتسبة

فالنبى انسان له اتصال خاص بالله تعالى فوق الاتصال الذى يحصل لكل عاقل عندتعقل ربه بالنظر فى أدلة الكون فيأتيه وحى منه ويكون ايحاؤه اليه فوق الهام العلوم العالية للعلماء والمشروعات العظيمة للعظماء . فهذه المرتبة الانسانية هى التى لاتكتسب وتمتاز بكونها فضلا من الله خاصاً لمن يصطفيه من عباده ، والتى يغيظ الدكتور زكى مبارك أن تكون كذلك . وليس هو أول من دارت هذه الفكرة فى خلده [1] ونحن بفضل الله . نبين المحاذير المترتبة على كون النبوة مكتسبة :

فأولا يلزم على هذا التقدير ان لا يكون محمد ﷺ خاتم النبيين ، رغم كونه منصوصا عليه فى القرآن ، لأن باب الاكتساب يلزم أن يكون مفتوحا لكل طالب من أمة محمد وغيرها ، حتى انه يلزم أن يكون فى امكان الدكتور زكى مبارك مثلا أن يعد نفسه من المرشحين للنبوة وأن يحصل عليها كما حصل على الدكتوراهات

---

(١) لم أرد بقولى هذا موافقة الدكتور على ماقاله من أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لاتكتسب ، اذ المفهوم منه ان فى المسلمين من يفترق عن الجمهور ويقول بالنبوة المكتسبة ، بل فى تسميته النافين للنبوة المكتسبة « بالجمهور » اشارة الى انهم عامة المسلمين والقائلين بخلافه خاصتهم مع ان القول بالنبوة المكتسبة لايمكن الا أن يكون قول من لايؤمنون بالنبوة الحنيفية المعروفة فى الاسلام وفى سائرالأديان السماوية . نعم سمعت بعد مجيئى الى مصر ان الشيخ جمال الدين الأفغانى اتهم بهذا القول فى الاستانبول وكانت صحة التهمة غائبة عنى منذ سمعت حكايتها ، فهل للدكتور زكى

وثانيا لوكانت نبوة سيدنا محمد مكتسبة كما يريدون أى عبقرية وبطولة مجردة عن الغيبيات كان ﷺ ـ وحاشاه أن يكون ـ كاذبا فى اسناد القرآن الى الله والكذب مهما تصور العقل المصرى ائتلافه بالعبقرية والبطولة فالحق عندى كونه مخلا بهما أو على الأقل مخلا بكمالها كما أنه مخل بالنبوة

وثالثا لم يكن منشأ اعتقاد المسلمين أن النبوة لا تكتسب هو العقلية الوثنية التى ورثوها من آبائهم كما ادعى الدكتور اذ لم يتخذ المسلمون نبيهم إلها ولم يعبدوه فى وقت من الأوقات وليس فى عقيدة كون النبوة مرتبة تفوق مراتب الحكماء والعظماء المباقرة من الناس ولا تنال الا بفضل من الله واصطفاء خاص وتكون علامة هذا الاصطفاء من الله مايظهره على يد النبي من خوارق نسميها معجزات . ليس فى هذه العقيدة وفى تلك المرتبة شىء من الوثنية أو الألوهية للنبي وانما النبي يكون بهذه المرتبة عبد الله الخاص حتى اذا أتاه ملك من الله لانزال الوحى فليس هو أيضا الامن عباده المكرمين . ومنشأ السعى لجعل النبوة مكتسبة من الساعين عدم الايمان بالنبوة الحقيقية التى عرّفناها واستكثار تلك المرتبة للبشر حتى رموا عقيدة النبوة الحقيقية بالعقيدة الوثنية كما استكثر اخوانهم المتقدمون من جهلة أقوام الأنبياء فقالوا ( إن أنتم إلا بشر مثلنا ) . فيريد دعاة النبوة المكتسبة أن يجعلوا النبوة ملكا مشاعا بين

---

مبارك علم بموقف الشيخ جمال الدين من هذه المسألة ؟ والا فمن ذا الذى شذ عن جمهور المسلمين عند الدكتور وقال بالنبوة التى تكتسب والتى يفهم ان الدكتور نفسه يفضلها على النبوة فى مذهب الجمهور ؟

واذا كان اسناد القول بأن النبوة تكتسب الى الشيخ جمال الدين الأفغانى صحيحاً فتعريف النبي الذى نقلته من قبل عن كتاب الشيخ محمد عبده تلميذ الشيخ جمال الدين يرمى الى هذه النبوة المكتسبة على الرغم من كون ظاهر كلام الشيخ التلميذ فى التعريف يأباها حيث بنى أمر النبي المعرف على الجبلة والفطرة ، لان امتيازه فى الجبلة والفطرة غير مناف للاكتساب بل انه يسعى لاكتساب النبوة ويجد من فطرته الممتازة عونا له فى اكتسابها . ولا يعقل ان يكون للشيخ التلميذ قول ثالث فى النبي غير النبي الحقيقى وغير النبي الزائف المكتسب

المجتهدين فى استجماع الأوصاف اللازمة لارشاد الناس واقتيادهم الى مافيه خيرهم وصلاحهم . ولا يظن ان المقصود من رغبتهم فى أن تكون النبوة مكتسبة محاولة فتح الطريق امام المستعدين لاحراز مرتبة النبوة من الناس العاديين ، بل المقصود تنزيل الأنبياء الى درجة الناس العاديين بتجريدهم عن المعجزات وغيرها مما يخالف سنة الكون

ورابعا، بماذا يعلم أن الساعى لاكتساب منصب النبوة قد بلغ مسعاه وأصبح نبيا من أنبياء الله ؟ بماذا يعلم الناس ويعلم هو نفسه قبلهم ؟ وليس لنبوته علامة يقتنع بها فى نفسه كنزول الوحى ولا علامة تقنع الناس مثل ظهور معجزة على يده ، لأن أنصار النبوة المكتسبة لاتعجبهم الأمور الخارجة عن سنن الكون ، وقد قلنا ان النبوة نفسها بالمعنى الذى نريده معجزة خارجة عن سنن الكون فلهذا لاتعجب الذين لايعجبهم المعجزات . وقد يكون أساس الخلاف فى مسألة النبوة والمعجزة أعمق من هذا : وهو ان الدين يستند الى الأسرار والمغيبات ، ولهذا جعل الله تعالى فى رأس أوصاف المهتدين بهدى كتابه ، الايمان بالغيب فقال : ( الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ) ومن شنيع الخطأ أن يحمل الغيب على مايقابل الواقع كما فعل الأستاذ فريدوجدى فى إحدى مقالاته فى « مجلة الأزهر » وقد سبق نقله ، بل المراد به ماغاب عن الحاسة كالملائكة والجن والوحى وأحوال الآخرة من البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب قبل وقوعها ، وكالمعجزات فى كيفية وقوعها غير مستندة الى الأسباب الطبيعية . وأعظم الغيبيات اللهُ سبحانه وتعالى

فالنبوة اتصال الانسان بهذه الغيبيات التى لايحيط بها نطاق الطبيعة . ومن هذا قال « استوارت ميل » من لايؤمن بموجود فوق الطبيعة ولا بتدخله فى شئون العالم لايقبل فعل انسان خارق للعادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقا بمايخرجه عن كونه معجزة »

وخامسا من أهم الفروق بين النبي الكاسب والنبي الموهوب له أن الأول يخطئ ويصيب والثاني لايخطئ أبدا فيما بلغه عن الله ، وان أخطأ فى اجتهاده فلا يستقر على الخطأ من دون أن ينبه عليه . والدكتور زكى مبارك أطلق القول ورماه على عواهنه من غير تمييز بين الأحوال المختلفة فقال : « كان محمد فى سريرة نفسه انسانا يخطئ ويصيب بدليل ماوجه اليه من اللوم والعتاب فى القرآن »

وسادسا ، النبي الحقيقى المعصوم عن الخطأ المؤيد بالوحى والمعجزات التى هى علامات رسالته من الله وامتيازه على الناس، للناس حاجة اليه ليهتدوا بواسطته الى الطريق التى يحب الله ربهم أن يسلكوها والى نوع العبادة التى بها يعبدونه . وليس لأحد غير هذا النبي أن يعين بالضبط تلك الطريق وذلك النوع مهما كان مبلغه من العلم والحكمة فالعلماء والحكماء يمكنهم أن يضعوا للناس مناهج الأخلاق ومبادئ الأفكار ويعينوا لهم وظائف نحو الخالق والخلق ولكن لايكون أى واحد من هذه المناهج والمبادئ دينا . وانما الدين يأتى من الله ويبدأ بالنبي كما قال العالم الكبير مترجم « المطالب والمذاهب » (١) فلا دين قبل مبعث النبي ولا يوجد دين فلسفى وان وجدت فلسفة دينية . فاذا جاء نبي وأعلن الدين فليس لأحد أن يستغنى عن الاعتراف به ، فهو كقانون الدولة يطيعه العامة والخاصة . وما ادعاه الأستاذ فريد وجدى فى كتابه « الاسلام دين عام خالد » ان علماء الغرب غير محتاجين الى الاهتداء بهدى الشرائع المنزلة بحجة انهم أنفسهم واضعو الشرائع والمذاهب . مبنى على مذهب النبوة المكتسبة اللادينية وانكار النبي الحقيقى المبعوث من قبل الله الذى يكون وضع الدين من

---

(١) كتاب جليل فى تاريخ الفلسفة للفيلسوف الفرنسى « پول ژانه » ترجم قسم ما وراء الطبيعة منه الى اللغة التركية هذا العالم الكبير التركى الملقب حمدى الصغير الذى قلما كان يوجد مثله فى عالم الاسلام والذى فجعت بنبأ وفاته قبل أشهر ولقد مات رحمه الله غريبا فى بلاده حيث لم يبق لها اليوم علاقة بمثله من علماء الاسلام ومن الغريب المؤسف ان مصر لم تتعود معرفة نوابغ العلماء من غير أهلها لاسيما الترك

اختصاصه فقط . فعلماء الغرب حتى الالٰهيون منهم الذين لا يعترفون بالأنبياء والذين يهملون فى فلسفتهم مبحث النبوة لادينيون على الرغم من أن لبعضهم أفكاراً عالية فى الالٰهيات . وقد ذكرت فى أوائل الباب الأول من الكتاب الكبير ان لكون دينهم الرسمى النصرانية أثراً فى إهمالهم مبحث النبوة لأن النبوة فى هذا الدين أخرجت عن ماهيتها الأصلية ولُبّست بالألوهية فأضيعت معقوليتها . ومع هذا كان واجبهم البحث والتفكير فى مسألة النبوة على اطلاقها ولا يعذرون فى السكوت عنها لمانع خاص لنبوة سيدنا عيسى عند المسيحيين ، لاسيما والدين السماوى فى الدنيا لا يبتدئ بالدين المسيحى فله تاريخ قبل المسيحية وأنبياء قبل المسيح . فماذا قول فلاسفة الغرب فى نبوة هؤلاء الانبياء التى لا تشبه نبوة عيسى عليه وعليهم السلام والتى يلزمهم ان يصدقوها ان لم يصدقوا نبوة محمد ﷺ بالغيرة المسيحية ، فماذا قولهم فى تلك النبوات وماذا موقفها فى فلسفتهم ان لم يكن محل فى الفلسفة لنبوة المسيح على الشكل الذى يتصوره المسيحيون ؟ فلو نظروا فى نبوات الانبياء ودرسوها لاعطاء حقها فى الفلسفة بعد الفلسفة الالٰهية لكانوا أدوا واجبا من واجباتهم ، وربما أصلحوا بفضل درسها ماطرأ على نبوة المسيح فى عقيدة النصرانية من الغلو المفسد للنبوة والالوهية معا . فيظهر أنهم رأوا أنفسهم فى حالة الاضطرار بين رفض المسيحية الحاضرة وانقاذ النبوة أو رفض الجميع أو اهماله الذى هو الرفض أيضا لكنه فى رفق وهوادة ، فاختاروا الأخير . فلو كان دين فلاسفة الغرب الالٰهيين الاسلام لما وقعوا فى هذا المأزق ، أو لو كانوا مستغنين عن اتباع شرائع الانبياء كأنهم أنفسهم ليسوا دون الانبياء كما ادعى الاستاذ فريدوجدى . لما أحجموا عن المصارحة فى احقاق الحق وابطال الباطل كما هى دأب الانبياء

هذا حال الفلاسفة الالٰهيين فى الغرب الذين لا معنى لعدم اعترافهم بوجود رسل الله بعد الاعتراف بوجود الله غير المعنى الذى ذكرته . أما الأساتذة المصريون منا

ففيهم من يقلد ملاحدة الغرب الماديين ولا يعترف بوجود الله ، والمعترفون به لايعترفون علميا فيفترقون عن الالٰهيين الذين يعتبرون مسألة وجود الله في رأس المعلومات المثبتة كما سبق قول العلامة « باستور » فى ذلك وقول الفيلسوف الكبير « ديكارت » : « ان الله مبدأ العلم كما أنه مبدأ الوجود » ويقلدون الالٰهيين فى مسألة النبوة فلا يعترفون بالأنبياء مع وجود الفارق بين موقفهم وموقف الذين اقتدوا بهم. فكل تعللهم وتلعثمهم فى مبحث النبوة كانكار المعجزات مطلقا تحت ستار انكار المعجزات الكونية وميلهم الى النبوة الكسبية أو النبوة الانسانية التى لا تخرج على الطبيعة ؛ كل ذلك منشأه عدم الاعتراف بالأنبياء مع الظهور فى مظهر الاعتراف . اذ لا معنى للقول بوجود الأنبياء مع تجريدهم عن المعجزات ؛ وقد عرفت معنى اعترافهم بمعجزة القرآن ، فلو كانوا صميميين فى القول بوجود الأنبياء لما فرقوا بين معجزة كونية وغير كونية الى حد الطعن فى معجزات الأنبياء المتقدمين من أجل انها معجزات كونية والطعن فى سنة محمد ﷺ المضبوطة فى كتب الحديث للاحتفاظ بسنة الكون ، وهذا خلط منهم للمذهب الالٰهى بالمذهب المادى ورجعة الى النزعة الالحادية بعد الاعتراف بوجود الله وأنبيائه ؛ فلو أن القائلين بوجود الله من فلاسفة الغرب اعترفوا بوجود الأنبياء لما ترددوا فى الاعتراف بمعجزاتهم كونية وغير كونية ، اذ لامانع بعد القول بوجود الله من تدخله فى الكون واحداث تغيير وقتى فى سنته لتأييد أنبيائه

فنحن لانرى فرقا بين انكار الأنبياء بتاتا وبين الاعتراف بهم مع انكار معجزاتهم التى تتعدى حدود نظام الطبيعة والتى هى طوابع رسالتهم من الله المسيطر على الطبيعة ونظامها . والذين ينشدون أنبياء طبيعيين فكأنما يريدون أن تكون رسالتهم من الطبيعة لامن الله ، انظر قول الدكتور طه حسين بك فى مقالته النفيسة المنشورة فى مجلة « الثقافة » بعنوان « القلب الرحيم » ؛

« وما رأيت أعجب من أمر محمد (ص) فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء رجل كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات فيتبرأ منها ويعلن اليهم انه بشر مثلهم[١] وانه لم يرسل ليبهر العقول بالاحداث العظام ، وانما أرسل ليتلو على الناس قرآنا يتحدث الى عقولهم فيملأها هدى ويتحدث الى قلوبهم فيشعرها رحمة وبرا ، ثم لايخلو أمره من هذه المعجزات التى تبهر العقول وتسحر الألباب دون أن تحدث فى طبيعة الاشياء حدثا أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف ، انما هى معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة مفحمة للمكابرين »

فكأنه يتعجب من أمر محمد ﷺ فى كونه نبيا لا يشبه الأنبياء وفى كون معجزاته لاتشبه المعجزات ولا تخرج عن مألوف العادات[٢] وهذا أوضح تعريف للنبي الطبيعى يذكره كتابنا العصريون ميزة لنبينا على غيره من الأنبياء ويسوقونه فى صدد المدح ، فكأن النبوة كانت على خلاف الطبيعة فى الأنبياء حتى أصبحت فى نبينا طبيعية . لكن عيب المخالف للطبيعة عندهم انه مستحيل الوقوع وهو يتضمن الطعن فى نبوة غيره من الأنبياء طعنا لايرضاه الاسلام لكون نبوتهم مكفولة من القرآن . وفضلا عن ذلك فان هذا الطعن وذاك المدح انما يكونان طعنا ومدحا على مزاج الملاحدة الماديين القائلين باستحالة مايخالف سنة الطبيعة؛ حتى اذا سمعه المستشرقون المسيحيون انقلب القدح فى نظرهم مدحا والمدح قدحا واعترافا من كتاب المسلمين بعدم كون محمد ﷺ نبيا ، لان النبى الحقيق لابد أن يكون له حالة يضيق عنها نطاق الطبيعة وتتعداها الى مافوقها لتكون علامة رسالته من الله ويكون الذين يتبعونه على بينة من

---

(١) سنجيب عنه

(٢) وكأن معجزاته ما يعبر عنه عند الأدباء بالسهل الممتنع كاسلوب الدكتور طه حسين بك فى كتاباته !!

من أمره . وما دامت هذه الحالة ممكنة للنبي باذن الله في نظر المعترفين بوجود الله فماذا السبب الدافع للعصريين الى التزام تجريد النبي عن تلك الحالة المميزة ؟ ولا يقال ان أفعاله المصلحة ونتائجها الصالحة تكفيانه ميزة وعلامة . وهذا هو السؤال الذي أوردته على نفسي قبيل الشروع في انتقاد أقوال الدكتور زكي مبارك ، ثم لم أذكر جوابه والآن أذكره : وهو ان الصلاح والفساد كثيرا مايختلفان باختلاف الانظار، فالحكم القطعي بصلاح الافعال ونتائجها يتوقف على معرفة ان فاعلها مصلح حقيقي ونبي من أنبياء الله ، فلو توقفت معرفة كونه نبيا أي مصلحا حقيقيا على تبين الصلاح في أفعاله ونتائج أفعاله كان دورا . وفضلا عن هذا فان بُعد مابين المشروعات ونتائجها يقتضي في الأكثر مرور أزمنة طويلة قد يظهر في آخرها أن القائم بدعوى الاصلاح كاذب في دعواه . فيجب على الناس أن يكونوا من أول أمرهم مع مدعي النبوة الذي يتولى هدايتهم الى الدين الحق ، على بينة من صدقه فيما ادعاه

فالقاعدة المتخذة للناس مع النبي الحقيقي المرسل اليهم من قبل الله أن يبحثوا فيه عن علامة من الله تدل على رسالته اليهم ، وهذا مما لايجوز أن يشك فيه العاقل ان كان لله رسل وأنبياء حقيقيون وكانت للناس حاجة الى وجودهم . فهل هم موجودون، وهل للناس حاجة اليهم ؟ فلننظر الآن في هذه المسألة وبالنظر فيها نكون قد أدينا الواجب الثاني من الواجبين الرئيسيين اللذين تولينا القيام بهما في الكتاب الكبير مستعينين بتوفيق الله سبحانه وتعالى وذاك الواجب الثاني هو اثبات وجود أنبياء الله

## اثبات وجود الأنبياء

وجود الأنبياء ان لم يكن ضروريا ــ كما قلنا في أول هذا الكتاب الصغير الذي كان الباب الثالث من الكتاب الكبير ــ كضرورة وجود الله في ايضاح فلسفة العالم بجميع أجزائه ؛ الا أن للنبوة أيضا أهمية في ايضاح فلسفة الانسان الذي هو جزء

من أجزاء العالم، أهمية تجعلها جديرة بأن تعد من المطالب الفلسفية ، ولا شك أن النبوة انما تتصور بعد مطلب الألوهية وتنبني تماما على الاعتراف بوجود الله

فاذا كان الله موجودا وهو خالقنا وخالق كل شيء كان أول واجب الانسان التفكير فى أن خالقه لايتركه سدى ، لاسيما وقد خلقه ممتازاً على سائر خلقه بالعقل والارادة فيلائم عقله الذى به وجد ربه واستدل على وجوده كل الملاءمة أن تكون عليه واجبات تجاه من خلقه . لكن العقل لايستطيع تعيين هذه الواجبات بالضبط والتفصيل لاعقل أحد يفكر فى نفسه ولا عقول العلماء والحكماء الذين يختلف آراؤهم ومذاهبهم فى تعيين الحق والباطل والخير والشر [١] فلا يدرى أيها يوافق مرضاة الله من تلك الآراء والمذاهب المختلفة . ولا يصدق العقل أن يكون الحق والصواب فى رأى الكثرة لأن هذه طريقة برلمانية لاتغنى من الحق شيئا ، ألا يرى أن التحقيق والترجيح فى المسائل العلمية لايبنى على عدد الأصوات والآراء . ولو استقر القرار على أن يعمل كل انسان بما يؤدى اليه فكره واجتهاده كان فوضى . فى وسط هذه الحيرة والتردد يحس الانسان من صميم قلبه الحاجة الى رسول من عند ربه يسدد خطاه ويبلغه أوامره ونواهيه ، فهو وحده يكون كمندوب رسمى من جانب الملك يحمل مرسومه من بين المندوبين من تلقاء أنفسهم

ومهما كان يوجد فى غير حامل المرسوم من هو أهل أو بالأصح من يرى نفسه أهلا لأن يقوم بما عهد الملك الى حامل مرسومه أن يقوم ، فلا يعتبر مندوب الملك ولا يجب على الناس أن يعترفوا به مندوبه ؛ فكذلك النبى الذى يراه منكرو المعجزات

---

(١) ومن هنا يرد اعتراض قوى على تعريف النبى بما عرفه الشيخ محمد عبده وقد نقلناه سابقا من أنه انسان فطر على الحق علما وعملا أى بحيث لايعلم الا حقا ولايعمل الا حقا ؛ فيقال من أين يعلم وبأى شيء يثبت كونه لايعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا ، فثبوت هذا انما يكون بتجربة حياته من أولها الى آخرها ثم اتفاق الآراء على تصديقه فى كل مايعلم وما يعمل أو بثبوت كونه نبيا والأول غير ممكن والثانى مستلزم للدور

فى غنى عن تأييد نبوته بالمعجزة الخارقة لسنن الكون والذى لايجاوز به معرفوه المصريون الى ما فوق العبقرى فى الصلاح والاصلاح والكمال والتكميل لئلا يبلغوا بمعزته الى ماوراء السنن الكونية ؛ فهذا النبى لايكون نبى الله ورسوله رسميا كرسول الملك الحامل لرمزه لأن رمز الله ووسامه على رسوله هو معجزته الخارقة لسنن الكون الطبيعية والتى لاتوجد عند النبى الطبيعى ولاعند صاحب النبوة المكتسبة . وكل ماعدا المعجزة ليس برمز للنبى الحقيقى مهما أعظمه الكتّاب المصريون ، فهم على الرغم من انهم يكتبون فى النبى وحياة النبى لا يعرفون موضوع مايكتبون أو يحيدون عنه عمدا [1] لأن الكلام فيمن بعثه الله الى الناس كما بعث الملك مندوبه وعامله [2] مع ان الذى يقدمه أولئك الكتَّاب لنا على انه نبىالله ليس بنبيه الحامل لرمزه الرسمى وانما هو من يرونه أهلا لأن يكون نبى الله كالذى يراه بعض الناس أهلا لان يكون مندوب الملك وليس بمندوبه فعلا . وكذلك من يرشحونه للنبوة من غير معجزة ومن غير أمر من الله أتاه بطريقة مخصوصة تختلف عن طريق مايأتى العاقلَ العبقرى من عقله ، لأن هذا الرسول رسول عقله لارسول الله وان كان العقل أيضا رسولا من الله فى الانسان ، فذلك العبقرى اذن رسول رسول الله لارسول الله مباشرة وبطريقة

---

(١) فهل أولئك الكتاب يكتبون حياة محمد صلى الله عليه وسلم ليؤمن الناس بأنه عظيم من عظماء البشر أو بأنه نبى من أنبياء الله ؟

(٢) وكل مايأتى به النبى من الأفعال الطبيعية العظيمة غير المعجزة ويعجب المصريين أكثر من المعجزة فهو لايصلح ان يعتبر رمزا قطعى الدلالة على انه نبى الله لكونه من جنس مايفعله البشر مهما كان مبلغه من الخطورة . وقد قرأنا بكل استغراب فى « مجلة الأزهر » من الأستاذ فريد وجدى انه كان يحاول ان يستخرج من انتصار أهل بدر على قلتهم البعيدة عن كثرة المشركين معجزة ويترك المعجزة الحقيقية التى نطق بها القرآن من امداد المسلمين بآلاف من الملائكة وتقليلهم فى أعين المشركين أولا ثم اراءتهم مثليهم رأى العين واليه يشير قوله تعالى ( واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ) وقوله ( قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء )

خاصة ، حتى ان مدعى النبوة من مثله بالاضافة الى الله يكون كاذبا فى دعواه وحتى ان الأنبياء المعلومين بأسمائهم صلوات الله وسلامه عليهم وفيهم نبينا ﷺ لو كانوا أنبياء كما يتصور الكتاب المصريون ويعجبون بهلزم أن يكونوا كاذبين فى دعوى النبوة وأن يكون كذبهم معلوما عند هؤلاء الكتاب لأن ماادعاه الانبياء لانفسهم ليس من جنس مايتصوره هؤلاء لهم ويعجبون به منهم . فماذا يقولون فيما بلغه نبينا صلى الله عليه وسلم عن الله قوله مثلا (كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين) وقوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ) هل عندهم نزل على النبى كتاب من الله كان يقرأه الله على النبى والنبى يتبعه فى قراءته ؟ كتاب يتوعد الله من قال عنه ( ان هذا الا قول البشر ) فيقول : (سأصليه سقر وما أدراك ماسقر ) بل يتوعد فيه نبيه قائلا : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ) ( كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ) كتاب اذا قال الذين لايرجون لقاء ربهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله يقول النبى ( مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع الاما يوحى الى انى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون )

هل نزل عليه حقيقة كتاب من عند الله ؟ فان كان نزل ولم يكن النبى كاذبا فى اسناد هذا الكتاب الى الله وحاشاه أن يكون كاذبا ، كان معجزة خارقة لسنة الكون وخارجا عن الحدود الطبيعية التى رسمها أولئك الكتاب للنبى . ولهذا ترى معالى الدكتور هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ص ٤٢ يقع على الرغم من انكاره المعجزات الكونية فى حيرة بشأن الوحى فيقول : « ان العالم النزيه القصد الى الحق لايستطيع أكثر من أن يقول ان ماوصل اليه العلم حتى هذا الزمان يقصر دون تفسير الوحى على الطريقة العلمية المادية »

الحاصل انه بعد ثبوت كون الله موجودا لابد من وجود الأنبياء المبلغين عن الله ولا بد أن تكون اضافتهم الى الله مضمونة بوجود معجزات لهم خارجة عن نطاق القدرة البشرية.

ثم انه يرى أناس الخير وأناس الشر فى الدنيا ربما لايلاقون مايستحقونه ، حتى لو فرضنا ان الانسان يعلم واجباته بعقله ويستطيع تعيين حدود الخير والشر فهو لايقدر على وقف كل أحد عند حده حتى الحكومات لايستطعن ذلك حق الاستطاعة ؛ وقد يلتبس عليهن الاخيار والاشرار فتعجز المحاكم المدلية عن احقاق الحقوق وقد تكون هى مضيعتها عمدا وتعين الظالم على المظلوم . فلا بد بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثابتة تستدرك فيها نقائص الحياة الاولى وتطمئن قلوب أهل الفضيلة بتوقع ملاقاتها ؛ حتى ان الفيلسوف « كانت » استنبط دليل وجود الله من لزوم الحياة الثانية ولزوم مجيء يوم الدين ليكون مالك ذلك اليوم وحاكمه ، وعده أقوى أدلة وجود الله كما سبق فى آخر الباب الاول من الكتاب الكبير ، وقد كنا نحن انتقدنا عليه ذلك . فهذا الذى لانراه كافيا فى اثبات ذلك المطلب الأكبر أحسن دليل عندنا وأولاه على اثبات رسل الله حيث تشتد الحاجة الى وجودهم ليعلموا الناس سبل الفلاح والنجاح فى يوم الدين ولا تتفرق بهم السبل على أيدى الرسل الفضوليين رسل المنكرين للمعجزات والرسالات الخارجة عن نطاق الطبيعة . فلئن كان الناس مسؤلين فى النشأة الثانية عن أعمالهم فى الدنيا كما هو المجزوم عندنا وعند الفيلسوف « كانت » فوجود رسل الله الذين يوثق برسالاتهم ووجود المعجزات المعرّفة لأشخاصهم ، يكون مقتضى العدل الالهى قال تعالى ( رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ) فاذا كان الله موجودا وجعل للانسان حياة أخرى يحاسبه فيها على أعماله فى الحياة الأولى كان ارسال الرسل اليهم كالضرورى ان لم يكن ضروريا ضرورة وجود الله لوجود العالم.

فأول ما يكون ثبوته ضروريا على طريقة الفيلسوف « كانت » لحفظ الاخلاق عن

الانهيار وصيانة حقوق الفضيلة من الضياع الابدى ، هو وجود البعث بعد الموت ، ويأتى عنده ثبوت وجود الله بعده مبنيا عليه ؛ ويأتى عندنا بعد ثبوت وجود الله ووجود البعث ـ أيا كان الاول ثبوتا ـ وجود الانبياء ، فلا ينفك وجودهم على كل حال عن ثبوت وجود النشأة الاخرى . والعجب ان فلاسفة الغرب المؤمنين بالله يؤمنون بالحياة الآخرة أيضا ويعتبرونها من المطالب الفلسفية ثم لاينتبهون الى الاتصال الظاهر بين وقوع الحياة الآخرة ووجود الانبياء ؛ أفلا يكون جزاء الانسان فى الآخرة من غير ارسال رسول يبلغه مايجب عليه أن يفعله فى الدنيا أو يتجنبه ، كمؤاخذة حكومة من الحكومات شعبها بعمل لم يسبق منها النهى عنه أو بترك عمل لم يسبق منها الأمر به ؟ وقول القائل : ليكف كل انسان عقله رسولا ، لا يلتفت اليه كقول القائل : ليجد الشعب بعقله ماتريد الحكومة أن يفعله الشعب وما لاتريد ، من غير قانون ينص على الواجبات والمحظورات . ولا أصدق قيلا من الله القائل : ( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا )

***

نعود الى مبدأ البحث وقد طال الكلام فى الوجه السابع من وجوه النقد التى أوردناها على كلمات الدكتور هيكل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد » ولم ينته كلامنا بعد وكنا قلنا فى أول البحث تقريبا : أصحيح ان القرآن ليست فيه معجزة لنبينا محمد ﷺ وانما القرآن معجزته الوحيدة كما ادعى الدكتور المؤلف والذين شجعوه على هذا الادعاء من علماء الدين ؟

المقصود من هذه الدعوى نفى المعجزات الكونية المذكورة فى كتب الحديث بأثارة الشبهة فى صحة مرويات تلك الكتب . ولكن أصول التوثيق فى اسناد الحديث التى التزم جامعو الصحاح مراعاتها فى كتبهم ، بمكان من الدقة والعناية لو لم يكن السبب الأصلى عند الدكتور هيكل وغيره فى انكار المعجزات غير القرآن كونها مخالفة

للعلم المبنى على سنة الكون ، لما تجرأوا على رمى كتب الحديث والسيرة جملة باختلاق الروايات . وكأنهم حاولوا فى قصر معجزات نبينا على القرآن الذى قالوا عنه انه معجزة عقلية انقاذ حياته ﷺ من شائبة المعجزات الكونية المخالفة للعلم وسنة الكون . فمخالفة هذا النوع من المعجزات عندهم للعلم وسنة الكون جرأتهم وحملتهم على سوء الظن فى كتب الحديث وأمانة رواته حملة أقوال الرسول ﷺ وأفعاله الى أمته ، على الرغم من اتخاذ علماء الاسلام فى ضبط الروايات عن نبيهم وتوثيقها طريقة لم تر مثلها دنيا الشرق والغرب وقد تصور أصحاب تلك الظنون السيئة فى انقاذ حياة نبينا ﷺ عن تلك المعجزات فضله على سائر الأنبياء

لكن تلك المعجزات ان كانت مخالفة للعلم وسنة الكون وكان معنى مخالفتها لها انها غير واقعة بل غير ممكنة الوقوع كما ادعاه الأستاذ فريد وجدى لما جرى بينى وبينه نقاش منشور على صفحات جريدة « الاهرام » قبل توليه رئاسة تحرير «مجلة الأزهر» لزم أن لا تقع من الانبياء السابقين أيضا وأن تكون أنباء وقوعها المقصوصة فى القرآن كاذبة مختلقة كأنباء وقوعها من نبينا المروية فى كتب الحديث والسيرة . فما دام الدكتور هيكل ومشجعوه لا يجترئون على التشكيك فى صحة أنباء القرآن فلا مندوحة لهم أن يعترفوا بالمعجزات الكونية ولو منسوبة الى الانبياء الاولين[1] اعترافا لا يبقى بعد ذلك مانع يمنعهم من الاعتراف بها منسوبة الى نبينا ويضطرهم الى القيام بدعوى منكرة تزول معها الثقة عن أفضل كتب الاسلام وأصحها بعد القرآن مثل كتاب البخارى ومسلم وسائر كتب السنة وموطأ مالك ومسند أحمد

بل نقول لا تصح دعوى ان القرآن لم يرد فيه ذكر معجزة كونية منسوبة الى نبينا ، ففى القرآن نبأ الاسراء به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى

---

(١) ولا إخال ان عقل هيكل باشا وذوقه الأدبى يسوغان قبول ماذهب اليه الأستاذ فريد وجدى من كون آيات القرآن الواردة فى معجزات الأنبياء آيات متشابهة غير مفهومة

وفى القرآن امداد المؤمنين فى غزوة بدر بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين وخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وفى القرآن انشقاق القمر قال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ) وتأويله بأن ذلك سيقع عند حلول الساعة أعنى القيامة مخالف لصراحة صيغة الماضى ، وكذا يأباه مابعده الدال على انه آية أى معجزة والقرآن يعبر عن المعجزات بالآيات ويعبر عنها بالبينات ويعبر عنها بهما معا

فالقرآن صرح بانشقاق القمر على صيغة الماضى وسماه آية من الآيات التى أعرضوا عنها وقالوا سحر مستمر [1] فماذا يطالبنا بعد هذا منكرو المعجزات الكونية لمحمد ﷺ قائلين : « لم يرد فى القرآن ذكر شىء منها ولو ورد لآمنا به » ؟ فان قالوا جوابا على هذا الدليل الذى أتينا به من القرآن : « لكن انشقاق القمر أمر محسوس لايخفى على أحد من سكان الأرض فى ذلك العصر ، فلو وقع لحكاه تاريخ الأمم » فانى راد لجوابهم عليهم بأن هذا يكون منهم عدم اعتماد على اخبار القرآن حيث يبحثون عن اخبار أخر يؤيده ، وقد كانوا يدعون الايقان بصدق القرآن ، هذا خلف.

ثم أقول عاكسا لجوابهم عليهم : لو لم ينشق القمر فى عصر نبينا ولم يشاهده أعداؤه المشركون فى مكة لكذّبوا محمدا ﷺ فى هذه الآية وصار تكذيبهم المؤدى الى تبين كذبه حادثة هامة أدعى الى تناقل الألسنة والاقلام بها من تناقل حادثة الانشقاق نفسه التى ربما لايطلع عليها غير أهل مكة لاهمال ترصدها فى وقتها أولغيم يسترها أو لحسبانها حادثة من الحوادث الجوية العجيبة التى لاتدرك أسبابها ولا تضبط فى ذلك الحين

---

(١) وفى نعت هذا السحر بالاستمرار اشارة الى أن معجزاته صلى الله عليه وسلم الكونية كثيرة لاتنحصر فى شق القمر وهو رد بليغ على منكريها بالمرة

قال الفاضل الهندى متم كتاب السيرة المار الذكر من قبل : « من العلماء من فسر معجزة انشقاق القمر بأنه ترا آى لأهل مكة كذلك وان لم ينشق فى نفسه ، قال : « ومن هؤلاء العلماء شاه ولى الله الدهلوى صاحب « حجة الله البالغة » واليه يميل الغزالى » وعندى ان هذا التفسير ليس بخطأ بل أكبر من الخطأ اذ لافرق بينه وبين ماحكاه القرآن عن موقف المشركين ازاء هذه المعجزة بقوله : ( وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ) فالقرآن يقول انشق القمر ويقول أولئك الذين لايقال عنهم العلماء بعد قولهم هذا : لم ينشق وانما خُيل للناظرين من أهل مكة الطالبين من النبى ﷺ ان يظهر لهم معجزة ، [1] منشقا وقد كان المشركون حملوه على السحر وهؤلاء العلماء يحملونه على التخييل ! !

ثم قال الفاضل المذكور : « ان أهل مكة رأوا القمر منشقا فهل هو انشق حقيقة أو ترا آى كذلك فهذا لايهمنا والله القادر على إراءة القمر منشقا قادر أيضا على شقه حقيقة » وانى أرى فى هذا القول عدوى من جهل هؤلاء العلماء ، نعم ان الله يشق القمر ويريه منشقا من غير شق ولكنه لا يكْذب فيقول عن القمر الذى لم ينشق انشق . أما ماروواه الفاضل المذكور من حديث أنس «ان أهل مكة سألوا النبى ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين » فلا يستلزم انه لم ينشق ولايلزم لرؤيته منشقا أن يكون غير منشق وهل غير المنشق يُرى منشقا والمنشق لايرى منشقا ؟ فلا يصح اذن أن يكون حديث أنس هو الذى سبّب القول بتغيير معنى الآية وانما السبب سوء فهم المغيّرين

ويشبه هذا الضلال فى التفسير أو يغالبه ماسمعته معزوا الى الشيخ محمد عبده انه كان يحمل انفلاق البحر لسيدنا موسى ومن معه ثم غرق فرعون وجنوده فيه ، على الجزر والمد اللذين كثيرا مايقعان فى البحر . وحق القول فى سخافة هذا التوجيه

---

(١) التعبير فى جميع الأحاديث : « انشق القمر » الا فى احدى روايتين عن أنس

من غير أن يناقش فى وقوع جزر ومد كهذا وفى علم موسى بمصادفتهما لزمان اجتياز البحر ، انه تكذيب للقرآن فى ترتيبه انفلاق البحر على ضربه بالعصا حيث قال تعالى : ( فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم »

ثم ان الله تعالى انتقم من الشيخ على ابتعاده فى تأويله عن القرآن فأبعده عن العقل أيضا ألا ترى الى انه لم يفكر فى أن الجزر والمد البحريين يكونان متعاقبين فى العادة مع ان اجتياز موسى ومن معه البحر أثناء الجزر الذى فتح لهم طريقا فى البحر يبسا يستلزم أن يتوقف الجزر فتطول مدته ساعات بل أياما قبل تحوله الى المد ليتسع الزمان الذى يحتاج اليه المجتازون لقطع المسافة بين الجانبين من البحر الأحمر التى لا تقل عن مائة كيلو متر تقريبا ، فلو كان موسى ومن معه راكبين لأسرع سيارات زماننا لما تمكنوا من اجتياز هذا البحر بين جزره ومده

ورأيت للشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده تأويلا فى قوله تعالى ( اقتربت الساعة وانشق القمر ) والمعنى عنده اقتربت الساعة وظهر الحق . ثم أتى لتأويله بدليل من « لسان العرب » وهو قوله : « انشق الصبح وشق الصبح اذا طلع وفى الحديث فلما شق الفجران أمرنا باقامة الصلاة » وليس فى « اللسان » انشق القمر أو انشقت الشمس بمعنى طلعتا لأن انشقاق القمر والشمس عند طلوعهما غير معقول كمعقولية انشقاق الفجر والصبح عند طلوعهما . وقد يقال أيضا تنفس الصبح ولا يقال تنفس القمر أو الشمس . لكن الشيخ شيخ منكرى المعجزات الكونية قاس انشقاق القمر بانشقاق الصبح والفجر ثم جعل انشقاق القمر كناية عن ظهور الحق من غير مبرر فى كل ذلك سوى الاصرار على انكار المعجزات . ولم يكن لينتظر من الشيخ القول بالتخييل مع القائلين الذين انطبق عليهم مابعد الآية أعنى : ( وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ) لأن مذهب الشيخ تخصيص هذه التهمة بمعجزات الأنبياء المتقدمين كما سبق ، فلا يكون له أن يعيب معجزة نبينا بمثلها . ولأن القائلين

بالتخييل لم يريدوا انكار معجزة شق القمر، وهم ليسوا من منكرى المعجزات المصريين وانما أرادوا أن يكون اعجازها فى اراءتها وليس لهم دافع غير ضـلال فى الفهم مهما كان ذلك الضلال عظيما . أما تأويل الشيخ رشـيد فهو لغو فى القرآن من أنواع اللغو الذى توسـل به الأولون الى عدم السماع للقرآن حين قالوا ( لاتسمعوا لهـذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ) وكان لغو الشيخ فى القرآن كيلا يسمع له بعدأن أتى بألوان من اللغو كيلا يسمع أحاديث معجزة شق القمر التى عددها الأستاذ الفاضل الشيخ محمد ياسين [1] والتى أخرجها أحمد والبخارى ومسـلم والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقى عن على وابن مسعود وحذيفة وجبير ابن مطعم وابن عمر وابن عباس وأنس، ولذا قال ابن عبد البر : « روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير الى أن انتهى الينا وتأيد بالآية الكريمة » وقال المناوى فى شرحه لألفية السير للعراقى : « تواترت بانشقاق القمر الأحاديث الحسان كما حققه التاج السبكى وغيره »

فالأحاديث المنبئة بمعجزة انشقاق القمر غير مقبولة عند شيخ « المنار » وقول القرآن ( انشق القمر ) لايفهم منه انشقاق القمر وانمـا يفهم منه معنى آخر غـير انشقاق القمر ، قولوا بربكم هل الشيخ لاغ فى القرآن والحديث ولاعب بهما أم هو غير لاغ ولاعب ؟ أجيبونى عن سؤالى هذا ولا تؤاخذونى بتشديد القول عليه ، فهل تريدون أن أقول للاعب بالقرآن : أحسنت ؟ وقبله عارض أستاذه محمد عبده كتاب الله فى قوله ( فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق .. الآية) فحمل انفلاق البحر على الجزر والمد الطبيعيين . فمنـكرو المعجزات الـكونية لايثقون بالأحاديث ويطالبوننا بدليل من القرآن فلما جئناهم به أخذوا يلعبون بمعناه منحرفين يمنة ويسرة

---

(١) كتب فى مجلة « الهداية الاسلامية » الغراء هو والأستاذ الفاضل الشيخ محمد زهران رداً على الشيخ رشيد جزاهما الله خيرا ورضى عنهما

وقد كانوا وضعوا مقياسا لقبول الحديث وهو عرضه على القرآن ، ثم انا نراهم لايقتنعون بهذا ويعرضون القرآن على هواهم وعقيدتهم فى عدم المعجزات الكونية . فالمقياس الأصلى عندهم للقبول هو الموافقة لعقيدتهم لا الموافقة للقرآن ، فلهذا لايكفيهم قول القرآن (انشق القمر) فى اثبات معجزة انشقاق القمر ، فكأنهم يتصورون مانعا عقليا يمنعهم عن حمل الآية على ظاهرها وصراحتها وهو عدم امكان هذا الانشقاق لكونه مخالفا لسنة الكون ، وقد تقدم منا الكلام بما لامزيد عليه فى استئصال هذا المانع الذى استندوا اليه فى نفى المعجزات الكونية عن نبينا والذى أخذوه من المستشرقين من غير فهم ماقصده المستشرقون من الاستناد الى ذلك المانع وهو عدم الاعتراف بنبوة محمد ﷺ فهو ليس عندهم نبيا حتى تكون له معجزة تخالف سنة الكون كما كانت للأنبياء !!

ومما يجدر بالذكر هنا انه نشرت مجلة « الرسالة » فى عددها ٤٦٢ مقالة للشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيأة كبار العلماء ، يجيب فيها على سؤال ورد الى مشيخة الأزهر عن مسألة رفع عيسى عليه السلام من عبد الكريم خان بالقيادة العامة الانكليزية لجيوش الشرق الأوسط ، ولعل السائل هندى قاديانى المذهب أراد الحصول على فتوى من الأزهر تؤيد مذهبه ، ولعل مشيخة الأزهر ندمت بعض الندامة على ماسبق لها من تنفيذ القرار الصادر عن هيأة كبار العلماء لطرد الطالبين الألبانيين القاديانيين من الأزهر ، اذ حولت السؤال الى الشيخ كاتب المقالة من بين أعضاء الهيأة الذى ستعرف نزعته القاديانية فى المسألة المحولة اليه [1] فكان جوابه انه عليه السلام مات فى الأرض ورفعت روحه ولم يرفع حيا كما ذهب اليه المفسرون

---

(١) وكنت قد سمعت عند ماقاوضت هيأة كبار العلماء فيما بينهم للبت فى أمر الطالبين المذكورين أن فى الهيأة من يشذ ويتردد فى الافتاء بكفر المنكر لكون نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء طعنا منه فى حجية الحديث الوارد فيه والاجماع المنعقد عليه وفى دلالة قوله تعالى ( ما كان محمد أبا

قبل الشيخ . واذا لم يصح رفعه سقط القول بنزوله فى آخر الزمان كما ورد فى الأحاديث التى لا يعتمد عليهـا الشيخ المجيب رغم كثرتها بحجة انهـا أخبار آحاد لا تبنى عليها المسائل الاعتقادية

فهو كما خطّأ المفسرين فى مسألة رفع المسيح خطّأ علمـاء أصول الدين القائلين بنزوله على انه من أشراط الساعة . والخـلاف بين الشيخ شلتوت وبين المفسرين والمتكلمين والمحدثين راجع الى الخـلاف فى انـكار المعجزات والاعتراف بهـا بين المنكرين الذين منهم الشيخ والمعترفين الذين منهم أهل التفسير والحديث والـكلام ، فمن لم يؤمن بالمعجزات فدأبه رفض الأحاديث والآيات الواردة فيهـا بالتشـكيك فى ثبوت الأحاديث مهما كثرت رواتها والعبث فى معنى الآيات ، لا لكون الأحاديث غير ثابتة فى الحقيقة من طريق نقد الحديث المعروفة عند علمـائه أو لـكون الآيات غـير ظاهرة الدلالة ، بل لعقيدة راسخة فى قلب الرافض تدفعه الى انـكار المعجزات وسائر المغيبات أينما ورد ذكرها

وقد أسلفنا فى أوائل هذا الـكتاب الـكلام عن أصـل هذا المرض الذى يجعل التشـكيك فى صحة الأحاديث والعبث فى تأويل الآيات سـهلا على المنكرين . وعقل الشيخ شلتوت الذى لا يقبل معجزة الرفع والنزول لعيسى يقبل أن المحدثين كذبوا فى سبعين حديثا رووها فى نزوله كما أخطأ المتكلمون فى قبول تلك الأحاديث سندا لعده من أشراط الساعة وكما ان المفسرين أخطأوا فى فهم معنى الآيتـين الدالتين على الرفع والآيتين الدالتين على النزول ، وانما أصاب الشيخ شلتوت فى مقابل المخطئين وصدق فى مقابل الـكاذبين

---

أحد من رجالـكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) عليه القطعية . وقد رددت على هذا العضو الشاذ شذوذه فى مقـدمة الـكتاب ( الـكبير الذى لم ينشر تمـامه بعد ) والآن أقول ان كان الشيخ شلتوت لم يتأخر التحاقه بهيأة كبار العلماء عن زمان درس مسألة الطالبين فهو أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ

وكنا كتبنا فى صدر الكتاب شيئا كثيراً يتعلق بهذه المسألة وأرجأنا النظر فى آيات الرفع والنزول الى محل مناسب فنقول :

ولعدم كون الشيخ فى مذهب اليهود والنصارى بشأن سيدنا المسيح بل فى مذهب الماديين لم يعترض على عقيدة المسلمين المأخوذة من قوله تعالى ( وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ) وانما اعترض على عقيدتهم المستندة الى قوله تعالى (بل رفعه الله اليه ) وكان هذا الشيخ أنكر من قبل وجود الشيطان كشخص حى من شأنه أن يفعل الأفعال المذكورة له فى القرآن ويتصف بأوصاف متناسبة مع تلك الأفعال ، وكان المانع عنده عن وجود الشيطان هو عين المانع عن رفع عيسى عليه السلام ونزوله أعنى العلم الحديث المادى الذى لا يقبل الا مايمكن اثباته بالتجارب الحسية . وهذا المانع عن وقوع معجزات الأنبياء الكونية ووجود الشيطان عند المؤمنين بالعلم المادى أكثر من كتاب الله وسنة رسوله ، يمنعهم أيضا عن القول بنبوة محمد ﷺ مستبدلين بها العبقرية . فلا يكون كتابه ككتاب الله الذى لا يجترأ على مسه بكل تأويل ولا أحاديثه أحاديث رسول الله الذى لا يجترأ على تكذيبها بكل سهولة . فلو لم يكن لانكار رفع عيسى ونزوله أسباب خفية عند الشيخ المنكر ونظر الى آيتى الرفع وأحاديث النزول نظر المحايد غير المرتبط بتلك الأسباب الخفية لذهب به نظره الى التسليم بعقيدة المسلمين فى رفع المسيح عليه السلام ونزوله فى آخر الزمان ولا رأى مانعا عنهما فى آيات التوفى التى تمسك بها بدلا من الآيات والأحاديث القائمة على الرفع ثم النزول

فكما أن قوله تعالى ( بل رفعه الله اليه) وقوله (ورافعك الىّ) ظاهران فى الرفع الخاص الذى يمتاز به عليه السلام لا رفع الروح العام لجميع الأنبياء والشهداء كما ادعاه الشيخ ، فتعقيب قوله تعالى ( وما قتلوه وما صلبوه) بقوله ( بل رفعه الله اليه ) قطعى فى الرفع الذى نقول به لا الرفع الذى يقول به ، اذ لا معنى يليق بالنظم المعجز فى القول بأنهم ماقتلوه بل رفع الله روحه اليه كما فسر به الشيخ ، لعدم معقولية التقابل على

هذا التفسير بين القتل المنفى والرفع المثبت ، بناء على أن رفع الروح يمشى مع القتل والصلب كما يمشى مع عدم القتل والصلب فلا يصح أن يكون مابعد (بل) ضدا لما قبله على خلاف ماصرح به النحاة من ان بل بعد النفى أوالنهى يجعل مابعده ضدا لما قبله .
وليس للشيخ المنكر لرفعه حيا مجال للجواب عن هذا الاعتراض

أما آيات التوفى التى تمسك بها الشيخ فليس فيها تأييد لمذهبه يعادل فى القوة أو يدانى مافى تكميل نفى القتل والصلب بإثبات الرفع من تأييد مذهبنا ، لأن المعنى الأصلى للتوفى المفهوم منه مبادرة ليس هو الاماتة كما يزعم الشيخ بل معناه أخذ الشيء وقبضه تماما (١) فهو أى التوفى والاستيفاء فى اللغة على معنى واحد ، قال فى مختار الصحاح : « واستوفى حقه وتوفاه بمعنى» وانما الاماتة التى هى قبض الروح نوع من أنواع التوفى الذى يعمها وغيرها ، لكونه بمعنى القبض التام المطلق . وهذا منشأ غلط الشيخ شلتوت أومغالطته فى تفسير آيات القرآن التى يلزم ان يفهم منها رفع عيسى عليه السلام حيا ، لأنه ظن ان القرآن معترف بموته فى الآيات الدالة على توفيه كما ظن أن التوفى معناه الاماتة نظراً الى ان الناس لايستعملون التوفى الا فى هذا المعنى وغفولا عن معناه الأصلى العام فكأنه قال بناء على ظنه هذا لا محل لرفعه حيا بعد إماتته . لكنه لو راجع كتب اللغة لرأى ان الاماتة تكون معنى للتوفى فى الدرجة الثانية حتى ذكر الزمخشرى هذا المعنى له فى « أساس البلاغة » بعد قوله «ومن المجاز» والمعنى الأصلى المتقدم الى أذهان العارفين باللغة العربية ، للتوفى هوكما قلنا أخذ الشيء تماما ، ولا اختصاص له بأخذ الروح

ولقد فسر القرآن نفسه معنى التوفى الذى يعم الاماتة وغيرها فقال : ( الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها) فهذه الآية تشتمل على نوعين من أنواع

---

(١) كما ان معنى التوفية جعل الغير آخذا للشيء تماما ، قال تعالى : ( حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ) وقال ( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

توفى الأنفس الذى هو الأخذ الوافى نوع فى حالة الموت ونوع فى حالة النوم ، فلو كان التوفى ينحصر فى الاماتة كان المعنى فى الآية : الله يميت الأنفس حين موتها و يميت التى لم تمت فى منامها . والأول تحصيل للحاصل والثانى خلاف الواقع ولزم الاول أيضا أن تكون حالة الموت حالة اماتة الروح لانفصالها عن البدن . ومن هذا يفهم أيضا معنى التوفى فى قوله تعالى ( وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار)

ومعنى قوله تعالى على هذا التحقيق : ( ياعيسى انى متوفيك ورافعك الىّ ومطهرك من الذين كفروا ) أنى آخذك من هذا العالم الأرضى ورافعك الىّ . وفى قوله (ومطهرك من الذين كفروا ) بعد قوله ( متوفيك ) دلالة زائدة على عدم كون معنى توفيه اماتته، لان تطهيره من الذين كفروا باماتة عيسى وابقاء الكافرين لا يكون تطهيرا يشرفه كما كان فى تطهيره منهم برفعه اليه حيا . فاذن كل من قوله تعالى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا بيان لحالة واحدة يفسر بعضها بعضا من غير تقدم أوتأخر زمانى بين هذه الاخبار الثلاثة « لان » ومن المعلوم عدم دلالة الواو العاطفة على الترتيب . فلو كان المراد من قوله تعالى ( متوفيك ) مميتك ومن قوله ( رافعك ) رافع روحك كما ادعى الشيخ شلتوت كان القول الثانى مستغنى عنه لان رفع روح عيسى عليه السلام بعد موته الى ربه وهو نبى جليل من أنبياء الله معلوم لاحاجة الى ذكره، بل لو حملنا القول الأول أعنى ( متوفيك ) على معنى مميتك كان هو أيضا مستغنى عنه اذ معلوم ان كل نفس ذائقة الموت وكل نفس فالله يميتها ومن من الناس أو الأنبياء قال الله له انى مميتك ؟ فهل لايفكر فيه الشيخ الذى يفهم من قوله تعالى انى متوفيك انه مميته ؟ الا أن يكون المعنى ان الله مميته لاأعداؤه فالمراد نفى كونهم يقتلونه . وفيه ان كون الله مميته لا ينافى أن يقتلوه لان الله هو مميت كل ميت حتى المقتولين ، ولذا حمل كثير من المفسرين قوله ( متوفيك ) على معنى ان الله مستوفى أجله عليه السلام ومؤخره الى أجله المسمى فلا يظفر أعداؤه بقتله

وعندى فى هذا التفسير أيضا أنه يرجع الى حمل التوفى على معنى الاستيفاء كما

حملنا نحن لا على معنى الاماتة ، لكن التوفى والاستيفاء معناه استكمال أخذ الشيء لااستكمال اعطائه فليس الله تعالى مستوفى أجل عيسى عليه السلام بل المستوفى هو عيسى نفسه والله الموفى أى معطيه تمام أجله . فقد التبس التوفى على أصحاب هذا التفسير ـ والعجب أن فيهم الزمخشري ـ بالتوفيق التى تتعدى الى مفعولين وهو خطأ لغوى ظاهر . وفيه أيضا تقدير مضاف بين المتوفى وضمير الخطاب حيث قال الله انى متوفيك أى مستوفيك لا مستوفى أجلك ، فزيادة الأجل تكون زيادة على النص ، كما أن زيادة الروح فى آيتى رفع عيسى عليه السلام نفسه زيادة على النص من جانب الشيخ شلتوت لارهاق قول الله على خلاف ظاهر المعنى المنصوص . وهذه الزيادة ان كانت خلاف الظاهر بين الرافع وضمير الخطاب فى قوله ( ورافعك ) بأن يكون المعنى ورافع روحك ، فهى فى قوله ( بل رفعه الله اليه ) أشد من خلاف الظاهر أى غير جائزة أصلا لكونها مفسدة لما يقتضيه ( بل ) من كون مابعده وهو ( رفعه الله اليه ) ضد ماقبله وهو قوله ( ماقتلوه ) بناء على أن رفع الروح يلتئم كما قلنا من قبل مع حالة القتل أيضا الذى اعتنى بنفيه ، فضلا عن ان هذا الرفع أى رفع الروح ليس بأمر يستحق الذكر فى شأنه عليه السلام . بل ان قوله ( متوفيك ) أيضا مما لاوجه لذكره اذا كان المعنى مميتك ، فى أى زمان تقع هذه الاماتة ؟ فان وقعت حالا أى فى زمان مكر أعدائه به المذكور قبيل هذه الآية كان هذا الكلام المتوقع منه طمأنته عليه السلام على حياته ، أجنبيا عن الصدد بل مباينا له لان فيه اعترافا ضمنيا لنفاذ مكرهم بأن يكونوا قاتليه والله قابض روحه ، فهل الشيخ شلتوت ينكر انهم ماقتلوه كما ينكر ان الله رفعه الى السماء حيا ؟ وان وقعت اماتته فى المستقبل البعيد فليس فى الآية تصريح به مع ان مقام الطمأنة يقتضى هذا التصريح كما أنه يقتضى كون الرفع رفعه حيا ، فحيث لاتصريح بكون اماتته فى المستقبل البعيد فقوله ( انى متوفيك ) على معنى انى مميتك أجنبي عن المقام ، حتى ان توجيه العالم الكبير حمدى الصغير صاحب التفسير الكبير الجديد التركى ، بكون ذكر اماتته ردا

على عقيدة النصارى فى تأليه المسيح لا يجـدى فى دفع هذا الاعتراض لـكون ذلك الرد أيضا أجنبيا عن المقـام الذى هو مقام الطمأنة والذى ينافيـه كل ما ينافيها .

فالواجب الذى لم يحس بوجوبه أحـد ممن تـكلم قبلى فى تفسـير قوله تعالى ( انى متوفيك ) احساسى به ، حمل ( متوفيك ) على معنى آخذك تمـاما السالم عن جميع الاعتراضات والتكلفات

وقس عليه التوفى فى آية المائدة وهى قوله تعالى : ( واذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سـبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعـلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهـم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ) ومعنى قوله ( فلما توفيتنى ) فلما أخذتنى من بينهم وجعلت صلتى بهم وبعالمهم الأرضى منتهية. فالمراد توفيه أى أخذه بالرفع لا بالاماتة وقد علمت ان التوفى فى اللغة وفى عرف القرآن لا يختص بالأخذ من النوع الثانى

هذا تفصيل ماورد فى القرآن متعلقا برفع عيسى عليه السـلام . وفيه فضلا عن الآيات المذكورة آيتان يفهم منهما نزوله فى آخر الزمان فيكون فيهما أيضا دليـلان على رفع سابق كما كانت فى أحاديث النزول أدلة . وليس الأمر كما توهم الشيخ شلتوت من أن حادثة الرفع لم يقم عليها دليل فى القرآن ولا محـل لنزوله بعد سقوط رفعه . ليس الأمر كما توهم ، بل كل من آيتى الرفع ، وقد سبق ذكرهما ، وآيتى النزول وهما قوله تعالى فى سورة النساء ( وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ) وقوله فى سورة الزخرف ( وانه لعـلم للساعة ) يعضد بعضهما بعضا . ولا يستطيع الشيخ المنكر لنزوله عليه السـلام فى آخر الزمان أن يجد تأويلا لآيتى النزول المذكورتين من دون أن يذهب الى تكلفات بعيدة كما لا يستطيع أن يجد جوابا لمـا ذكرنا فى آيتى

الرفع من القرآن التى لاتتمشى مع مذهبه الذى هو رفع روحه فقط

فظهر مما سبق جميعا أن رفع عيسى عليه السلام بالمعنى الذى يعتقده المسلمون مذكور فى القرآن خمس مرات : صراحة فى آيتى الرفع واقتضاء فى آيتى النزول وتلميحا فى آية تطهيره من الذين كفروا

ولك أن تضم اليها قوله تعالى عنه عليه السلام (ومن المقربين) ففيه اشارة الى رفعه الى محل الملائكة المقربين بل فى قوله أيضا (وجيها فى الدنيا والآخرة) لأن الوجيه بمعنى ذى الجاه ولا أدل على كونه ذا جاه فى الدنيا من رفعه الى السماء ، وقوله عن أعدائه (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) فيبلغ أدلة القرآن على رفعه ثمانية

ومن العجائب ان الشيخ شلتوت عاكس الواقع مرة أخرى فحاول أن يستخرج من آية المكر دليلا ضد الرفع منكراً لأن يكون فى رفعه الى السماء حيا مكر من الله بأعدائه الماكرين ! وعنده ان مكر الله بهم المتغلب على مكرهم بنبيه حاصل فى إماتته ورفع روحه اليه لافى رفعه حيا ، فكأن الله نفَّذ ماأراد أعداؤه أن يفعلوه به فقتله قبل أن يقتلوه أو نفَّذ قتلهم باماتته ! فكان الله إذن مساعدهم لا ماكراً بهم !

وانظر بعد هذا التوجيه بالنسبة الى مكره بهم فى رفع نبيه اليه حيا وجعل مسعاتهم لقتله فى خياب بن هياب ! ! هذا ، مع ان تمام مكر الله بهم مذكور فى قوله (ولكن شبه لهم) بعد قوله (وماقتلوه وما صلبوه) الذى تغاضى عنه الشيخ بالمرة . وقول القرآن عن سيدنا المسيح (وما قتلوه وما صلبوه بل رفعه الله اليه) لو لم يفهم منه رفع المسيح حيا وانما فهم رفع روحه كما زعمه الشيخ وأصر على زعمه فاذن يمكن أن يقول قائل ان القرآن لاينفى قتل المسيح وصلبه فى صورة قاطعة لأن رفع روحه الى الله لاينافى كونه مقتولا ومصلوبا بأيدى أعدائه ، وانما يكون هذا القول بأنهم ماقتلوه وما صلبوه من قبيل الهزل.كالو قتل أحد انسانا ثم قال فى المحكمة لم أقتله ولم أقبض روحه وانما الله قبض روحه ! فلو أن الشيخ صاحب هذا التأويل الذى يأمره به هواه

لانكار معجزة الرفع لم يغب عنه أن القرآن كلام الله لصانه عن أن لايكون لنفيه القتل والصلب عن المسيح الا قيمة هزلية !!

أما الكلام على المانع الحقيقى عند كتّاب العصر الحديث وأتباعهم من علماء الأزهر ، عن الاعتراف بمعجزات الأنبياء عليهم السلام الكونية وغيرها مما يخالف سنة الكون كرفع عيسى ونزوله ووجود الشيطان فيضطرهم بسبب هذه المخالفة الى تكذيب الأحاديث الواردة بشأنه وتأويل الآيات مهما كانوا ظالمين لأئمة الحديث فى التكذيب ومبتعدين عن منطوق الآيات فى التأويل ، بل ظالمين أحيانا فى تأويل الآيات أيضا كقول الشيخ شلتوت فى مسألة وجود الشيطان ان القرآن جارى فيه عقيدة العرب الجاهليين وقول الأستاذ فريدوجدى فى آيات المعجزات والبعث بعد الموت انها آيات متشابهة غير مفهومة المعانى — أما الكلام على هذا المانع فقد وفيت حقه فى أوائل هذا الكتاب الذى هو جزء صغير من كتابى « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسله » منشور قبل تمامه بسبب أزمة الورق . وفى تمام الكتاب مزيد حل لشبه المصريين من الكتاب والعلماء الذين لايؤمنون بالغيب

***

نعود الى ما كنا فيه قبل الانتقال الى مناقشة الشيخ شلتوت فى دعواه الشاذة عن رفع عيسى عليه السلام فكنا قلنا ان المنكرين لمعجزات الأنبياء الكونية ينكرونها بسبب مخالفتها لسنن الكون والعلم الحديث المبنى عليها ، كما قلنا ذلك أيضا فى نهاية المناقشة مع الشيخ

وهناك مانع آخر عندهم خاص بوجود معجزة كونية له ﷺ أخذوه أيضا من المستشرقين من غير فهم مرماهم فى البحث عن موانع المعجزات الكونية لمحمد ﷺ وهو أن القرآن نفسه حكى أن محمدا كان لايلبى طلبات قومه فى اظهار المعجزات كما ورد فى الآيات التى ذكرها مؤلف كتاب « حياة محمد » مستشهدا به على ما استشهد

عليه المستشرقون من أن حياة محمد خلت عن المعجزات الكونية ومحطا عليها كل ثقة بكل ماورد فى كتب الحديث والسيرة من معجزاته . والفرق بين موقف المستشرقين وبين مؤلف الكتاب أعنى الدكتور هيكل باشا الذى تعلم طريق هذا التحطيم منهم انه يتمزى بادخاركل الاهتمام وكل الثقة للقرآن فى حين أنهم لا يأتمنونه أيضا للاسباب التى ذكروها فى الأحاديث وسلَّم بها الدكتور من عدم التعويل على صحة رواياتها وأمانة رواتها المملوابن بالأغراض الدينية والسياسية ولا على تمحيص الجامعين للصحاح وتمحيص هذا التمحيص من علماء الدين الذين جاءوا بعدهم وفرق آخر بينه وبينهم انهم يعلمون جيداً ان التشكيك فى أمانة المنابع الاسلامية عن آخرها بالنسبة الى الأحاديث يستلزم التشكيك فى تلك المنابع بالنسبة الى القرآن أيضا ، والدكتور المؤلف غافل عن هذا الاستلزام ، فهو يسعى عبثا لترغيب المشككين الغربيين والذين وقعوا تحت تأثير دعايتهم من الغربيين والشرقيين ومنهم الدكتور نفسه ، فى القرآن مفرقا بينه وبين غيره من المعجزات ومادحا له بأنه معجزة عقلية . وليس له أن يتمزى بأن القرآن جُمع قبل طروء الفساد على الروايات لأن نبأ هذا الجمع أيضا يصل الينا من طريق رواة الحديث والسيرة المطعون فى أماناتهم

ثم ان المشككين الغربيين الذين يستخدمون عقولهم المشحوذة للعمل ضدالاسلام بمهارة لا توجد فى مقلديهم ، مااجترأوا بضعضعة مكان الحديث أولا والقرآن ثانيا متوسلين اليها بضعضعة أصول الرواية وتعليلها بعدم ابتنائها على طريقة النقد العلمى والتمحيص العلمى الذى جرى عليها الدكتور فى تأليف كتابه وخيل للأذهان أنه أول كتاب فى الاسلام يتضمن بيانا عن حياة سيدنا محمد مبنيا على الطريقة العلمية .. مااجترأوا بذلك ، بل جعلوا الكتاب والسنة يهدم بعضهما بعضا : ففى دعواهم المارة الذكر قريبا ينفى القرآن بنصوصه الواردة فى عدة سور أىَّ آية أىْ معجزة لنبينا محمد ﷺ ويمنع صدق ماذكر فى كتب الحديث والسيرة عن معجزاته ؛ فهل تنظرون

ان المستشرقين أعداء محمد لايكتفون فى تكذيب الأحاديث النبوية بتكذيب كتبها بل جعلوا القرآن أيضا يكذّبها ؛ وصاحب كتاب « حياة محمد » يقتدى بهم فى كلتا الخطوتين : غير ان الفرق بينه وبينهم أن الغرض من تكذيبهم كتب الحديث لتكذيب معجزات نبينا ومن جعلهم القرآن أيضا يكذّبها ، تكذيب كل معجزة منسوبة اليه حتى القرآن نفسه لينتهوا بهذه التكذيبات المتسلسلة الى تكذيبه فى نبوته ؛ ولا نرضى أن يكون مؤلف كتاب « حياة محمد » يرضى بهذا ، الا أنه ماذا يكون موقف محمد ﷺ عنده ؟ اذا صح بالنظر الى قول القرآن انه كان لايلبى الطلبات الواقعة فى الاتيان بآية ، بل يقول دائما انما الآيات عند الله وإنما أنا بشر مثلكم أو إنما أنا نذير مبين أوليس عندى خزائن الله أوإنما الغيب لله أو مايماثله ، ولا يقول جوابا لكل تلك الطلبات : آيتى القرآن . وانما قيل مرة واحدة عقب طلب الآية : (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وهو ليس بصريح فى كون القرآن معجزة

لايتهمنى القارئ والعياذ بالله بأنى أنكر كون القرآن الذى هو أعظم معجزات نبى الاسلام وأفضل معجزات الأنبياء على الاطلاق ، معجزة . وانما أنا أتصور وأصور عقليات المستشرقين واستنتاجاتهم من آيات القرآن التى استشهد بها مؤلف كتاب « حياة محمد » على نفى المعجزات الكونية لمحمد . فالآيات نفسها عند المستشرقين أساتذة المؤلف فى الاستشهاد شواهد على نفى معجزاته مطلقا وان لم يشعر به المؤلف ، اذ لاريب فى أنهم لايعترفون بكون القرآن معجزة . فالتمسك بتلك الآيات ولو فى نفى ماعدا القرآن من معجزات نبينا لاينبغى لمسلم يقظ يأبى أن يخدم أغراض أعداء الاسلام ، فضلا عن أن هذا التمسك لا يستقيم فى حد ذاته . والآن نورد تلك الآيات ثم نبين ما هو المراد منها :

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد
(سورة الرعد)

وقالوا لولا أنزل عليـه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين ( سورة العنكبوت )

وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل ان الله قادر على أن ينزل آية ولـكن أكثرهم لايعلمون (سورة الأنعام )

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل ان الله يضل من يشاء ويهدى اليه من أناب (سورة الرعد )

بل قالوا أضـغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ( الأنبياء )

الحـكمة فى انزال هذه الآيات تتصور على وجهين: الأول أن كتاب الاسلام يرمى الى تهذيب العقول وهدايتها الى رشـدها ؛ وقد كان الذين كتبوا التوراة والانجيـل للنصارى زعموهم المسيح الٰها يقدر على التصرف فى الـكائنات. فالقرآن الذى هو كتاب دين التوحيـد يعتنى بتصحيح تلك العقيدة ويكرر أمر الله لنبيه باعلان أن كل شىء بيد الله، ليس للنبي من الأمر شيء وانمـا هو عبده ورسوله وانمـا الآيات كـكل شيء عند الله لايقدر محمد على الاتيان بها من تلقاء نفسه ، فيقول الله له : ( ليس لك من الأمر شيء ) ويقول ( قل لاأملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستـكثرت من الخير وما مسنى السوء ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون ) ويقول (قل لاأقول لـكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لـكم إنى ملك ان أتبع إلا مايوحى إلىّ ) وحتى يقول ( إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء )

وكان النبي ﷺ من شدة حرصه على هداية الناس الذى قال الله عنه : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ) ، يتمنى نزول مايسألونه من الآيات ؛ لـكن الله الذى يفعل مايشاء ويحكم مايريد ولا يشرك فى حكمه أحـدا ،

يقول لنبيه : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لهـا خاضعين) ويقول (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغى نفقا فى الأرض أوسلمـا فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تـكونن من الجاهلين) .

فهذا الخطاب من الله لنبيه فى القرآن يعطى فـكرة جدية عن عقيدة الاسـلام كيف تقـدر فيها عظمة سلطان الله فوق عباده كائنين من كانوا ، كما انه يعطى فـكرة جدية عن القرآن هل يمكن أن يكون كلام سيدنا محمد وفيه هذه الآية الأخيرة ؟

فهذه الآية واللاتى ذكرنا قبلها وأمثالها التى لم تذكر مثل (وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخـيرة) نزلت لتفهيم الفرق بين الرب والمربوب وتثبيته فى قلوب المسلمين ليعلموا انه ليس فى استطاعة محمد أن يأتى بآية ولا بأى شىء الا باذن من ربه ورب كل شىء . وليس هذا خاصا بمحمد ﷺ بل يستوى هووسائر رسل الله فيه كما قال القرآن أيضا (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا باذن الله) . ولا يلزم من كون انزال الآيات واظهار المعجزات من اختصاص مشيئة الله عدم وجود معجزة لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام غير القرآن ولا عدم نفع المعجزات الكونية فى اقناع الناس بصدق الرسل لابتذالهـا ووقوعها فى كل زمان من غير الأنبياء كما ادعاه الشيخ رشـيد رضا . فـكأن هذا الشيخ المستخف بالمعجزات الـكونية الناظر اليها نظرها الى أعمال السحر والشعوذة ، لايسمع لقوله تعالى : (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف مايأفـكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) وقوله : (ان نشأ ننزل عليهـم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين)

الثانى لاشك فى أن القرآن النازل على النبى العربى الذى يجدونه مكتوبا فى التوراة والانجيل ، أعظم معجزات هذا النبى بل أفضل معجزات الأنبياء على الاطلاق كما قلنا

من قبل أيضا ، لأن غيره من المعجزات الكونية انما هى وسائط لتصديق النبى وعلامات صدقه فى دعوى النبوة عن الله والبعث الى الناس، والغاية التى تأتى بعدها هدايتهم الى مافيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة . فالقرآن المعجز يجد العاقل فيه الغاية والواسطة معا . فاذا كانت معجزات الأنبياء تلفت الأنظار وتستجلب القلوب الى الكتب المنزلة عليهم والى قبول مافيها من الأوامر والنواهى على انها بلاغ من الله ، فالقرآن يلفت بنفسه الى نفسه والى قبول مافيه حقا وصدقا بل الى قبول مافى الكتب المنزلة قبله أيضا . ولذا قال تعالى : ( وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وقال ( وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى) يعنى أو لم يأتهم القرآن الذى هو بينة وشاهد صدق لنفسه ولغيره من الكتب المنزلة الأولى حيث نزل بالحق مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل وغيرهما . ويحتمل أن يكون المراد من بينة مافى الصحف الأولى مافى الكتب المنزلة قبل القرآن من التبشير بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم

وليس فى توبيخ مقترحى الآيات بأن يقال : أو لم يكفهم القرآن آية أو: أو لم يأتهم القرآن ، مايستلزم عدم وجود معجزة لنبينا غير القرآن ؛ كما أن اجابتهم بأن الله قادر على أن ينزل آية أو أنه يضل من يشاء و يهدى اليه من أناب أو انما الآيات عند الله أو انما أنت منذر لاتستلزم عدم وجود معجزة له مطلقا [١] وحسبك انها لم تمنع وجود معجزة القرآن ، بل الواو فى (أو لم يكفهم ..) أو (أو لم تأتهم..) تدل على ان له معجزة غير القرآن ، والمعنى : ألم يكفهم الآيات ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب

(١) كما ان جواب القرآن لما قال القائلون لرسلهم من الأمم الماضية : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قائلا : ( قالت لهم رسلهم إن نحن الا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله) لم يستلزم عدم وجود معجزات لأولئك الرسل

يتلى عليهم، ألم تأتهم آية ولم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى .

الثالث ان مقترحى الآيات أى المعجزات على الأنبياء يكونون فى الأكثر من المعاندين المتمردين عليهم لايريدون الا تعجيزهم فاذا جاءتهم لايقتنعون بها ويطلبون غيرها ، فالله تعالى لايستجيب لمقترحاتهم ولا ينزل آية يستميلهم بها الى الايمان بنبيه ولو شاركهم النبي فى استنزالها لأن الله يعلم انهم لايؤمنون كما قال ( وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ) فيمسك آياته عنهم ويصونها عن أن تتخذ هزؤا أوتذهب أدراج الرياح . وقد يكونون ممن حقت عليهم الضلالة لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ) فيقول الله فيهم لنبيه : ( أفأنت تنقذ من فى النار ) ويقول (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لايؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون )

وقد يكون مرماهم فى طلب المعجزات اختباراً لقدرة من يدعى النبوة على ايصالهم الى حظوظ الدنيا الفانية وشهواتها لاهدايتهم الى مناهج السعادة الأبدية ومدارج الانسانية الحقيقية ؛ وقد يكون مع ذلك استخفافهم بشأن النبي ﷺ واستعظام شأنهم أنفسهم كما قال الله تعالى : (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أوتكون له جنة يأكل منها) ـ الفرقان ـ وقال : ( وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشراً رسولا) ـ الاسراء ـ وقال : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير

الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ـ الأعراف ـ

فالدكتور هيكل باشا أورد من هذه الآيات آيات الأنعام والاسراء مستدلا بهما على أن القرآن ينفي كل معجزة لنبينا ﷺ الا نفسه أى القرآن؛ وليس فيهما دلالة على مدعاه ، فآيات الاسراء تحكى انهم طلبوا آيات معينة غريبة فى بعضها غلو وشطط كقولهم (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى كفيلا ، ويفهم من أكثرها انهم طلاب الدنيا لاطلاب الحق فعيبت عليهم مطالبهم ولم يستجب لهم ، مع التنبيه على ان محمدا ليس بإله وانما هو بشر رسول يعمل تحت ارادة الله ؛ وليس فى كل هذا دلالة على أن محمدا لم يأت بأى آية ولا يأتى وان أذن الله بها . ومدلول آيات الأنعام انهم أقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وقد علم الله انهم لن يؤمنوا اذا جاءتهم، حتى انهم لو أرادوا أن يؤمنوا لصرف الله قلوبهم وأبصارهم عن الايمان فلا يوفقون له ولا يؤمنون ان لم يشأ الله ولوجاءهم كل موجبات الايمان وحضتهم عليه . فالمفهوم من هذه الآيات بكل وضوح أن الذين يحكى فيها إقسامهم بالله على انهم ان جاءتهم آية ليؤمنن بها ، ممن حقت عليهم الضلالة فلذلك لا يأذن الله أن تأتيهم آية ، وهذا موضوع يختلف كل الاختلاف عما ادعاه الدكتور المؤلف فى هذه الآيات من أنها تدل على أن محمداً ماجاءته أيّة معجزة غير القرآن وان مقترحيها عليه لم يُستجب لهم مطلقا سواء كانوا ممن لايؤمنون ولو جاءهم ماسألوه من الآية أو ممن يؤمل منهم الايمان . فلا دلالة فى هذه الآيات على ماادعاه من أن سيدنا محمدا ماجاءته أيّ آية غير القرآن ، بل نقول ان فيها مايدل على مجيء آية اليهم أول مرة فلم يؤمنوا بها ثم اقترحوا مرة أخرى فرُد عليهم وشُدد فى الرد وهو قوله تعالى (كما لم يؤمنوا به أول مرة) وفى آية الاعراف تأييد واضح لما قلنا حيث يقول (سأصرف عن آياتنا الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لايؤمنوا بها) . وفى النهاية يقول : (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين )

الرابع ان السنة الالهية انزال العذاب على قوم أرسل اليهم رسول فعصوه وآذوه أو سخروا منه ومن آيات نبوته وأصروا واستكبروا استكبارا . وكتاب الله ينص على هذه السنة الالهية فى قوله ( حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وقوله (فهل ينظارون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين) وقد ذكرنا فيما سبق أن المراد من سنة الله التى قال الله عنها فى كتابه : لن تجد لها تبديلا ولن تجدلها تحويلا والتى حملها الغافلون على سنن الكون الطبيعية وبنوا عليها انكارهم المعجزات الكونية ، سنته فى نصر أنبيائه وتدمير أعدائه ، ويكون هذا النصر وهذا التدمير آخر معجزات الأنبياء بالنسبة الى المتمردين عليهم ، وتتقدم هذه المعجزةَ معجزات الهداية فيهتدى من يهتدى ويؤمن من يؤمن ، ويكون فى الباقين من يطلب معجزة أخرى تفوق الأُوَلَ ظهوراً وبهورا وتكون هذه المعجزة المطلوبة هى التى تأتى بعدها معجزة العذاب ؛ ولهذا يماطل الأنبياء عليهم السلام لاسيما الذين تغلب فيهم الرحمة ، فى الاتيان بهذه المعجزة (١) والقرآن يشير الى سنة نزول العذاب بعد هذه المعجزة فى كثير من آياته كقوله : ( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ) ـ الاسراء ـ وقوله ( بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ) ـ الأنبياء ـ وقوله :

---

(١) وفى تفسير الفخر الرازى : قال محمد بن كعب القرظى ان المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء وأن عيسى أحي الميت وان صالحا أخرج الناقة من الجبل فأتنا أنت أيضاً بآية لنصدقك فقال عليه السلام ماالذى تحبون فقالوا ان تجعل الصفا ذهبا وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون فقام عليه الصلاة والسلام يدعو ، فجاءه جبريل فقال ان شئت كان ذلك ولئن كان فلم يصدقوا عنده ليعذبهم الله وان تركوا تاب على بعضهم فقال صلى الله عليه وسلم بل يتوب على بعضهم فأنزل الله تعالى هذه الآية » أى آية الأنعام

( لو ماتأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ماننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ) ـ الحجر ـ وقوله : ( وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لاينظرون ) ـ الانعام ـ وقوله : ( قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذاباً لاأعذبه أحداً من العالمين ) ـ المائدة ـ وقوله : ( واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ) ـ الأنعام ـ

وصدر الآية يدل على أنه كانت تأتيهم آية ولكنهم كانوا يغالون فى الآية التى يؤمنون بها الى أن يقترحوا نزول الوحى عليهم ويؤتوا منصب الرسالة من الله . وطبيعى أن تقابل هذه الطلبات الطائشة منهم بالرفض والتوبيخ والانذار وهذا كما قال بنو اسرائيل لسيدنا موسى ( لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ) ـ البقرة ـ

فالآيات التى طلبوها من نبينا ﷺ ولم يستجب لهم فيها لم يكن سبب عدم الاستجابة أن نبينا دأبه أن لا يستجيب لطلب الآية لعدم كونه نبيا كما زعم المستشرقون ولا لعدم كونه لايستجيب لطلب المعجزة الكونية كما زعم مقلدو المستشرقين منا تقليداً أعمى ، وكيف يكون السبب أحد هذين الأمرين المزعومين مع أن بعض الآيات القرآنية الحاكية للطلبات المرفوضة نفسها يفهم منها أن النبى ﷺ كان يأتيهم بآية وانما الرفض مبنى على أسباب مختلفة فصلناها قريبا . وكان آخر ماذكرنا أن طالبى الآيات لما لم يقتنعوا بما أتى منها وطلبوا آية أعظم وأبهر ، أنذروا بما هو سنة الله فى الأمم الماضية من انزال العذاب بعدها ان لم يؤمنوا بها أيضا ، ولم يشأ الله استئصال أمة بعث اليهم آخر أنبيائه بانزال العذاب عليهم ، لاسيما وان هذا النبى لايفتأ يدعولهم قائلا : ( اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون )

وعلى قول الفاضل الهندى متم كتاب السيرة ان معجزة شق القمر كانت هى آية نبينا الباهرة التى يأتى بعدها العذاب فى سنة الله ان لم يؤمنوا بها أيضا (١) وهى كانت على تحقيقه آخر آيات الهداية ولهذا وقعت قبل الهجرة بقليل التى هى أيضا من سنة الله لما أراد انزال العذاب على قوم نبى ، فيأمر النبى ومن معه أن يخرجوا من بينهم وكان يوم بدر يوم انزال العذاب على مشركى مكة

فقد تبين ممـا سبق منا الى هنا ان القرآن ، فضلا عن عدم شهادته بنفى وجود معجزة غـيره لنبينا ﷺ التى ادعاها منكرو معجزاته الـكونية ، فيـه دلالة بل دلالات على وجود معجزات له غير القرآن . وألطف نواحى المسألة دلالة بعض الآيات التى يستشهدون بها على عدم وجود معجزة له غير القرآن ، على وجودها . فيظهر ان معالى مؤلف « حياة محمد » لم يتتبع القرآن عند دعوى النفى وانما اتبع المستشرقين واقتنع بمـا أوردوه من الشواهد ، وزيادة على عدم تتبعه بنفسه لم يسـتعمل دقته فيما وجد حاضرا عنده من أدلتهم المأخوذة من القرآن ، فقد ساق آية الأنعام الطويلة دليلا على رفض القرآن الطلبات والاقتراحات بصدد المعجزات وهى قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمـانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها .. الآيات ) مع ان فيها قوله : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ) دليلا واضحا على انهم أتتهم آية من قبل فلم يؤمنوا بها . لـكن المؤلف لم ير هذه الجملة الناقضة لدعواه حين أورد الآية لاثبات تلك الدعوى ، فـكان دليله يضره بينما هو ينفعه .

***

والآن نورد شواهد من القرآن نفسه تدل على وجود معجزات لنبينا ﷺ غير القرآن ، وان كان بعض تلك الشواهد مجملا لايدل على حادثة معينة . ولسنا بصـدد

---

(١) انظر هـذا القول من ذاك الفاضـل ثم انظر كيف تـكون هذه المعجزة الباهرة التى يأتى بعـدها العـذاب عبارة عن تخييل الانشقاق من غـير وقوع الشق ، ذلك القول الذى حكاه عن الدهلوى والغزالى وأجازه . وقد نقلناه من قبل مع الرد عليهم

التفصيل لواقعات المعجزات فحلها كتب الحديث والسيرة وكتب دلائل النبوة [1] وحسبنا فى صددنا ما أشير اليه فى الآيات الآتية :

١ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ـ الانعام ـ

٢ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين ـ يس ـ

٣ وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ـ القمر ـ

٤ وان يروا آية يستسخرون ويقولون هذا سحر مبين ـ الصافات ـ

٥ واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ماأوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته ـ الأنعام ـ

٦ زيادة الواو الدالة على آية أوآيات مقدرة يعطف عليها مابعدها فى قوله تعالى : ( وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انمـا الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ـ العنكبوت ـ والمعنى ألم تكفهم الآيات ولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم

٧ زيادة الواو فى قوله تعالى : ( وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ) ـ طه ـ والمعنى ألم تأتهم آية ولم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى

٨ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ـ الأنعام ـ وتمـام الآية ( وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لايؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا بهأول مرة ) والشواهد الثلاثة الأخيرة من شواهد نفاة المعجزات غير القرآن، معكوسة عليهم

٩ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ـ آل عمران ـ

---

(١) وقد أحصى الفاضل الهندى متم السيرة التى بدأ كتابتها المرحوم مولانا شبلى نعمان ، معجزاته صلى الله عليه وسلم الثابتة بالروايات الصحيحة فى كتب الحديث والسيرة وغير الثابتة بها

١٠ وإذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا ـ الأنفال ـ

١١ اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ـ الأنفال ـ

١٢ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ـ الأنفال ـ

١٣ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ـ الأنفال ـ

١٤ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ـ آل عمران ـ

١٥ اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ـ الأنفال ـ

١٦ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما ـ الأحزاب ـ

١٧ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها ـ الأحزاب ـ

١٨ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا ـ التوبة ـ

١٩ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا ان الله مخرج ماتحذرون ـ التوبة ـ

٢٠ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ همّ قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم

فكف أيديهم عنكم ـ المائدة ـ نزلت فى بنى النضير من اليهود لما ائتمروا بالنبى ﷺ حين أتاهم مع بعض خواص أصحابه يستقرضهم فى دية رجلين وقد كانوا عاهدوا النبى على ترك القتال وعلى أن يعينوه فى الديات فقالوا اجلس حتى نطعمك ونعطيك ماتريد ثم تآمروا على أن يطرح أحدهم رحى من فوق الجدار الذى جلس مستندا اليه فنزل جبريل وأخبر بذلك

٢١ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر ـ النحل ـ نزلت فى مهاجرى المسلمين الى الحبشة لما خاف عليهم اخوانهم فى مكة بما كان يعمل المشركون على احراج مواقفهم بالمهجر متوسلين اليه بالتأثير عند ملك الحبشة بارسال الهدايا الى موظفى قصره . فالله تعالى خيب مسعاهم وطمأن المؤمنين على حالة اخوانهم المهاجرين

٢٢ وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذاً لايلبثون خلافك الا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ـ الاسراء ـ نزلت فى هجرة الرسول ﷺ منبئة بدنو هلاك الذين أخرجوه من بلده . وكان المؤمنون وقت الهجرة ونزول الآية فى غاية الضعف ، فما مضت سنة حتى قتل صناديد قريش فى بدر وفاز المسلمون بالنصر الموعود

٢٣ أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر ـ القمر ـ

٢٤ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ـ النور ـ كان المؤمنون وقت نزول الآية فى قلة وعجز لاينامون الليالى آمنين على حياتهم من مهاجمة الأعداء المحيطة بهم . فمن ذا الذى كان يطوف بباله أن تكون من المسلمين دول عظمى تعلو كلمتهم فى وجه البسيطة كما تبشر به الآية ؟ حتى انه كان من المستبعد أن يتغلب المسلمون على قبائل العرب المجتمعة على معاداتهم . والآية المتقدمة

تنبيء بتمزق القبائل أمامهم

٢٥ ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ـ القصص ـ

٢٦ لقدصدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ـ الفتح ـ الآيتان تبشران بفتح مكة وكانت الأولى منهما نزلت أثناء الهجرة منها والثانية عند العودة من الحديبية

٢٧ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون — الفتح — اشارة الى الحروب الواقعة فى عهد الخلفاء الراشدين

٢٨ الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهوالعزيز الرحيم وعد الله لايخلف الله وعده — الروم — والآيات الاحدى عشرة الاخيرة تتضمن الاخبار عن الغيب الذى هو من المعجزات الكونية لكونه مخالفا لسنة الكون

٢٩ واذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين — الاحقاف —

٣٠ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا — الاسراء —

٣١ اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر — القمر —

قد بينا مافى آيتى القمر من مؤيدات وقوع معجزة انشقاق القمر بل وقوع غيرها أيضا ، وأبطلنا تأويلات المنكرين المتعمدين والغافلين . والآن نقف على معجزة الاسراء وننظر فى نصها ونرد أوهام المتأولين . والدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب « حياة محمد » الذى أغفل معجزة شق القمر فى كتابه بالمرة كما أغفل غيرها ، تعرض لنبأ الاسراء لاعلى أنه معجزة بل ذهب فى سبيل نفى اعجازه مذهبا أبعد من المعجزة لان

المعجزات من الممكنات فى مذهب العقل السليم وقد فصلناه فى أول هذا الكتاب، وما ذهب اليه هيكل باشا فى تأويل معجزة الاسراء وهو وحدة الوجود محال كما علمت تحقيقه فى الفصل الاول من الباب الثانى من الكتاب الكبير .ولا يدرى معاليه أن وحدة الوجود فكرة لا تخص على تقدير صحتها وامكانها بنبي دون نبى ولا بانسان دون انسان ولا بموجود دون موجود ولا بوقت لذلك النبى أو ذلك الانسان أو ذلك الموجود ، دون وقت ، لان كل الموجودات فى مذهب وحدة الوجود موجود واحد وهو الله . فنضرب عن هذا التأويل الحديث لمعجزة الاسراء ، المستغنى لبطلانه عن الابطال صفحا ، وننظر فى التأويل القديم :

آية الاسراء فى القرآن صريحة غير قابلة للتردد والتلكؤ فى أن الله تعالى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . فكما لو قلت سريت من محل فلانى الى محل فلانى لا يكون وجه للتردد والسؤال هل كان ذلك بجسمك أم بروحك وفى اليقظة أم فى المنام ؟ فكذلك لا يجوز الاختلاف فى معنى هذا السُّرَى ولا فى أن العبد اسم للروح أو الجسد أولهما معا ، كما وقع بين القائلين بالاسراء الجسمانى والاسراء الروحانى

نعم يخطر بالبال كيف يمكن السُّرى ليلا أى فى جزء من الليل من مسجد الى مسجد بينهما مسافة شهرين ذهابا وإيابا ؟ ثم لما نُظر الى تعبيرات القرآن ورؤى انه لا يقول سَرى محمد بل يقول ان الله أسرى به مع التسبيح لهذا الذى أسرى به وتنزيهه من الكذب والعجز ، زال كل شبهة وكل تردد عن أساسه . فاذن يلزم أن يكون فعل الاسراء الذى يقول الله تعالى انه فاعله والذى يسبح قائله لنفسه من حيث انه فاعله ويعبر عن المسرى به بعبده المشرَّف بتمحضه فى عبوديته ثم يذكر الغاية لهذا الفعل بقوله : ( لنريه من آياتنا ) ، فعلا فى منتهى الخطورة والأهمية ويلزم أن يبقى مصونا

عن كل تأويل ينقص من خطورته وأهميته(١)

فنى جنب هذا التصريح المعظم يذوب كل ماقيل أو يقال فى تأويله . فمنه ماذكر ابن هشام فى سيرته وابن جرير فى تفسيره من روايتين عن معاوية وعائشة رضى الله عنهما وهما أن محمد بن اسحق قال حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة أن معاوية كان يقول لما سئل عن المعراج انه كان رؤيا صادقة ، وان ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد يعنى ابن اسحق قال حدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول : « مافقد جسد رسول الله » ، مع أن فى الرواية عن معاوية انقطاعا لأن ناقل الخبر الى ابن اسحق لم يسمعه عن معاوية لعدم كونهما فى عصر واحد ؛ وفى الرواية عن عائشة لم يذكر اسم من روى عنها من أقاربها وانما عبر عنه ببعض آل أبى بكر ، وفيها شيء آخر وهو ان عائشة لم تكن فى زمن الاسراء بموقف أن تقول القول المروى عنها لأن الاسراء وقع قبل الهجرة بسنة أو أكثر وتزوج النبي بها فى المدينة وهى على المشهور فى التاسعة من عمرها فتكون فى زمن الاسراء طفلة فى السابعة ، ولم يبت رسول الله ﷺ ليلته تحت مراقبة عائشة التى لم تكن زوجه وقتئذ ولا مراقبة غيرها من آل أبى بكر حتى يكون من حقها أوحقه أن يقول مافقد جسد رسول الله !!

---

(١) حتى ان محاولة تقريب الاسراء من الأذهان وإثبات امكانه بأمثلة من مكتشفات العلم فى العصر الأخير ، كما توسل اليه أيضا مؤلف «حياة محمد» — وحكاه فضيلة الأستاذ المراغي فى تعريفه بهذا الكتاب من غير نكير بل بشيء من الاعجاب — بعد ان توسل بوسائل كثيرة أخرى فى انكار المعجزات الكونية ، مما ينقص من خطورة هذه الحادثة لدرجة تنزيلها من السماء الى الأرض وتعتبر عندى نزعة من نزعات انكار المعجزة، ورد مالا يمكن انكاره من حادثاتها الى أحضان العلم الطبيعى شكل من أشكال الانكار . لأن العلم الطبيعى يبنى كل شيء الى سبب طبيعى فى حين انا نعنى بالمعجزة مايكون فوق الطبيعة سببا وعلما فلا يوجد لها سبب من الطبيعة ولا طريقة من العلم . وانما مبناها على إرادة الله التى هى السبب الأعلى والتى تستند اليها الطبيعة وغيرها على السواء. فعلى قارئ هذا المبحث ان يعتنى قبل كل شيء الى هذه الدقيقة . ولو كان للعلم سبيل الى المعجزة التى هى من خواص النبوة لكان التقدم فى العلم يصعد بالعالم الى ان يجعله نبيا من الأنبياء وليس هذا مذهبنا بل مذهب القائلين بالنبوة المكتسبة الراجع الى نفى النبوة الحقيقية والذى سبق منا إبطاله

والدليل الثانى للمؤولين قوله تعالى : ( وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الافتنة للناس) فيعبر عن الاسراء بالرؤيا. والجواب مافى صحيح البخارى ومسلم من قول ابن عباس رضى الله عنهما « ان هذه الرؤيا رؤيا عين أريها رسول الله لما أسرى به الى بيت المقدس كقول الراعى :

فكبّر للرؤيا وهش فؤاده     وبشر نفسا كان قبلُ يلومها

وقول المتنبي :

مضى الليل والفضل الذى لك لايمضى     ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض

فيفهم انه قد يقال للرؤية فى اليقظة رؤيا اذا وقعت فى الليل . فان اعترض على الاستشهاد بقول المتنبي والراعى فى اللغة فلا كلام على الاستشهاد بقول ابن عباس

ولى فى المسألة رأى آخر وهو ان النزاع على فرض وقوعه بين الصحابة فى الرؤيا المذكورة فى الآية ، يلزم أن يكون راجعا الى مابعد الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى المنصوص عليه فى صدر السورة ، فتكون الحادثة مفترقة الى قسمين ويمكننا أن نسمى القسم الأول الاسراء كما سماه الله والقسم الثانى المعراج كما وقع فى الرواية عن معاوية . والأول ثابت بالكتاب والثانى بالحديث المشهور . والرؤيا المذكورة فى الآية الثانية على أى معنى كانت ، راجعة الى هذا القسم الذى وقع فى ذيل الاسراء المذكور فى الآية الأولى لا الى الاسراء نفسه والا فكيف يمكن بعد ان قيل بأجلى صراحة توقظ النائم عن نومه والغافل عن غفلته : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ) ان يقال فى آية أخرى ان حديث الاسراء كان رؤيا منامية ؟ !

ولا يصعب فهم ماذهبنا اليه من تفريق المسألة الى قسمين وجعل الرؤيا راجعة الى القسم الثانى ، من لفظ ابن عباس : « ان هذه رؤيا عين أريها رسول الله لما أسرى به الى بيت المقدس » حيث جعل الاسراء ظرفا للرؤيا ولم يجعل الرؤيا ظرفا للاسراء ،

فيكون الخلاف فى الرؤيا الواقعة فى الاسراء الذى لاخلاف فيه ، فابن عباس لايرضى أن يكون عروج رسول الله ﷺ الى السماوات ورؤية مارآه فيها ليلة أسرى به الى المسجد الأقصى ، وهو الذى عبرنا عنــه بالقسم الثانى من واقعات تلك الليلة — حالة منامية كما لم يكن الاسراء الى المسجد الاقصى الذى هو القسم الاول حالة منامية ؛ وعلى قول معاوية فى الرواية الضعيفة عنه يكون الاسراء عيانا وما بعده رؤيا صادقة ، والا فليس لمعاوية ولا لأى مسلم يفهم الـكلام العربى ويفقه الفرق بين أساليب الالقاء أن يتردد فى تصديق كون الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى المصرح به فى أول السورة المسماة به ، واقعــة عيانيــة . فاذن لابد أن تـكون رواية الرؤيا عن معاوية اما محمولة على مابعد الاسراء أو مكذوبة عليه. وهكذا نعتبر كل رواية فى تفسير الحادثة تخالف نص القرآن ، مرفوضة

وحمل الرؤيا فى الآية الأخرى على الحالة المنامية كما ينافى الصراحة الرائعة للآية الاولى يتنافى أيضا مع ماذكر فى آية الرؤيا نفسها من جعــل تلك الرؤيا فتنة للناس اذ الرؤيا المنامية مهما أمعنت فى الغرابة لا تـكون فتنة للناس . فلو كان نبأ الاسراء من أوله الى آخره رؤيا فى المنام لم يلتئم أول الآية التى ذكر فيها الرؤيا مع آخرها ، وقد روى أن حكاية النبى ﷺ ماجرى فى ليلة الاسراء أثارت الدهشة فى سامعيها من المسلمين والمشركين حتى كان بينهم من ارتد عن الاسلام استبعادا للأمر وذهب بعض من أخذتهم الريبة الى أبى بكر وحدثوه حديث النبى ﷺ فقال انـكم تـكذبون عليه يعنى انه استبعد أيضا، قالوا هاهو ذاك فى المسجد يحدث الناس فقال بعد أن اقتنع بأنه حديثه : « لئن كان قد قاله لقد صدق انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فاصدقه »

والعجب ان الـكاتب الـكبير الهندى الذى مر ذكره غير مرة والذى ألف فى عصرنا كتابا فى السيرة قيما جدا اذا قسناه بكتاب معالى هيكل باشا وجدنا مسافة الفرق

الفرق بينهما أكثر من مسافة الفرق بين كتاب معاليه وبين كتاب واحد من المستشرقين فى هذا الوضوع ، وخص مجلدا كبيرا من مجلداته ـ وقد قسم هذا المجلد فى الترجمة التركية الى مجلدين ـ بحياة نبينا الروحانية أعنى معجزاته ؛ العجب ان هذا الكاتب [١] مع عدم تردده فى وجود معجزات له ﷺ غير القرآن وقد أحصاها فى المجلدين المذكورين من كتابه ومع عدم تردده فى كون الاسراء واحدا من أعظم تلك المعجزات؛ اختار مذهب الرؤيا فيه مطلقا أو على الاقل لم يكن واضحا فى التفريق بين قسميه اللذين ذكرناهما واللذين أحدهما ثابت بالكتاب يكفر منكره والثانى ثابت بالسنة المشهورة . ثم أجاب عن الاعتراض على هذا المذهب بعدم معقولية كون الرؤيا فتنة للناس لدرجة ان مسألة الاسراء سببت ارتداد طائفة من المسلمين الذين كانوا أسلموا قبلها ، أجاب عن هذا الاعتراض بعدم قبول رواية الارتداد مع مافيها من امتياز أبى بكر رضى الله عنه بالمسارعة الى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم حتى لقب بالصديق

وأنا أقول فلنسلم ان هذه الروايات مختلقة عن آخرها ، ولكن ماذا نقول فى تصريح آية الرؤيا بكونها فتنة للناس ؟ ! فلا بد أن تكون هناك بالنظر الى نص القرآن فتنة ان لم تكن للمسلمين فللمشركين باثارة استبعادهم وانتهازهم فرصة امتحان الرسول بأسئلة عن القدس والمسجد الأقصى وعن الطريق بين البلدين. ولا يعقل ان تكون الرؤيا المنامية داعية الى اعظام الأمر لحد أن تجعل فتنة للناس بأى وجه كان ، فإن أجاب أخونا الفاضل المذكور باحتمال ان يكون المشركون لم يظنوها رؤيا ، فمن المستبعد جدا أن يظنوا ماحدثهم رسول الله على انه رؤيا ، عيانا وليس بعجد لذلك ان تعدّ هذه الاعتراضات عقلية ، فهى عقلية مبنية على أساس نقلى هو كون القرآن صرح بأن الله جعل الرؤيا التى رآها رسوله فتنة للناس ، فنحن لا محالة مضطرون الى الأخذ بقول ابن عباس فى الرؤيا كيلا يكون لآية الرؤيا نفسها معنى

---

(١) أو بالأصح متم كتابه بعد وفاته وهو الفاضل سليمان الندوى

مختل غير معقول ، فيكون لفظ الرؤيا حقيقة فى معنى الرؤية مطلقا ويكون قول ابن عباس أو استعمال القرآن بالذات شاهدا لغويا يجب إكمال مافى المعاجم من النقص توفيقا له ، أو يكون استعمال الرؤيا فى معنى الرؤية استعمالا مجازيا خاصا بالرؤية ليلا كما ذهب اليه بعض المفسرين وكما وقع فى شعر المتنبى المار الذكر

***

ثم ان هذا المؤلف الفاضل عقد للمعجزات ٣١ فصلا وذكر فى الفصل الرابع عشر الذى خصصه مع الفصل الثالث عشر لمعجزة الاسراء ، أسرارها وأحكامها وبشائرها ونعمها ومناداتها مجيدا فى الذكر ومفيدا غاية الاجادة والافادة فكاد يطبق سورة الاسراء التى فى القرآن الكريم من أولها الى آخرها على واقعة الاسراء وما تضمنته من الأسرار والأحكام . ونحن نذكر مايمكن ذكره فى بعض صفحات مما خصص له المؤلف ٢٥ صفحة . فى سورة الاسراء :

١ اعلان كونه ﷺ نبى القبلتين

٢ اشارة الى انتهاء ولاية اليهود وحراستهم القدس وتفويض ذلك الى آل اسماعيل

٣ اشارة الى انتهاء دور الوعظ والنصح لكفار قريش واقتراب دور العذاب منهم، باخراج الرسول من بينهم مهاجرا

٤ الأحكام والوصايا فى المعراج

٥ الأمر بالصلاة والاشارة الى أوقاتها الخمسة

(١) ففى معجزة الاسراء والتنويه به فى مطلع السورة المسماة باسمه ، مناداة النبى ﷺ وإعلانه نبى القبلتين : فقد كان سيدنا ابراهيم أُعطى ولاية الأرض المقدسة فقسمها بين إبنيه : شبه جزيرة العرب وفيها مكة لاسماعيل ، وسوريا وفيها القدس

لاسحق ، فتمهد القدس بنو اسرائيل الذى هو لقب يعقوب بن اسحق وفيهـم أنبياء بنى اسرائيل من يوسف الى عيسى عليهم السلام . وتمهد مكة بنو اسماعيل ، وكانت قبلة بنى اسرائيل بيت المقدس وقبلة بنى اسماعيل الكعبة فجمع فى نبينا ميراث ابراهيم المنقسم بين نجليه! فلذلك صلى الى القبلتين بعد أن فرضت الصلاة، ولذلك أسرى به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وصلى فيه بالأنبياء فأعلن كونه نبى القبلتين، وفى هذه الليلة فرضت الصلاة كما انه أشير الى أوقاتها الخمسة فى سورة الاسراء نفسها

(٢) كانت سورة الاسراء نزلت بمكة . ولما أنه ليس لرسول الله اتصال باليهود فى مكة لم يكن القرآن يخاطبهم ، فخاطبهم أول مرة فى هذه السورة اشارة الى افتتاح دور جديد فى الاسلام باقتراب الهجرة الى المدينة وتأسس المناسـبة فيها بين المسلمين واليهود ، فذكر ان اليهود الذين أوتوا التوراة هدى لهم قُضى اليهم أنهم ليفسدن فى الأرض مرتين بغياً وعتواً وليجزون بسوء أعمـالهم . فى المرة الأولى سُلط عليهـم بختنصر فدمرهم وخرب ملـكهم ثم تابوا فتاب الله عليهم وأعاد اليهم دولتهم ، وفى المرة الثانية سلط عليهم الرومانيون فقتـلوهم وخربوا ديارهم . ثم بعـد مبعث محمد ﷺ أعطاهم الله فرصة التوبة للمرة الأخيرة: فان تابوا وأطاعوا الرسول فالله يرحمهم ، وان عادوا الى المعاصى عاد الله الى العقوبة . فان لم ينتهزوا الفرصة فسيحرمون نهائيا حراسة بيت المقدس ويجمع ميراث اسرائيل الى ميراث اسماعيل فيتولاهما النبى ﷺ معا ، وهذا نص القرآن :

( وآتينا موسى الـكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل أن لا تتخـذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شـكورا . وقضينا الى بنى اسرائيـل فى الـكتاب لتفسدُن فى الأرض مرّتين ولتعلنّ علواً كبيرا . فاذا جاء وعد أُولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شـديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لـكم الـكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا . إن أحسنتم

أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها فاذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجدكما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا. عسى ربكم أن يرحمكم وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا )

(٣) وفى هذه السورة أيضا إنذار نهائى لكفار قريش فقد كانوا يستعجلون النبى ﷺ بالعذاب تمرداً عليه ، فأنبئوا ان الله لايعذب قوما حتى يبعث اليهم من يهديهم الى صراط الله وحتى ييأس الهادى من اجابتهم الدعوة وفى هذه الحالة يُرى اتفاق المترفين والمستكبرين على اسكات الحق وخنق صوته، ويكون الذين ينحازون اليهم الواثقين بقوتهم وثروتهم والمنحازون الى الهادى هم الضعفاء والفقراء كما وقع للنبى ﷺ مع قومه . فكانت الحالة مؤذنة بقرب مجىء الأمر للنبى ومن معه بالهجرة وانزال العذاب على الباقين . وفى هذه السورة اشارة الى كل هذا ، حتى ان فيها تبشير المؤمنين بفتح مكة بعد الهجرة وزوال نعمتى الاشراف عليها وحراسة الكعبة من أيدى كفار قريش وانتقالها الى المؤمنين ، انظر الى قوله تعالى :

( ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا . وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما . ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ) وقوله ( وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولاتزر وازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا . واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيرا ) وقوله ( وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذا لايلبثون خلافك الا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) وقوله (وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى

مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا . وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا )

فـكما أن فى نبأ استفزازهم النبى ﷺ ليخرجوه من أرضه وتلقينه الدعاء الخير فى مدخله ومخرجه ، اشارة واضحة الى اقتراب هجرته من مكة ، ففى ذكر عدم لبثهم فيها بعد خروجه منها الا قليلا وتعليمه أن يسأل السلطان النصير له من عنـد الله فى مدخله ومخرجه ، ثم يقولَ جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، اشارة الى اقتراب موعد الهلاك من كفار قريش والنصر للمؤمنين عليهم وفتح مكة ، حتى ان النبى ﷺ لما دخل مكة فاتحا وطهر الـكعبة من الأوثان قرأ هـذه الآية من سورة الاسراء النازلة فى مكة قبل الهجرة أعنى : ( وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا )

(٤) ان الله تعـالى دعا عبـده الخاص الى لقائه الأقدس لتولية الـكعبة وبيت المقدس وأوصاه الوصايا الآتية كشروط التولية :

( لا تجعل مع الله إلٰها آخر فتقعد مذموما مخذولا . وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الـكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم ان تكونوا صالحين فانه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسـطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبـيراً بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله

الا بالحق ومن قتــل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . وأوفوا الـكيل إذا كلتم وزنوا بالقسـطاس المستقيم ذلك خـير وأحسن تأويلا . ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئـك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها )

ثم قال (ذلك ممـا أوحى اليك ربك من الحكمة ) كما قال فى سورة النجم بعـد قوله : ( ثم دنى فتدلى فـكان قاب قوسين أو أدنى : ( فأوحى الى عبده ماأوحى)

والوصايا المذكورة فى الآيات التى كتبناها اثنتا عشرة وصية جامعة لأسس الخير والشر فى الدنيا . يقول المؤلف : « وهذه الأوامر الالٰهية تكملة الأوامر العشرة التى تلقاها سيدنا موسى من ربه فى الطور » ثم ذكر الأوامر العشرة هكذا :

لااله لكم غيرى

لاتحلفوا كاذبين

اذكروا يوم السبت

احترموا الوالدين

لاتسفكوا الدماء

لاتزنوا

لاتسرقوا

اجتنبوا شهادة الزور ضد جيرانكم

لاتطمعوا فى امرأة جاركم

لايضلـكم مال جاركم

وفى السورة اشارة أيضا الى الصلوات الخمســة التى فرضت فى ليلة الاسراء وهى

قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر ) أى أدمها من وقت زوال الشمس الى اجتماع ظلمة الليل ، وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين بالاستمرار بل اقامة كل صلاة فى وقتها الذى حدد لها ببيان جبريل، كما ان أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه . فيدخل فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى فى أوقات الصلاة من غير فصل بينها لما أن الانسان يكون فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فان الاشتغال فيما بينهما بالنوم يقطع أحدهما عن الآخر، ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . والمراد بقرآن الفجر صلاة الفجر سميت به لكونه ركنها كما تسمى الصلاة بالركوع والسجود تسمية الكل باسم الجزء ، ومن السنة اطالة القرآن فى صلاة الفجر

بقى ان نقول : من العجب اختيار أخينا الفاضل الهندى متمم السيرة الذى كشف اللثام بمهارة عن أسرار ليلة الاسراء وأحكامها ، كون الاسراء نفسه حالة منامية، وهو لا يفرق بين الاسراء والمعراج وانما يعتبرها حادثة واحدة مذكورة باسمين ، أليس عجيبا أن تكون تلك الأحكام الجامعة لأسس الخير والشر الآمرة ببعضهما والناهية عن الآخر ، أوحيت فى الرؤيا حتى الصلوات الخمس أيضا فرضت فى المنام !! وان كانت رؤيا النبى ﷺ لا تقاس برؤيا غيره ونومه بنوم غيره ، فهل سورة الاسراء أيضا التى طبق الكاتب معظم آياتها على حادثة الاسراء نزلت فى المنام على خلاف سور القرآن الأخرى ؟ ! فالحق ان المعراج أيضا ونعنى به مابعد الاسراء لم يكن حالة منامية وقد فسرنا به قول ابن عباس فى تفسير قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس) كما لا احتمال أصلا لأن يكون الاسراء حالة منامية

وهنا انتهينا بحمد الله عن الكلام فى مسألة المعجزات . ونريد الآن أن نتكلم فى مسألة البعث بعد الموت ، فنقول ومن الله التوفيق والهداية الى القول الحق :

## مسألة البعث

لمنكرى البعث بعد الموت ، وربما يقال عنهم منكرو الحشر ، صورتان للانكار وطريقتان توصلانهم اليه . فالصورة الأولى إنكار الحشر بالمرة جسمانيا وروحانيا وهو مذهب ملاحدة الماديين . والصورة الثانية إنكار الحشر الجسمانى فقط وهو مذهب الفلاسفة الالهيين أى المعترفين بوجود الله . وقد أنكرهما الأستاذ فريدوجدى لما أنكر البعث بعد الموت قبل تولى الوظيفة الأزهرية . وفى الأيام الأخيرة التى أخذ يعترف بالآخرة فى مجلة الأزهر اعترافا يختلسه أثناء كلماته من غير المام الى انكاره القديم بشىء من الندامة والرجعة ، لابد أن يكون اعترافه مصروفا الى الحشر الروحانى ، لكون هذا الاعتراف المختلس حدث منه بعد نزوعه الى مذهب الروحيين من علماء الغرب القائلين بوجود الروح ، وليبق على الأقل أدنى رابطة بين قوله الحديث وقديمه الذى لم يعترف الى الآن بخطأه فيه ، فلا يكون الأستاذ فريدوجدى المقر كأنه غير الأستاذ المنكر تماما

ومذهب الاسلام الجزم بوقوع الحشر وتحقق عالم الآخرة عند مجىء وقته جسمانيا وروحانيا معاً ، لأن كتاب الله صريح بهذا الصدد لايكون وراءه صراحة ويكون انكار الحشر الجسمانى بعد تلك الصراحة بل الصراحات انكاراً للقرآن ، ولذا أفتى علماؤنا بكفر الفلاسفة القائلين بالحشر الروحانى فقط . أما رد الأستاذ فريد وجدى جميع آيات القرآن الواردة فى البعث والحشر وما يلاقيه الانسان فى نشأته الآخرة ، الى المتشابهات التى لا تفهم معانيها فليس انكاراً للقرآن فقط ، بل انكاراً أيضا لما فى بدائه العقول وهو كون تلك الآيات مفهومة واضحة المعانى (١)

---

(١) نعم نحن عارفون بكون مراد الأستاذ ان تلك الآيات متشابهة غير مفهومة المعانى لاستحالة وقوع تلك المعانى المفهومة المخالفة لسنن الكون وللعلم الحديث المثبت الذى سبق ان جعل له الأستاذ الدولة فى الأرض . واذا كان ذلك مراده لاان تلك الآيات لايفهم منها معنى من المعانى ، كان معنى الرد الى المتشابهات تكذيب القرآن فى تلك الآيات لاسيا فى قوله تعالى مثلا ( أو لم يرو أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ) وقوله ( فلينظر الانسان

وأما مايرى فى بعض كتب أصول الدين عند تعداد المذاهب فى المعاد من أن مذهب جمهور المتكلمين المعاد الجسمانى فقط، فليس معناه حشر الأجساد خالية عن الحياة اذ لامعنى له ، وانما سبب هذا المذهب كون أولئك المتكلمين غير قائلين بوجود الروح مجردة عن البدن ، فهى عندهم عرض قائم بالبدن فلا حاجة فى مذهبهم الى اعادة الروح لكون اعادة البدن تتضمن اعادتها . لكن المحققين من المتكلمين كالحليمى والغزالى والراغب وأبى زيد الدبوسى قائلون بوجود الأرواح وحدوثها مع الأبدان —وهو مذهب ارسطو وابن سينا — ثم بقائها بعد مفارقة الأبدان الى أن تعاد لها أبدان تتلاءم مع النشأة الثانية ، وهذه الأرواح هى المرادة من الأجزاء الأصلية المحفوظة للانسان كما فى « تهافت الفلاسفة » لخواجه زاده . وبهذا تنقذ مسألة المعاد عن لزوم اعادة المعدوم بعينه التى يدعى منكروها استحالتها بل بداهة استحالتها

وقوله تعالى ( كل شيء هالك الا وجهه ) ليس بقطعى الدلالة على هلاك الأرواح مع كل شيء هالك لاحتمال أن يكون معناه هلاك كل شيء سوى الله حتى فى حال وجوده لكونه ممكنا يحتاج فى وجوده الى من يوجده وهو الله ، فلا وجود لما سوى الله لذاته وكفى بذلك هلاكا . والهلاك بهذا المعنى يشمل الأرواح أيضا الباقية بعد الموت

وجمهور المتكلمين القائلون بجواز اعادة المعدوم بعينه يستدلون بهذه الآية على فناء الأرواح مع الأبدان ويجعلون الحشر بالاعادة لا بجمع الأجزاء المتفرقة التى لامدخل لها فى تعيين هوية الانسان وضمها على الأجزاء الأصلية المحفوظة . وهو أى جمع الأجزاء مذهب المحققين المتفقين مع الفلاسفة فى عدم تجويز اعادة المعدوم بعينه

ومع كون مذهبهم أسلم من النقاش ، ولا مانع عندى من اختياره ، فلى بحث فى

---

مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر ) وقوله ( وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ) بناء على أن قدرته تعالى لاتتعلق بالمستحيلات وهذه الآيات تصرح على دعوى كون الله قادراً على بعث الموتى الذى هو مستحيل عند الأستاذ

دعوى استحالة اعادة المعدوم التى انتصبت مشكلة قديمة امام مطلب الحشر الجسمانى [١] وليس معناها أن قدرة الله لاتسع ايجاد نشأة ثانية للانسان فى عالم ثان كما خلقهم فى حياة الدنيا ، وانما الكلام فى امكان أن يكون أشخاص الناس المعادون فى النشأة الثانية عين الأشخاص الذين عاشوا فى الدنيا وعملوا أعمالا يحاسبون عليها ويجزون بها فى نشأتهم الثانية ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وأن لايكون المجزى غير العامل ، فهل يمكن عقلياً حفظ هذه العينية الأولى فى الخلق الثانى أو يستحيل ذلك عقلا ؟ وان كان لامحل للكلام بين العقلاء المعترفين بوجود الله وقدرته على الممكنات ، فى قدرة الله على خلق الخلائق سواء فى النشأة الأولى أو فى النشأة الثانية . فعلى المسلم المتعلم غير المقلد فى دينه وعقيدته أن يطمئن الى كون ذلك ممكنا ككل مايدخل فى عقيدته من متعلقات قدرة الله المشروطة بامكانها فى حد ذاتها ، مع تثبيت معنى الامكان فى ذهنه على الوجه الصحيح العلمى ، وانى لاأقصد بالعلم علم الملاحدة الحديث الذى يرى مالايدخل تحت التجربة الحسية مستحيلا كاحياء الموتى لأن ذلك العلم لايميز المحال من الممكن بمقياسه الصغير الذى هو التجربة الحسية والذى بهذا المقياس أيضا لايعترف بوجود الله ، وكان الأستاذ فريد وجدى حين أنكر معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت أنكرها بناء على مقياس العلم المذكور

فمشكلة الحشر الجسمانى فى العلم الحديث غيرها فى العلم القديم [٢] بل هى فى العلم الحديث ليست بمشكلة أصلا وانما عبارة عن كون أصحاب ذلك العلم أو بالأصح بعض أصحابه الذين هم الملاحدة الضالون فى حدود علومهم عن سبيل العقل ، التبس عليهم عدم وقوع الحشر والبعث بعد الموت فعلا حتى الآن ، بعدم امكان ذلك أبديا فظنوا انهم ــ ولا دليل عندهم غير التجربة ــ بتجربتهم للماضى جربوا المستقبل أيضا . أما

---

(١) حتى انك ترى الصدر الشيرازى صاحب « الأسفار الأربعة » يتشدد فى تعييب المتكلمين لقولهم بجواز اعادة المعدوم بعينه وينحى عليهم باللوائم البذيئة

(٢) ولذا قلنا فى صدر هذا المبحث ان لانكار الحشر من منكريه طريقتين توصلانهم اليه

مشكلة اعادة المعدوم بعينه بعد الاعتراف بوجود الله وقدرته على خلق الخلائق للدنيا والآخرة ، أى المشكلة القديمة المتولدة من دعوى عدم امكان أن يكون المخلوق ثانياً عين المخلوق أولا الذى هو صاحب العمل الصالح أوالعمل السيئ ، فأقوى أدلة المدعين على عدم هذا الامكان أن المعاد لوكان عين المبتدأ لزم تقدم الشيء أعنى المبتدأ على نفسه أعنى المعاد ، ذلك التقدم المحال الذى هو مرجع بطلان الدور . فاذا قيل لهم اعتراضا على دليلهم هذا ان الانسان فى العشرين من عمره مقدم على نفسه فى الأربعين ، بل ان مثل هذا التقدم يحصل له بين أمسه ويومه ، أجابوا بأن هذا لايضر لعدم تخلل العدم بين المقدم والمؤخر كما تخلل بين المبتدأ والمعاد

والحق عندى ان المانع من الاعادة ان كان لزوم تقدم الشيء على نفسه فهو واقع فى رجل واحد بالنسبة الى زمانيه فى حياته الدنيا ، ولا نسلم بكون تخلل العدم بين المقدم والمؤخر وعدم تخلله فارقاً مؤثرا فى الجواز وعدم الجواز ، لأنه اذا كان معنى عدم جواز دخول العدم بين الشيء ونفسه انه لايجوز أن يكون الشيء موجوداً ثم معدوما ثم موجودا فى أزمنة مختلفة فما المانع من ذلك ؟ وهل الله غير قادر أن يخلق مرة ثانية أحدا من الذين خلقهم ثم أرداهم ؟ ومن أين يجب أن يكون كل مايخلقه فى المرة الثانية خلقا آخر غير الأولين ؟ ومن أين يلزم فيما خُلق ثم عُدم ثم خلق ثانياً ، أن يبقى فى حال عدمه شيء منه ليكون حلقة اتصال بين وجوديه وان لايمكن خلقه بعينه من دون ذلك ؟ حتى انهم تصوروا امكان اعادة المعدوم فى مذهب المعتزلة فقط القائلين بأن هويات المعدومات الممكنة متمايزة ثابتة فى العدم ثبوتا منفكا عن الوجود الخارجى ، لولا ان ذلك المذهب باطل . ولكن لماذا يحتاج خالقه ثانيا الى بقاء مثل هذه الوسائط؟ ألئلا يخطئ عند الاعادة فيخلق خلقا آخر على ظن أنه عين المخلوق الأول ؟ فهل لا يكفيه لئلا يخطئ فى الخلق بقاء المخلوق الأول بعدعدمه فى علمه ؟ ومنشأ المشكلة وهمٌ أتعجب غاية التعجب من تعلقه بأذهان الناس وفيهم أعاظم العقلاء مثل

الشيخ الرئيس ابن سينا وكثير من محقق المتكلمين المتأخرين وكلهم لايستنكفون عن الاعتراف بوجود الله وسعة قدرته . أما شتم صاحب الأسفار لجمهور المتكلمين بسبب هذا الوهم الحاصل فيه وفى قادته فشىء لا يكفيه التعجب

وتوضيح الأمرأن تقدم الشيء على نفسه باطل لاشك فيه كما فى الدور الباطل وكذا دخول العدم بين الشيء ونفسه لكن لاشىء فى اعادة المعدوم بعينه من التقدم والدخول المذكورين الباطلين كما انه لاتقدم ولا تأخر بين الانسان ونفسه بالنسبة الى زمانيه فى الدنيا لأن العين والنفس فى الصورتين ليستا عينا ونفسا من كل وجه ، بل المقدم غير المؤخر فيهما بقيد معتبر فى كل واحد من الطرفين يجعله غير الطرف الآخر ويجعل تقدم المتقدم على المتأخر ممكنا . فزيد الذى فى عالم الآخرة المثاب فى الجنة أو المعذب فى جهنم وزيد الذى كان فى الدنيا غيران طبعا ، مهما كانا ذاتا واحدة كما يقال الاثنان غيران ، فلا يكون تقدم زيد الدنيوى على الأخروى تقدم الشيء على نفسه . ولو لم يكن الزيدان المذكوران غيرين لوجد هذا فى دنياه نعيم الجنان أو عذاب جهنم ووجد ذلك فى الجنة أو النار حالات كونه فىالدنيا، وهذا مستحيل كاستحالة وجود رجل واحد فى آنواحد فى دارين مختلفتين . وكذا الانسان فى شيخوخته غيرهطبعا فىشبابه، والا كان شيخا وشابا فى زمان واحد وهو محال

فظهر من هذا ان الزمان بل المكان أيضا داخل فى مشخصات الأشخاص وان دخوله لا يمنع الحشر الجسمانى على طريقة اعادة المعدوم بعينه التى فى مذهب جمهور المتكلمين ، كما زعمه خصوم هذا المذهب لانالمطلوب فى كون المعاد عين المبتدأ ليست العينية من كل وجه المستحيلة والمستلزمة دخول العدم بين الشيء ونفسه أو تقدم الشيء على نفسه بل يكفى وجود الاتحاد الذاتى بين المبتدأ والمعاد على وجه يصح بينهما الحمل بهو هو وان تغايرا من حيث ان المبتدأ متقدم الوجود على المعاد ، لكن لايمنع هذا التقدموهذا التغاير كونالمتأخر عينالمتقدم ومتحدا معه من حيثالذات، كمالا يمنع

التقدم والتغاير بين زيد الشاب وزيد الشيخ كونهما ذاتا واحـدة . والفرق بين كون زيد رجلا واحدا فى شبابه وشيخوخته وبين كون زيد المعاد فى الآخرة متحد الذات مع زيد السابق فى الدنيا، لدخول العدم بين زيدين فى الصورة الثانية وعدم دخوله فى الصورة الأولى ، ليس بفارق معتد به لأنه اذا أمكن دخول التقدم والتأخر بين الشيء ونفسه يمكن دخول العـدم أيضا، والتفريق بين الدخولين فى الامكان وعدم الامكان تحكم لا يمكن اثباته من مدعيه . والسبب فى امكان دخول التقدم والتأخر بين الشيء ونفســه فيما أمكن أن المتأخر ليس عين المتقدم من كل وجه فهما غيران مع الاتحاد الذاتى كما أوضحنا من قبل، واذا كانا غيرين جاز أن يدخل بينهما العدم أيضا كما دخل التقدم والتأخر

ولقد أخطأ العلماء المحققون الذين لم يجيزوا اعادة المعدوم حاكمين باستحالة تقـدم المبتدأ على المعاد مع كونهما ذاتا واحدة، قياسا على استحالة تقدم الشيء على نفسه الذى فى الدور المحال ، أخطأوا فى حكمهم هـذا وقياسهم لان هـذا التقدم الذى فى الدور يتضمن التناقض بان يكون الشيء موجودا قبـل وجوده . ولا تناقض فى تقدم زيد الذى فى الدنيا على نفسه فى الآخرة ، وسبب الفرق بينهما ان الشيء مع نفسه فى الدور نفسه من كل وجه ولا مغايرة بينهما أصلا، بخلاف تقدم المبتدأ على المعاد . فلا تناقض فيه، فمدار الاستحالة والامكان على وجود التناقض وعدم وجوده، فدخول التقدم بين الشيء ونفسه محال فى الدور لاستلزامه التناقض وكذا دخول العدم محال فيه ، ممكن دخول كل منهما فى اعادة الموجود فى الدنيا الى الوجود الثانى فى الآخرة بعد العدم، اذ لا تناقض فى هذا التقدم والتأخر كما لا تناقض فى تقدم زيد الشاب على زيد الشيخ، ولا تناقض أيضا فى دخول العدم بين زيد فى الدنيا وزيد فى الآخرة كما كان دخوله فى الدور موجبا للتناقض : فاذا قلنا ان حركة المفتاح متوقفة على حركة اليـد لا يجوز أن نقول وحركة اليـد متوقفـة على حركة المفتاح لكونه دورا ، وذلك لان القول الأول

يتضمن تقدم حركة اليد على حركة المفتاح تقدم العلة على معلولها، والقول الثانى يتضمن تقدم حركة المفتاح على حركة اليد بأن تكون حركة المفتاح علة لحركة اليد كما كانت حركة اليد علة لحركة المفتاح ، فتكون حركة اليد متقدمة على المتقدم عليها وهو حركة المفتاح، والمتقدم على المتقدم على الشيء متقدم على الشيء فيلزم تقدم الشيء على نفسه أى يلزم وجوده قبل أن يكون موجودا وهو تناقض مستلزم لوجوده وعدم وجوده معا فى آن واحد . ولا تناقض فى وجود زيد فى الدنيا قبل وجوده فى الآخرة ولا فى وجوده فى الدنيا شابا قبل وجوده شيخا لعدم كون كل من الوجودين المتقدمين علة للوجودين المتأخرين ولا الوجودين المتأخرين علة للوجودين المتقدمين ، بل الله موجدهما متقدمين ومتأخرين ولان زمان المتقدم ومكانه مختلفان عن زمان المتأخر ومكانه أو على الأقل زماناهما مختلفان ولهذا أمكن هذا التقدم والتأخر بين الوجودين ولم يضرا بمسألتنا بل نفعاها حتى لو كان زيد فى زمان وجوده فى الدنيا ومكانه فيها موجودا أيضا فى جنة الآخرة أو جحيمها كان محالا، وسبب الاستحالة على هذا التقدير ليس التقدم والتأخر بل كون الواحد اثنين، وكذا لو كان زيد شابا وشيخا فى زمان واحد.

ولنذكر مثالا ثانيا لتقدم الشيء على نفسه فى الدور المحال ليزداد ما يقابله من التقدم الممكن وضوحا : مثلا يصح القول بأن الدجاجة تخرج من البيضة ويصح القول أيضا بان البيضة تخرج من الدجاجة ولكن لاصحة لقول القائل مشيرا الى بيضة معينة ودجاجة معينة ان كلا منهما خرجت من الأخرى، اذ لايمكن أن تخرج الدجاجة من البيضة التى باضتها هى نفسها بعينها. فلا بد اذا كانت هذه الدجاجة خرجت من البيضة كما خرجت البيضة من الدجاجة ، أن تكون تلك البيضة خرجت من دجاجة غير هذه الدجاجة، والا لزم تقدم هذه الدجاجة على نفسها وأن تكون موجودة قبل وجودها لتخرج منها البيضة التى خرجت هى أى الدجاجة منها وهو تناقض محال ودور باطل

وصفوة القول في اثبات النشأة الأخرى أنها ثابتة ببلاغات صريحة محكمة من الله في الكتاب الذى أنزله على رسوله المؤيد رسالته بالمعجزات . فهذا دليل حدوث عالم الآخرة في المستقبل ووقوع ماورد بشأنها في كتاب الله فعلا وجسمانيا . ويلزم مع هذا الدليل النقلي مهما كان دليلا قطعيا أن يثبت امكان ذلك العالم بدليل آخر عقلي على معنى أن لا يوجد مانع عقلي من خلق هذا العالم بعد ثبوت وجود الله الذى تسع قدرته جميع الممكنات والذى خلق الحياة الدنيا قبل الحياة الأخرى . وقد تيسر لنا الفراغ بحمد الله من اقامة هذا الدليل العقلي على امكان المعاد اما بالاستعانة من بقاء الروح بعد افتراقها عن البدن أو بتحقيق جواز اعادة المعدوم

ولنا أن نستدل على وجود النشأة الثانية للانسان بدليل « كانت » على وجود الله كما جعلناه فيما سبق دليلا على وجود الأنبياء ترجيحا على كونه دليلا على وجود الله، بل الدليل المذكور يقوم على وجود النشأة الثانية قبل أن يقوم دليلا على وجود الأنبياء في رأينا وقبل أن يقوم دليلا على وجود الله في رأى « كانت »

ولنا أيضا أن نقول في اثبات الحياة الثانية للانسان في عالم آخر إن كون الانسان مخلوقا أو موجودا في غاية الأهمية لا يتناسب قطعا مع كون وجوده مقصورا على حياته الدنيا القصيرة . فالذين يعتقدون ان الانسان فردا أو أمة يظهر في وجه الأرض مدة كما يظهر النبات ثم يغيب ويتلاشى أبدا ويُنسى كأنه لم يكن موجودا ولا شيئا مذكورا، فهم قبل كل شيء يحتقرون أنفسهم ويحتقرون عقولهم في ضمن احتقارهم أنفسهم وينكرون البعث بعد الموت بهذه العقول الحقيرة . أما ماقرأته قبل سنين في مقالة نشرت في جريدة « الاهرام » لواحد من الماديين من أنهم ينتظرون من رقي العلم في المستقبل أن يكتشف دواء لكل داء ويرفع الموت فيحصل للبشر الخلود ونعيم الجنان في الدنيا ، فلا ينفع الذين ماتوا من أعاظم العقلاء وأكابر المحسنين عملا الماضين والآتين قبل حلول ذلك الزمان المخيل ، ولا يكون عزاء للمتخيلين أنفسهم فلا ينقذهم

من الاحتقار ولا ينقذ غيرهم من الضياع الأبدى

وأما استخراج خلود الروح من ثبوت وجودها بالكشفيات الجديدة ثم استخراج وجود عالم الآخرة من خلود الروح كما وقع للأستاذ فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر فى بعض تطوراته الجديدة ، من غير اسناد ذلك العالم الى نصوص القرآن لكونها عنده متشابهة لا تصلح دليلا لاثبات أى مطلب — فاستخراج لا يخرج منه مايصلح للدلالة على المطلوب ، لأن وجود الروح لايستلزم خلودها ولا خلودها يستلزم وجود عالم الآخرة مطلقا فضلا عن وجوده فى صورة جسمانية كماهو المعتقد فى دين الاسلام مبنيا على منطوق آيات كثيرة جداً من كتاب الله محكمات

## خاتمة الأبواب الثلاثة المتقدمة

وهنا فى الكتاب الكبير كنا وضعنا نتيجة لمساعينا فى الأبواب الثلاثة السابقة التى هذا الكتاب الصغير مكوّن من ثالث تلك الثلاثة . وقد رأينا اثبات هذه النتيجة بعينها فى هذا الكتاب أيضا رجاء نفعها للقارئين الكرام :

نرى من اللازم المفيد أن نسجل هنا ونحن فى مختتم الباب الثالث من هذا الكتاب على نتيجة مساعينا فى الأبواب الثلاثة التى أثبتنا فى الباب الأول منها وجود الله وفى الثالث وجود الأنبياء وفى الثانى حدوث العالم، فلولا ماثبت فى البابين الأولين من وجود الله وحدوث العالم لاسيما وجود الله لما أمكن ايضاح كيفية وجود العالم ووضع فلسفة عامة لكيانه أولا ونظامه ثانيا . وملاحدة الماديين والطبيعيين فى عجز تام عن وضع هذه الفلسفة العالمية على الرغم من أنهم علماء الطبيعة الذين احتكروا اسم العلم لما لايعلمون ، واختلافنا معهم انهم يعترفون بوجود هذا العالم المحسوس الذى يعبر عنه بالطبيعة ولا يعترفون بموجود فيما وراءه . نعم ، العالم المحسوس الذى هو عالم الطبيعة لايقف عند حد بل يزداد يوماعن يوم بكشف جديد من علماء الطبيعة فيظهر غداً وجود كثير مما لم يكن لنا بالأمس علم بوجوده ، وملاحدة الماديين

لا ينكرون ذلك، لـكنهم لا يعترفون بوجود مازاد على العالم المحسوس الا بعـد ان ثبت وجوده بالتجربة الحسية التي يقوم بها العالِم الـكاشف، ولا يؤمنون بالغيب الذى نؤمن به، مادام غيباً خارجاً عن متناول الحس ، وان شئت فقل : لا يؤمنون بشيء فيما وراء الطبيعة الا بعد أن أطلع عليـه علم الطبيعة بتجاربه الحسية وألحقه بالطبيعة ، فلا شيء عندهم فيما وراء الطبيعة مابقى فيما وراءها . وهذا العالم المحسوس موجود عنـدهم من نفسه من غير موجد أنشأه ومالك يتصرف فيه ويمشّيه على النظام الذى سن له . وقد قلنا فى مقدمة الباب الاول من الـكتاب الكبير ان هذه البيوت والمنازل التى يسكنها الناس فى المدن والقرى من قصور الملوك الى أكواخ الفقراء، اذا كان لابد لـكل منها من بان فمن الذى بنى السموات والارض ومن هو مالـكها المتصرف فيهـا والمهيمن عليها وفاعل هذه الأفعال البديعة التى يتضمنها الـكون ؟

فالذين لا يؤمنون بوجود خالق الـكون وواضع نظمه مثلهم كمثل المنكرين لوجود من بنى تلك البيوت والقصور القائلين بأنها مبنية من نفسها ماداموا لم يروا بانيها وهو يبنيها . ونحن المؤمنـين بالغيب تحت إشراف العقل وارشاده نعترف عند رؤية البناء بوجود البانى وان لم نره . فالفرق بيننا وبينهم بسيط الى هذا الحد، فهل يسع الملاحدة أن يدّعوا امكان وجود بيت أو قصر من تلك البيوت والقصور التى هى صنع البشر، بنفسها من غير وجود بان وصانع ؟ فان لم يسعهم ذلك فـكيف يسعهم القول بوجود صرح العالم بسماواته وأرضه بنفســه من غير وجود بانيه ؟ أليس للسموات والأرض أهمية كأهمية واحد من البيوت المبنية بأيدى البشر حتى تستغنيا عمـا لا يستغنى عنه من البانى، أم كان استغناؤهما عن البانى لكونهما فى غاية العظمة والبداعة ؟ أما الاحتمال الأول وهو كونهما فى الأهمية دون البيوت المبنية بأيدى البشر فباطل بالبداهة ، وأما الاحتمال الثانى وهو أن يكون البناء الأعظم والأبدع مسـتغنيا عن البانى حين كان أقل البنيان وأحقره غير مستغن عنه ففى غاية البعد من العقل

لالا ، ان القائلين باستغناء العالم عن الصانع لم يقولوا به لتفاهته ولالكونه فى غاية العظمة بل لأنهم وجدوا صرح العالم حاضراً أمام أعينهم مصنوعا ، من غير حاجة الى نشدان صانع له ولو لم يجدوه حاضراً لما وسعهم القول بوجود أصغر جزء منه من غير صانع . فسبب استغناء العالم عندهم عن الموجد هووجوده من غير حاجة اليه فى نظرهم ، وهم ليسوا بأذكياء لحد ان يتنبهوا لما فى هذا التعليل من المصادرة على المطلوب . ومن السهل على القارىء أن يفهم مبلغ ذكائهم من عدم أبههم بالعقل كما يأبهون بالحس ، ذلك االذى أحوجنا على طول الكتاب (الكبير) الى الدفاع عن كرامة العقل حيال الحس

فان قيل ملاحدة المادية والطبيعية قائلون بأن العالم لاأول لوجوده فهو موجود من الأزل ولهذا استغنى عن الموجد لان ايجاد الموجود تحصيل للحاصل ، وليس للمؤمنين بالله أن ينكروا وجود مالا أول لوجوده واستغنى عن الموجد لأن الله تعالى عندهم لاأول لوجوده وهو مستغن عن الموجد لهذا السبب، فكما أن الله تعالى لا أول لوجوده ولم يسبقه العدمفاستغنى عن الموجد فليكن العالم كذلك عند الملاحدة

قلتعقلاء البشر مضطرون ـ لقطع التسلسل فى تعليل وجود الموجودات المحتاجة الى علة موجدة ـ الى الاعتراف بوجود موجود بنفسه لاأول له ولا موجد يوجده ، ليكون علة أولى لسائر الموجودات وينتهى فيه تسلسل العلل . ومعنى هذا ان وجود الله بنفسه من غير موجد يوجده نعترف به اضطراراً وعلى خلاف القياس والا فعقل البشر لايدرك موجودا لاأول له ولا موجد ، وان كان يدرك ضرورة وجود هذا الموجود بعد النظر فى وجود العالم ، ولولا الضرورة القاضية لما اعترفنا به . وبعد الاعتراف بوجود واحد لاأول لوجوده لانحتاج الى وجود موجودات كذلك ، بل لانجيز وجود موجود آخر من هذا القبيل لأن الضرورات تقدر بقدرها .فالفرق إذن بيننا نحن القائلين بوجود إله واحد خالق للكائنات وبين منكرى الاله الخالق القائلين

بوجود الكائنات بأنفسها وطبائعها من غير موجد ، اننا نعتقد موجودا واحدا يجب وجوده لاسناد وجود سائر الموجودات اليه ، وهم يعتقدون وجود موجود واجب الوجود بعدد الموجودات فى العالم لأن الموجود بنفسه من غير موجد يكون واجب الوجود، مع ان القول منا بوجود موجود واحد واجب الوجود لم يحصل إلا اضطراريا فلا يجوز أن يُتعدى فى القول به حد الاضطرار، ومع ان موجودات العالم غير جديرة بأن تكون واجبات الوجود

ولا يقال ان ملاحدة المادية والطبيعية لايدّعون كون العالم موجودا بنفسه من غير موجد كالبناء من غير بان بل يقولون انه فعل الطبيعة وأثرها . لانا نقول ان كان ماعبروا عنه بالطبيعة موجودا ذا علم وقدرة وإرادة تكفى لايجاد العالم وتمشيته بعد ايجاده على وجه النظام المشهود وكان هذا الموجود لايحتاج فى وجوده الى أى شىء حين كان وجود كل شىء محتاجا اليه ، فهذا هو الله الذى نقول به نحن المؤمنين بالغيب ولا يبقى خلاف بيننا وبينهم الا فى التسمية والتعبير . لكنا نعلم ان الطبيعة التى يقولون بها بدلا من الله لايريدون به موجودا مستقلا عن العالم وانما هى عندهم كناية عن عدم وجود موجد للعالم لكونه موجودا بنفسه وطبيعته. وهذا عندنا هو القول بالمحال لأن الموجود بنفسه لايكون الا واجب الوجود كما قلنا ويكون مستحيلا تغيره من حال الى حال ووجوده أو وجود شىء منه بعد العدم وعدمه أو عدم شىء منه بعد الوجود، بل يستحيل تجزؤه وتركبه المستلزم لاحتياجه الى أجزائه والعالم المتغير المتجزئ المحتاج على الأقل الى أجزائه لا يكون واجب الوجود بل ممكنا يقبل الوجود والعدم متساويين بالنسبة الى ذاته، فيحتاج فى وجوده الى مرجح يرجح له جانب الوجود ويوجده بعد ان كان معدوما ، وفى عدمه الى مرجح يرجح له جانب العدم فيعدمه بعد ان كان موجودا، وفى وجوده يحتاج أيضا الى مرجح يرجح له أن يكون على نوع معين من أنواع الوجود وعلى شكل معين من أشكاله فلو أنكرنا له هذه الحاجات كان قولا برجحان أحد المتساويين بنفسه على الآخر من غير مرجح وهو

محال متضمن للتناقض . وهـذا المرجح عندنا فى وجوده أو عدمه وفى كونه على نوع معين من أنواع الموجود وعلى شكل معين من أشكاله هو إرادة الله كما قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ( وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ) فلو كان العالم أو أى جزء من أجزائه موجوداً بنفسه من غير موجد وموجودا على نوع معين وشكل معين من غير معين ، لزم الرجحان من غير مرجح أى لزم كون ما فرض وجوده وعدمه ثم وجوده على نوع دون نوع وشكل دون شكل متساويين بالنسبة الى ذاته ، خلاف ذلك أى غير متساويين . وخلاف المفروض محال متضمن للتناقض

فالملاحدة الزاعمون أن مذهبهم فى عدم الاعتراف بوجود الله مذهب العلم غير المعترف بما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية غافلون وجاهلون لحد أن يزعموا التناقض المحال علما . فاذا كان العلم الطبيعى يبحث عن الأثر ويغفل المؤثر أو يبحث عن المؤثر القريب ويغفل العلة الأولى فالعقل الذى يميز المحال من الممكن والذى هو أبعد نظراً من العلم الطبيعى وأوسع ، يقضى بأن الكون أثر إرادة علية عليمة مسيطرة على مايدعونه الطبيعة . ولعل سبب عدولهم فى ادارة الكون من هذه الارادة العليمة الحكيمة الى طبيعة لاعلم لها ولا ارادة بل لا وجود لها أيضا كما حققنا (فى الكتاب الكبير ) من أنها كناية عن عدم وجود فاعل لهذا الكون ونظامه ، سبب عدولهم اليها على الرغم من استحالة صدور مثل هذا الأثر العظيم عما لا علم له ولا قدرة ولا إرادة بل لا وجود ، انه اذا لم يكن لهذا الكون مالك سوى تلك الطبيعة المعدمة التى ليس من شأنها أن يحاسب أحد على ما فعله فى السر والعلن ، فلا توجد فوق الانسان قوة يخشى بأسها ولا يؤمن مكرها فتحصل له الحرية التامة كما يعبرون ويعتزون به . ومن هذا بنى الفيلسوف « كانت » مسألة وجود الله على دليل الأخلاق وقال لولا الله لانهارت دعائم الأخلاق . ونحن مع استحسان دليله هذا مصرون على

القول بأنا لانجده فى القوة والأهمية بحيث تبنى عليه مسألة وجود الله التى هى أعظم المطالب الفلسفية وأهم من كل شىء ومن مسألة الأخلاق أيضا . وقد سبق الكلام عليه فى آخر الباب الأول ( من الكتاب الكبير )

على أن العلم الحديث المثبت الذى يعزى اليه عدم الاعتراف بوجود الله ، آخر مذهب هذا العلم ان كل شىء فى الكون راجع الى الحركة ولا موجود غيرها حتى ان المادة التى كانت لها الأزلية والأبدية عند الماديين البوخنريين ، لاوجود لها وانما البقية من تلك المادية القديمة هى القوة وهى الحركة . ولا نناقشهم هنا كيف تكون حركة من غير أن يكون هناك شىء متحرك هو المادة أو مايقوم مقامها بعد زوال دولتها الأزلية والأبدية ؟ وانما نسألهم عن سبب هذه الحركة أعنى المحرك، ولا نرتاب فى أنهم يقولون فى الجواب أن سببها الحركة التى اتصلت بها من جانب الماضى طبق ماذهب اليه « ديمقراط » الحكيم اليونانى القديم ، كما ان سبب تلك الحركة المتقدمة بدرجة واحدة هو الحركة المتقدمة بدرجتين . وهكذا الحال فى كل سلسلة الحركات الميكانيكية بأن يكون ماتقدم منها سببا لما تأخر ومولداً له وما تقدم المتقدمَ سبباً مولداً للمتقدم وهكذا دواليك من غير أن تكون لسلسلة الحركات الممتدة الى جانب الماضى نهاية تبدأ منها السلسله ولا تكون قبلها حركة . وبفضل هذه اللانهائية تجد كل حركة سببها فيما قبلها ولا تحتاج الحركات المتسلسلة الى محرك خارج عن أجزاء السلسلة المحرك بعضها بعضا

هكذا يقولون اليوم ، وبهذا يتضح أن المرجع الحقيق لاستناد الملاحدة فى قولهم باستغناء العالم الذى هو اسم لمجموعة الكائنات عن وجود الله ، ليس عقيدة عدم احتياج أى موجود فى وجوده وأى حادثة فى حدوثها الى السبب وان كان ظاهر قولهم بأن كل ما كان وما يكون فى العالم ناشئ من طبيعة الكائن يقتضى نفى السبب ، لكن الحقيقة انهم لاينكرون مبدأ العلية ولا يقولون بتكوّن كل كائن بنفسه من غير تأثير فيه من الخارج وهو الذى يعبر عنه علماء الكلام بالرجحان من غير مرجح

ويبطلونه . فالملاحدة أيضا لايقولون بهذا الذى يتنافى مع مبدأ العلية وانما يقولون بنفى السببية والعلية من خارج العالم فلكل كائن سبب يوجب كونه والسبب كائن آخر له سبب أيضا ولسبب السبب أيضا سبب وهلم جرا الى مالا نهاية له من الأسباب المتقدمة المهيئة لمسبباتها التى كل منها أيضا سبب لما بعده . ولعدم انتهاء الأسباب المتقدمة الى سبب أول لاسبب قبله ولكون العالم قديما عندهم لابداية له ، على خلاف ماقلنا نحن فى الباب الثانى ان العالم حادث له بداية ، فلا حاجة عندهم لوجود العالم الى وجود الله ، لأن وجود العالم عبارة عن وجود سلاسل أسباب غير متناهية لمسببات مثلها غير متناهية ولكون الأسباب غير متناهية فى جانب الماضى وكون جميعها داخلة فى أجزاء العالم فلا يجىء فى الجانب المتقدم دور الحاجة الى وجود الله فى خارج العالم ليكون سببا أول لتلك الأسباب وعلة أولى لتلك العلل ، اذ لو جاء دورها لجاء بعد انتهاء الاسباب المتقدمة الداخلة فى العالم الى سبب لايتقدمه سبب من جنسه داخل فى العالم ، لكنهم يقولون ان الاسباب العالمية المتقدم بعضها على بعض غير متناهية

فالأساس الاخير لمذهب الالحاد وسنده الذى يستند اليه نهائيا قدم العالم وتسلسل العلل، وما يتوقف عليه هدم هذا المذهب اثبات حدوث العالم وابطال تسلسل العلل والاسباب الى غير نهاية . وقد كان أعظم غلطة وقع فيها الشيخ محمد عبده ولن يقع فى مثلها رجل من رجال العلم والدين ، انكاره لبطلان التسلسل الذى يدور عليه اثبات وجود الله تعالى [١] ونحن بتوفيق الله عز وجل قمنا بواجب هذا الابطال فى أمكنة عدة من هذا الكتاب ( الكبير ) أوضح قيام يتمكن من ادراكه الخاص والعام ولا نضن هنا أيضا بصورة مختصرة من ابطال ذلك الباطل تطبيقا له على آخر نظرية علمية فى الكائنات أعنى كونها عبارة عن سلاسل الحركات ، فنقول :

تسلسل الحركات الى غير نهاية فى جانب الماضى على أن لا يكون لأى حركة منها

---

(١) سبق منا فى الباب الأول والباب الثانى ( من الكتاب الكبير ) ان نقلنا نص قول الشيخ بانكار بطلان التسلسل ورددناه عليه

سبب محرك غير الحركة التى قبلها فتكون كل حركة تقدمتها حركة أخرى تولدها، فلا نهاية للحركات الماضية ولا نهاية لأسبابها التى هى عبارة عن الحركات أيضا .. تسلسل الحركات هكذا باطل ، ولا نبنى دعوى بطلانه على برهان التطبيق أو غيره من البراهين المبطلة للتسلسل المعروفة عند علمائنا المتكلمين بل عند الفلاسفة القدماء أيضا والتى اعترض عليها بعض العلماء قديما أو حديثا بحق أو بغير حق [1] وانما نبنى دعوانا على ابطال فعلى يقتنع به القارئ معنا فنقول : ان دوام الحركات فى جانب الماضى التى لامحرك لها رأسا غير تحريك بعضها بعضا ضرب من الوهم والخيال. فالأوهام الكاذبة التى رمى بها الشيخ محمد عبده البراهين المنصوبة لابطال التسلسل موجودة فى التسلسل نفسه لاسيما تسلسل العلل ، لكن الشيخ التبس عليه محل الوهم الكاذب فظن المبطل باطلا والباطل حقا، تتضح هذه الحقيقة عند تصور المسألة فى عدد متناه من الحركات فلو فرضنا انتهاء سلسلة الحركات الممتدة من الحال الى الماضى بعد خمسين حركة متراجعة وفرضنا كون سبب الحركة الأخيرة المتصلة بزمان الحال هو الحركة التاسعة والأربعين وسبب الحركة التاسعة والأربعين هو الحركة الثامنة والأربعون وسببها السابعة والاربعون ، وهكذا الحال الى أن نأتى الحركة الاولى فرأيناها لاتستند الى محرك من خارج السلسلة أى لاسبب للحركة الاولى، وليست حركتها قوانية (ديناميك) تندفع بنفسها بل حركة ميكانيكية منتظمة وكذا الحركات التى بعدها. فاذا انتفى سبب الحركة الاولى انتفت الحركة الاولى نفسها واذا انتفت الحركة الاولى التى كانت سبب الحركة الثانية انتفت الحركة الثانية أيضا وبانتفاء الثانية انتفت الثالثة وبانتفائها انتفت الرابعة ، وهكذا يقال فى كل حركة بعد حركة منفية الى أن نبلغ الخمسين فرأيناها لاسبب لها ولا حركة . فسلسلة الحركات المؤلفة من خمسين حركة تصير ضربا من الخيال الكاذب اذا لم يكن هناك محرك أصلى سوى تحريك الحركات

(١) تقدم الكلام على هذه النقاط فى البابين الأولين ( من الكتاب الكبير ) لاسيما فى فصل حدوث العالم من الباب الثانى

بعضها بعضا بأن يحرك المتقدم منها المتأخر الذى يليه ، لانا رأينا عيانا أن لا حركة متقدمة ولا تحريكها للمتأخر . نعم رأينا انعدام الحركات لانعدام أسبابها ، فى سلسلة فرضناها مؤلفة من خمسين حركة وهى متناهية ، فهل يكون الحال غير مارأينا من الخيال لو فرضنا سلسلة الحركات لا تنتهى فى جانب الماضى الى حركة لاتتقدمها حركة أى لو فرضناها غير متناهية ؟ وماذا ينفع سلسلة الحركات التى رأيناها لا وجود لها الا فى الوهم والخيال عند فرضها مؤلفة من خمسين حركة ، ماذا ينفعها أن نضم اليها من أمثالها عددا لانهاية له من جانب الماضى ، فهل تنقلب الحركات الموهومة المتناهية بانضمام الحركات الموهومة غير المتناهية اليها حركات واقعية ؟ والواقع ان الزيادة فى الموهوم الكاذب لاتكون الا زيادة فى الكذب والوهم ، وان كان فى الزيادة اللامتناهية التى لايمكننا معاينة جميع أجزائها كمعاينة كل جزء من أجزاء السلسلة المؤلفة من خمسين حركة ، بعضُ تغطية واخفاء لما تضمنته من كاذب الخيال . فاذا لم يكن لتلك الحركات المفروضة محرك غير أن يكون المتقدم منها سببا للمتأخر لزم أن يكون كل مافرض وجوده من تلك الحركات غير موجود ، وهو تناقض محال سواء كان عدد الحركات متناهيا أوغير متناه

فمهما اعترض المعترضون على بطلان التسلسل وانتقدوا البراهين المقامة لابطاله فهذا النوع من التسلسل وهو تسلسل العلل والأسباب الذى تأخذ كل علة فيه وجودها وعليتها من علة أخرى قبلها من غير أن تكون هناك علة أصلية تنتهى فيها سلسلة العلل ولا يكون وجودها وعليتها مأخوذة من غيرها ، والذى ينبنى اثبات وجود الله على إبطاله ، ليس فى بطلانه أدنى ريبة لعدم وجود سلسلة كهذه الا فى الوهم والخيال . والذين يعتبرون الكون مجموعة مؤلفة من سلاسل حركات لابداية لها وكلَّ حركة فى كل سلسلة متولدةً من حركة مثلها متقدمةٍ عليها ، يخيل اليهم وجود حركات لانهاية لها فى جانب الماضى كل حركة سبب لما بعدها مسببة عما قبلها ، ولا سبب لهذه الحركات من خارج السلسلة غير تولد بعضها من بعض . لكن هذه السلسلة المتوقف وجود كل

جزء منها على وجود جزء قبله لم تكن عبارة عن سلسلة موجودات مسببات عن أسباب موجودة بل سلسلةَ موقوفات فى وجودها على موقوفات ومحتاجات الى محتاجات، فان كان أول جزء من هذه السلسلة موجودا فكل ماعداه المبنى وجوده على وجوده موجود أيضا ، لكن لا أول لهذه السلسلة حتى يقال ان كان موجودا فكل ماعداه موجود ، بل يفر هذا الأول كلما أردت النظر فى حاله لتعلم انه موجود أو غير موجود الى أول منه فتجده موقوفا وجوده على وجود ماقبله وتجد ماتريد ان تعتبره أول ليس بأول ، ومهما أمعنت فى الطلب فلن تصل بذهنك الى أول جزء لهذه السلسلة فاذن لاوجود لأولها ولا وجود لها حتى يكون لأولها وجود واذا لم يكن لأولها وجود فلا وجود لما بعد أولها المبنى وجوده على وجوده . واذن لاوجود لسلسلة حركات غير متناهية يظنونها موجودة على الرغم من ظهور عدم وجودها عند درسها متناهية ، فما هى الا سلسلة حركات معلقة الوجود على أسباب غير موجودة على ظن أنها موجودة. ومنشأ الغلط فى الظن اقامة عدم تناهى الأسباب التى لاوجود لها مقام وجود الأسباب، وقد أوردت فى الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب (الكبير) أمثلة تزيد فى إيضاح مافى هذا التسلسل من البطلان . والنتيجة ان العالم ان كان عبارة عن مجموعة مؤلفة من سلاسل حركات فلا بد أن يكون لها محرك من خارج السلسلة هى تنتهى فيه، والا فلا يمكن وجود حركة واحدة فضلا عن وجود سلاسل حركات وهذا المحرك هو الله . ثم انه لو أمكن استغناء عالم الحركات الذى هو عالمنا على آخر رأى العلم ، عن محرك مستقل غير تحريك الحركات بعضها بعضا ولم يترتب عليه مابيناه من التناقض لاحتاج ذلك العالم الى وجود الله فى نظام الحركات وفى تعيين مايترتب على الحركات من الغايات ، ان لم يحتج اليه فى نفس الحركات من طريق فرض المحال

هذا تلخيص اثبات وجود الله وفى ضمنه اثبات حدوث العالم باثبات البداية له

عند ابطال التسلسل اللازم لاثبات وجود الله . أما إثبات وجود الأنبياء فقد أقمنا عليه فيما سبق غير بعيد [١] دليلا أقامه الفيلسوف «كانت» لاثبات وجود الله الذى هو أعلى مطلب فلسفى، فى حين انا لم نره متناسبا مع جلالة ذلك المطلب، لعدم إفادته اليقين الضرورى الذى هو وجوب الوجود كما أفادته الأدلة التى ذكرنا صورة مختصرة منها آنفا . وحسبنا فى القيام بواجبنا إزاء مطلب اثبات النبوة أن بنيناه على دليل يعدل فى الأهمية دليل «كانت» لاثبات وجود الله . وسنقيم دليلا آخر خاصاً بنبوة نبينا ﷺ فى الباب الرابع من الكتاب (الكبير) عند الكلام على مسألة فصل الدين عن السياسة

وأما مسألة معجزات الأنبياء فنخالنا فى غنى عن التنبيه الى مبلغ عنايتنا بها ، وقد استغرقت مكافحة منكرى المعجزات طول الباب الثالث من الكتاب (الكبير) وذلك الباب الثالث قد قرأ القارى الى هنا فى شكل كتاب صغير مستقل . والآن ننتهى مما أردنا أن نكتبه نتيجة للأبواب الثلاثة المتقدمة وعند ذلك ننتهى أيضا من الكتاب الصغير سائلين الله تعالى الهداية والمغفرة لنا وللقارئين

---

(١) ص ٨٣ — ٨٦

---

الرجا اصلاح الأغلاط أولا كالآتى :

٦-١ : وهذا قول الاستاذ ٦-١٨ : التبه ١٨-٣: تصارحان ١٩-١: انكار النبوات ٢٠-١٣: أن ٢٥-٢: من رســـل الله والآيات الظاهرة ٣٦-٥: عند النظر فى مناسبة ٣٨-١٠: المتادة الواقعة ٤١-١٣: فى مجلدات، مجلدين ٤٣-١: على قول هذين الشيخين ٤٦-١٤: الغربيين، ٥٢-١٩: الثلاث ٥٥-٢٠: أسلافه ٥٧-١: ولن ترى ٦٣-٢٣: هذا ٦٦-١٤: قيمته ٧٢-٩: تسقط ٧٤-١٤: المعجزات ٩٤-٢٠: ٢٢-٢٤، ٩٦-٢٢: فى الشفاء ١٠١-١٩: ولو كان ورد ١٠٢-١٩: المتقدمة ١٠٣-١: من المتبعين ١٠٤-٨: مع العلم ١١٠-٢٢: فى معاداة ١٢٠-٥: من علماء ١٢٨-١: جرم ١٤٠-٩ ولاننى ١٤٣-١٧: يستثقلها ١٤٤-٩: اختار الله ١٧٠-٤: بالتوفية ١٨٤-٢١: النعمانى ١٩٧-٢٢: الخمس ٢٠١-٣: الحياة

# فهرس الابحاث المذكورة فى الكتاب

## أسماء الرجال المذكورين فى الكتاب من غير أعاظم الاسلام المتقدمين مثل الصحابة والتابعين وأقطاب الفقه والحديث